إمِلي نصرالله

خُبْزُنَا اليَوْمِيّ

نوفل

إملي نصرالله

خُبْزُنَا اليَوْميّ

مجموعة قصصية

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2017 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان
الطبعة الثالثة، 2018

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2017
المكلّس، بناية أنطوان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
twitter.com/NaufalBooks instagram.com/HachetteAntoine facebook.com/HachetteAntoine www.hachette-antoine.com
لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **مها نصرالله**
خطّ الغلاف: **سمير الحداد**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-231-8
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-440-4

تسجيل القصف المباشر بالكلمات

انفجار
خبزنا اليومي
المعابر
مجهولة الهوية
أتظاهر
الرصاصة تكتب القصة

انفجار

لستُ أدري، مَن الذي يسجّل هذه الكلمات من بعدي: أهو القلم الذي فرّ منّي في بعض الطريق، وأنا راكضة، أجرّ خلفي طفلتي، لنبلغ الملجأ قبل أن تُدخلنا قذيفة عشوائيّة، خبر كان...

أم هو الجسد، الذي رفعوه من تحت الأنقاض، ومن بين الدمار والحرائق، ليضعوه في كيسٍ من البلاستيك، بات له البديل عن الجلد الأصيل؟...

أقول: «الجسد»، وأنا أقصد ما تبقّى منه؛ تلك الكتل المرضّضة، المقطّعة، المسلوخة، المحروقة، والتي لا تربطها أيّة علاقة، من قريب أو بعيد، بتلك القامة المشيقة، الرشيقة، التي دخلَتِ «السوبرماركت»، تلوِّح بمفاتيح السيارة بيد، وتُمسك بالأخرى يد الطفلة الحلوة: نينار.

* * *

نينار... حبيبة قلب أمّها وأبيها، قرّة العين، وردة الفصول الأربعة، والتي تُفاجِئنا كلّ يوم، بلون جديد، وعطر مميّز.

في ذلك النهار، وكان يوم سبت، على ما أذكر، بكّرت نينار بالنهوض؛ اقتربَت من سريري، وراحَت تهزّني:

– قومي...

– ما بكِ، يا حبيبتي؟ سألتُها، وأنا أفرك بقايا النعاس عن أجفاني... فكرَّرَت أمرها:

– قومي... وعدتِني بالذهاب إلى السوبرماركت، لشراء دمية الملفوفة، لا توجد سوى عنده؛ أريد دمية الملفوفة...

ابتسمتُ، وغمرتُها، محاوِلةً أن أغرِيَها بدفء ساعديّ، لكنّها لم تُؤخَذ بالحيلة، ولم تتسلّق السرير كعادتها «لتغرش» في حضني، وتمدّني بتلك النشوة الأثيريّة.

ظلّت تصرّ على الخروج، هدفها الوحيد لذلك النهار.

سألتُها مداعِبة:

– وهل أبصرتِ اللعبة – الملفوفة – في الحلم؟

فلم يُعجبها سؤالي، ولم تردَّ عليه، وبقيت متشبّثة بأطراف أناملي.

* * *

أمام إلحاحها، لم يكن باستطاعتي سوى الرضوخ.

في الحقيقة، إنّي قرّرت قبل يومين، من ذلك التاريخ، بأن أخصّص ساعتين من قبل ظهر السبت لشراء حاجات العائلة. المأكولات وأدوات التنظيف، وسواها من موادّ يزخر بها المخزن، ويستهلكها البيت بشهيّة عظيمة، دون أن يشبع أو يرتوي.

وهكذا التقى حلم نينار مع خطّتي المرسومة بدقّة وعناية؛ فأنا امرأة عاملة... أي إنّي أحتاج إلى تنظيم نفسي، والاستفادة من كلّ دقائق يومي، كي أرضِيَ الله.. وأرضِيَ القيصر. أكون مقبولة، عند ربّ العمل، وربّ العائلة.

* * *

– لدينا ساعتان من الوقت. والمكان ليس بعيدًا، أرجو، يا نينار، ألّا يكون «الأوتوستراد» مزدحِمًا كجاري عادته.

لم يَبدُ أنّ ابنتي سمِعَتِ الكلام الموجّه إليها. لمحتُ وجهها من المرآة الأماميّة؛ كانت ترنو بعينَيها من نافذة السيارة، إلى الخارج... تتأمّل البحر، وتسجّل كل ما يمرّ بها، مستسلِمَةً للدهشة والذهول، بل الشرود. وتنساني، ولا تعود تسمع صدى هذَياني.

كان شعورٌ من السعادة يغمرني لأنّي تمكّنت من التوفيق بين واجبي ونزهة طفلتي، واعتبرتُ خروجي فرصة عظيمة، أعوّض بها نينار عن غياب قسريّ، يُلزمني به عملي. وقرّرتُ أن أجعل الدقائق التالية، فرصةً للمتعة والفرح، إلى أقصى حدّ.

وهكذا أوقفتُ السيّارة في مكان غير بعيد عن مدخل المخزن. وفتحتُ الباب كي أساعِدَ طفلتي على النزول. ثم توجَّهنا معًا نحو الباب؛ أنا أسير بهدوء، وهي تقفز حولي وترقص، وتقوم بحركات دائريّة، مثل التي ترسمها النحلة إبّان طيرانها.

هذه نينار، نحلتي العذبة، العسليّة العينَين، الورديّة الثغر والوجنتَين، الحلوة بشكلها، وبطعمها، كزهرة «الزمزريق».

سبَقَتني إلى حيث تصطفّ العربات الفارغة، فسحَبَت واحدة وراحَت تقودها وهي تُصدر أوامرها إليّ:

– نبدأ من هنا...

– كانَت أصبعها الصغيرة تشير إلى جناح الألعاب. حاولتُ أن أُقنعها بأنّنا سنعود إلى ذلك الجناح السحريّ، إنّما علينا أن نختار أوّلًا، الحاجات الضروريّة.

لم يُعجبها هذا الرأي. فنظرَت إليّ بعُبوس، ثمّ قالَت:

– والألعاب... أَوَليسَت ضروريّة؟...

ابتسمتُ، كي أغطّيَ انزلاقي في خطأ لا يُغتفَر، ثمّ قلتُ:

– بل هي الأهمّ. ولذا سنتركها حتّى نفرغَ من هذه الأمور المزعجة، فنعطيها ما تستحقُّه من انتباه.

فهمَت نينار لهجتي المخلصة، قبل أن تُدركَ معنى الكلام... فصمتَت. وراحَت تسير بجانبي، وتمدّ يدها، من حين إلى آخر، فتتناول علبة، أو كيسًا، تضعه في العربة، إمعانًا في استعجال الجولة، كي نصلَ إلى غاية القصد، والهدف الأهمّ لحضورها معي.

* * *

لاحظتُ أنّ المخزن مزدحم بالزبائن. وهذا أمر طبيعيّ، في عطلة الأسبوع. كما شاهدتُ أكثر من صديقة، ترافق أطفالها، مثلما أفعل أنا، وتتركهم يرفّون حولها، مدهوشين بما يشاهدون، ممتلئين غبطة ونشوة؛ إذ إنّ الخروج من البيت، في هذه الأيّام، هو أشبه بمغامرة في المجهول... كذلك هو الدخول، والجلوس، والصمت والحركة، والجمود.

كلّ الأسماء تحمل الخطر... لأنّه – أي الخطر – ليس محدوداً بمكان، أو بزمان. فهو يهبط كالقَدَر، من حيث لا ندري، ويُرخي أجنحته فوق هامات المدن

والضواحي. وحين يطويها ويرحل، ترى المكان وقد تحوّل إلى رماد. وإلى بقايا، تُخبر بالرمز والإشارة بأنّه كان مأهولًا، ذات يوم...

* * *

هذا ما حدث قبل أيّام. هذا ما بقِيَ في خلايا الذاكرة، وهي تتجوّل بين الناس، ومعهم.

كلّ حركة، بل كلّ مسلك أو تصرّف، يُعيدنا إلى أسباب القلق، بل الرعب. وفيما نحن ننشد السلوى والنسيان، ترانا نعود فنغرق في جحيم الذكريات المرعبة:

أمس في «سدّ البوشرية» وقبله، في «سنّ الفيل» وقبل قبله، في «بئر العبد» وبعده، وقبله، وفي أثره، وعلى وَقعِ خطاه...

هنا، وهناك وهنالك، ينتقل الموت، كالوحش المسعور ولا تطلع نبوءة تُشير إلى: متى، وكيف وأين يمكن أن يحطّ رحاله!

* * *

– إنّها لعبة جديدة، يا أمّي. اسمها، بالعربي الملفوفة – الملفوفة على قماش... نانا اشترت واحدة من لندن، وجوجو أهدَتها خالتها واحدة؛ وأنت، هل تشترينها لي؟... أحبّها، يا أمي، أحبّها أكثر من كلّ شيء.

نينار تناولت الدُمية، دون استئذان. حمَلَتها، وراحَت تدور وترقص، وتغمرها، وتقبّلها، و... تُثير غيرتي.

لم يكن، أيّام طفولتنا، هذا التنوّع في الألعاب، ولا تلك البحبوحة... جلّ ما كنّا نحصله هو عودٌ يابس، وزرّ مرفوض من علبة الخياطة، وقطعة قماش وبعض القطن أو النخالة، والخيطان؛ وتبدأ عملية الخلق.

بضع ساعات، وتصبح هذه المتفرّقات مجموعةً في دمية محْمرّة الخدّين، والشفتين، مكحّلة العينين؛ ترتدي شعرًا معقوصًا على شكل «شينيون»، أو مُسترسَلًا على كتفيها بغنج... وبعدما تتمّ عمليّة الإبداع الأولى، نبلغ مرحلة التسمية.

وكنا نختار أسماء لا وجود لها في تقويم القرية: مرسبان. فرفر. شن شن. توتا، وسوى ذلك ممّا يجود به الخيال من كلمات لا تحمل معنى، لكنَّها، حين تلتصق بالمسمّى، يصبح لها أبلغ المعاني.

* * *

وجيل نينار محظوظ. تأتيه الدمى على أطباق من «دانتيل»، لا تعب ولا عناء. لا خياطة ولا قلق. ولا خوف من أن تكون المولودة الجديدة (الدمية) ناقصة الخلقة، أو مسخًا يثير السخرية...

في الواقع، إنّ لعبة الملفوفة التي تدهش ابنتي، وبنات جيلها، يمكن أن تُعتبر حلقة متوسّطة، بين الخلق الطبيعيّ والمسخ. وقد يكون تعلّق الأولاد، وحبّهم لها، نابعًا من هذه الحقيقة.

أم إنّها براعة الإعلانات الدعائية!...

* * *

ما لي ولهذا التحليل الخارج عن الموضوع... المهمّ الآن، هل أنا مستعدّة لأدفع هذا المبلغ الكبير من النقود، من أجل تلك الدمية الخرقاء؟...

طبعًا مثل هذا التساؤل يبقى طيّ جدران الصدر... فمَن يجرؤ على الانتقاد أو التهجّم والتقليل من شأن أميرة الدمى، الستّ ملفوفة؟... مَن يجرؤ على أن يهدم أحلام طفلة؟

* * *

لا أنكر أنّي حاولتُ أن أُثنِيَ نينار عن اختيارها؛ فرحتُ أعرض أمامها الدمى الجميلة، المستوحاة من العصور الذهبيّة ومن النجوم الساطعة في السينما العالميّة: آفا غاردنر، غريس كيلي، غريتا غاربو، مارلين مونرو.

لكنّها حوّلَت نظرها عنهنّ جميعًا، وهي تردّد:

– وجوه قديمة... ليسَت من جيلي وجيل أصدقائي.

أفهم نينار تمامًا؛ إنّها تعرف ماذا تختار، وهي صاحبة حسّ مرهف، ينطلق كالسهم، فيُصيب قلب الحقيقة. لكنّ تقديري لها لم يبلغ هذا الحدّ، ولم أتصوّر أنّه بوسعها التصنيف على تلك الصورة، ووضع الخطوط الفاصلة بين الأجيال؛ فالذي يُعجبني ويُرضيني ليس، من الضروريّ، أن يكون مثار إعجابها.

وهكذا وضَعتْ نقطة الختام لتدخّلي وجعَلَتني أمدّ يدي، بطاعة ورضًى، إلى حقيبتي، لأُحصيَ ما بقي فيها من نقود، وإذا كانَت تكفي لتسديد الثمن وإلّا...

* * *

لا، التأجيل ليس في الحساب. لا أستطيع أن أُعيدَ نينار خائبة؛ لقد ساعَدَتني، وكانَت مثال الطفلة الطيّبة، ونظراتها المبتهِلة، تخترق صدري وتُصيب منه أرقّ الحواشي؛ تقول لي، دون اللجوء إلى كلمات:

– والآن، جاء دورك، فهل تكونين وفيّة، وتبرّين بوعدك؟...

وأفتح فمي كي أطمئنها، ويدي تتجوّل داخل الحقيبة؛ وأقول لها إنّ المال المتبقّي لديّ لك...

* * *

ولا أُكمل.

أذكر أنّي فتحتُ فمي، ثمّ لم أَعُد أقوى على إطباقه. شعرتُ به يتشقّق، ثمّ يخرج من مكانه. مددتُ يدي أتحسّس الحقيبة، فإذا بها قد طارت؛ كذلك العربة المحمّلة بالأغراض، والبشر، والأمّهات اللواتي يُقِدن عربات، وكلّ واحدة محاطة بسربٍ من الملائكة الصغار... والباعة، وأكوام البضائع، والرفوف، وآلات المحاسبة، والمراقبة، وباب الدخول، وباب الخروج. لم يَعُد هناك شيء يقع عليه النظر. وكنت أحسّ أنّ ابنتي باقية بقربي. نينار... أين ذهبَت نينار؟ كانت تحمل الدمية الملفوفة تحضنها بين ذراعيها الصغيرتين، بكلّ الحنان الكامن في صدرها. كانت تريح خدّها، فوق وجه الملفوفة القماشيّة، وكانَت معي...

معي؟...

مَن أنا؟ مَن أكون؟ فأنا لم أَعُد هنا، ولستُ هناك. بأسرع من لمع البرق، تفكَّكَت أجزائي، وتبعثَرَت في المكان... ثمّ لم يَعُد هناك مكان... ولم يَعُد هناك زمان.

أعترف بأنّي لم أسمع دويّ الانفجار، ربما فقدتُ أذني قبل أن يبلغَني الصدى...

أقول ربّما. إذ لم يعد هناك شيء أكيد... فأنا مبعثرة، في كلّ الزوايا. وبقيَتِ الساقان واقفتين، كجذع سنديانة. ثم أخذَتا تركضان، وحدهما، دون هدف أو

غاية.

رفَّت أجنحة الذاكرة، وأبصرتُ وجه نينار... لا لم يكن وجهها. كان طيفًا عابرًا مسافات لا تُحدّ بالسنوات... وأبصرتُه متّجهًا إليّ. كدتُ أصرخ، من شدّة السعادة. ولكن من أين يأتي الصراخ؟... لم تعد هناك حنجرة، ولا قصبة هوائيّة، ولا...

* * *

تلك حقيبتي.

الذاكرة تسجّلها. وأُبصرها تنحشر في زحمة المكان، وكأنّها تبحث لها عن منفذ للخروج، ثمّ تتبعثر. راحَت محتويات: أوراقي وهويّتي ونقودي... هذه كلّها هربَت من الحقيبة كي تخرج من أحد الأبواب... لكنّ الأبواب أيضًا انهارت... ولم تعد أبوابًا... وانفتح السقف، على سماء تمطر النار والحديد.

* * *

بلى... أذكر أنّه كان في القاعة، دخان كثيف. والدخان يمحو المعالم إلى حين انقشاعه، ثمّ تعود الأشياء إلى تألّقها وصفائها.

لكنّي، أدركتُ بالحدس، أنّ دخان تلك اللحظات كان مختلفًا... فهو ينطلق من نقطة الانفجار، ثمّ يتمدّد، ويرتفع، ويتفشّى في الجوّ، يمينًا ويسارًا بالطول كما بالعرض والارتفاع. ويتغلغل في مسامّ الأشياء. ولم يكن دخانًا بريئًا، كالذي يتصاعد من مدخنة منزل ريفيّ، أو نار مخيّم كشفيّ. بل كان ذلك الدخان الحامل في ذرّاته تفجّر الحقد والغضب، وسائر النوايا العدائية.

* * *

بعد الذي سردتُه على مسامعكم، أرجو أن تعفوني من متابعة الكلام فالشفة انفصلت عن الشفة، والأوصال تقطَّعَت، وتطايَرَت، وبعضٌ منّي احترق، وتحوّل إلى فحمة سوداء.

وزنبقتي الحلوة، وردتي البهيّة ذات الطعم السكّريّ... نينار، كيف يُمكنها أن تغادر المخزن بدون الدمية؟ وأنا تذكَّرتُ... لم أدفع الثمن... مع العلم أنّه كان في الحقيبة بقيّة نقود.

بيروت 1985

خبزنا اليوميّ

كنّا نجلس معًا، ونتحدّث عن الحرب... وأحيانًا، يُخَيِّمُ علينا التشاؤمُ والعبوسُ فنحكي ونصمُتُ، ونتباعد؛ وكأنّما جدران الإسمنتِ، والمتاريس الترابيّةِ، ارتفعَتْ، معترضةً سبيلَ الكلمات؛ فتغرقُ، وتغورُ في أعماق الحَنْجَرة.

وفي أوقاتٍ أكثرَ صفاءً ورضًى، كنّا نحاولُ أن نُحلِّل ما يجري، بطريقتِنا الخاصّة، وأسلوبِنا الساذَج، والمتخلِّف عند حدود النظريّات. وفي نهاية كلّ جلسةٍ، كانت سناء تنهضُ، ترافقها ابتسامةٌ ساخرِة وآهةٌ صاعدة من أَعماق الكيان: – والآن، وبعدما توصَّلنا إلى حلّ كلِّ المشاكل العالقة، ووضَعنا نقطةَ الختامِ للحرب البشعة، عَليّ أن أعودَ إلى بيتي، وأدخلَ المطبخ، لأُعدَّ طَعامَ العشاء لزوجي وأولادي.

ثمّ تستطردُ بغمزةٍ زكيّة من طرفِ عينِها:

– كما تعرفين، وأعرف، دورُ المرأة لا يقتصرُ على «قدّ» النظريّاتِ السياسيّة، والفلسفيّة؛ فعليها أن تطبخ، وتنفخ، وتنظّف غبارَ الدار، لتستحقَّ لقبَ الأنوثة الكاملة.

كانت تسكبُ كلماتها بسخرية محبّبة، ثمّ تودّعُني بطريقتها الطيّبة، والتي لم تبدّلها ظروفُ الحرب، ولا غَرَست فيها بذورَ قسوتها.

كان لسناء أسلوبُها الخاصُّ في استقبال ووداع الصديقات والأصدقاء: فهي تغمرُ الآخرين بقوّةٍ وحرارة، وتسكبُ عاطفتَها النقيّةَ المخلصة، دونَ تحفُّظٍ، وكأنّها تُفرغُ في كيانهم شحناتٍ من الفرح السماويّ، تتسلّلُ بين الضلوع، وتصبُّ مباشرةً بين تضاريس القلب، غارسةً فيه شعورَ الطمأنينة، ووعدًا بأنّ

الدنيا، برغم ظلام الحَرب، و«ظلامةِ ذوي القربى»، وجدرانِ الحِقد المرتفعةِ بينَ الإنسان وأخيه الإنسان... برغم ذلك كلّه، الدنيا التي تعيشُ فيها سناء وأقرانُها، سوف تبقى بألفِ خيرٍ.

* * *

وقبل أيّامٍ، قدِمَتْ لزيارتي بعد انقطاعٍ قسريّ دامَ أشهرًا. فغمَرتُها وأنا أكادُ أطيرُ فرحًا بعودتِها سالمة، وخروجها وخروجِنا جميعًا، من سجونِ الأقبيةِ، والملاجىء العَفِنة.

قُلتُ، وأنا أتأملُ التحوّلَ الظاهرَ في وجهها، والتُحوّلَ الباديَ في قامتها: – كُنتُ أخشى ألّا نلتقيَ... كنتُ...

وغَصصتُ بدموعي.

ففطنَت هي إلى دراميّة الموقف، ولاحظَت بأنّ الكلمات، إذ تتابعتْ، سوف تجرّنا إلى جوِّ المأساة من جديد، فقفزَت من مقعدِها، وراحَت تدورُ على نفسِها، وكأنَّها تؤدّي وَصلةً راقصة، ثمّ عادتْ إلى مكانها، وهي تضحك... وظلَّت تضحكُ حتّى دمعَت عيناها (وهذه صفة تميّزُها. فهي تستخدمُ الضحك في المواقف الحرجة، وترفعُ البسمةَ درعًا في وجه المأساة وتبكي من الضحك ولا تبكي في أوقات الحزن والألم).

تلك هي سناء، ذاتُ الأسلوب المميَّزِ والطريفِ معًا.

ثمّ عُدنا: هي وأنا. جلَسنا، مثلما كنّا نفعل أيّام السلامِ والصفاء، ورغدِ العيش.

كانت تلكَ أوّلَ مرّةٍ نلتقي فيها، بعد اجتياح بيروت. لم نتكلّم كثيرًا. كانت أصداءُ المدافعِ والصواريخِ، لا تزال تصمّخُ سمَعنا. ورائحةُ الحرائقِ تزكّمُ أنوفَنا. وأسماءُ الضحايا تتراقصُ في الذاكرة، وتعبرُ بيننا، المسافاتِ القريبَةَ والبعيدة.

جلَسنا وبيننا الصمت.

كانت هي تُدخِّن، وتَرْشِفُ بهدوءٍ قهوتَها المُرّة، وأنا أتأمّل بقايا المنازل المنهارةِ حولنا؛ ثمّ حاولتُ أن أَقطعَ الصمتَ، وأُعيدَها من شرودِها فطرَحتُ سؤالي: – والآن، إلى أين؟...

تأمّلَتني مليًّا، لم تَرُدّ فأعَدتُ السؤال:

– متى الخلاص، يا سناء؟... أَوَ تظُنّين أنّنا بلغْنا الحدَّ الفاصل بين بدايةِ الحرب ونهايتها؟...

ومن جديد، رفعَت نظرها تتأمّلني بهدوء، وظلّ الصمت يملأ فراغ اللحظات.

احترمتُ شعورَها، ولجأتُ إلى خبايا الذات؛ ثمّ أبصرتُ قلمًا خفيًّا، يتحرّكُ في المسافة، بيننا، ويرسُمُ صورةً «كاريكاتوريّة» لجلستنا تلك.

انتفضتُ، ورحتُ أضحكُ بصوت عالٍ، أخرجها عن صمتها. فالتفتَت تسألُني:

– خير، إن شاء الله!... ما الذي يُضحكك؟...

في الواقع، لم أكن أدري لماذا أضحك؛ فالمناسبة تستدعي البكاء، لا الضحك، خصوصًا على تلك الصورةِ الغريبة على طبعي... أو إنّي كنتُ أبكي، وستَرتُ دموعي بتلك الضحكات؟...

حتّى الآن، لا أدري. ولا أودّ التوقّفَ عند تلك اللحظاتِ المرتبكة، حين كان كلُّ ما يُحيط بنا، منهارًا، ونحنُ نحاولُ وَصْلَ الخيوطِ المقطوعة، لا في مجالِ الصداقة، والروابطِ الإنسانيّةِ وحسب، بل وفي كلّ وجهٍ وصوب.

* * *

وبالأمس، كانتْ لها إطلالةٌ جديدة، بعد غيابٍ طويل، اضطرّها إليه سفرٌ خارجَ البلاد. ذكّرَتني إطلالتُها بقولٍ لفيلسوفٍ من الهند «إنّ الله يُطِلّ علينا، أحيانًا، في وجوه الأصدقاء...».

كنتُ محجوزةً داخلَ المنزل، أتجوّل بين الغرفِ الفارغة، إلّا من ثقوبٍ زَخْرَفَتْ بها الجدرانَ والسقوف، شظايا الحروبِ المتواصلة، وأبقتْها، صفاتٍ للعينِ والذاكرةِ معًا...

ولم أعدْ أدري أيَّ الزوايا أختار، لاستعادةِ بعضِ الطمأنينة الداخليّة، ومناجاةِ الأحبّاء، الذين توزّعوا على مَساحَةِ الكُرة الأرضيّة، وباتوا ينتشرونَ فوقَ وجوهِ القارّات الخمس؛ وكانوا، حتّى الأمس القريب، يتفيّأون جدرانَ القلبِ والرّحِمَ...

كُنتُ، في تلك الدَّوامةِ مَن قلقِ الروح: الانفجاراتُ تُدوّي في كلّ الجهات. وتتواصل أصداؤها، وتتلاحم، ثمّ تلتقي مع صفّارات الإنذار، تُعلمُنا بأنّ مزيدًا من الضحايا يسقطُ على كلِّ الجبهات، فيئنُّ التراب. وتتفتّت الصخورُ من أسًى، وتتسابقُ الإذاعاتُ لإعلانِ أنباء السوء...

وفجأةً أطلّتْ سناء، وقد استعادَت نضارة الوجْهِ، وعافيةَ الجسد. ولمّا غَمَرَتْني مسلّمة، شَعَرْتُ بأنّ يديْها ترتعشان، ولم تترك لي فرصة الاستفهام.

بادرتْني هي بالقول: – هنّئيني بالسلامة...
فتَحتُ فمي لأسأل ما الحكاية، فتابَعتْ:
– كان يمكن أن تمشي في جنازة صديقتِك... هذا الصباح!
تراجَعتُ قليلاً وأنا أتمتم:
– خير... خير إن شاء الله!
فعادتْ إلى سُخريّتِها المألوفة:
– لا، ما في إلّا كلّ خير... انفجار بسيط. سيّارة مفخّخة، كادتْ تودي بحياتي.
– أنتِ؟...
– أجل... أنا. وما الغرابة؟ ومَنْ أكون أنا؟... ولماذا لا... و...
قاطَعتُها:
– أخبريني بهدوء... ما الذي جرى؟
فقالَت:
– انفجار المصرف... أولم تسمعي به؟
ردَدتُ بنبرة احتجاج:
– طبعًا سمعتُ به... أوّلًا، وثانيًا، و... عاشرًا.
قالَت بهدوء:
– كُنتُ هناك.
وصرَختُ غير مصدّقة:
– في المصرف، أم في الطريق؟
أجابَت:
– كُنتُ في الطريق، ودخَلتُ البناء المجاورَ لبناء المصرف، قبل لحظات. سمِعتُ دويّ الانفجار وأنا أخرج من المِصْعَد... حتّى الآن، أذناي مصابتان بالصمم.
لم يكن لديّ ما أُضيفهُ، سوى تمتماتٍ، وأدْعِية، تَخرج، دون وعي أو إرادة، وكأنّها المرجعُ الأخير والملاذُ النهائيّ للخلاص: – الحمد لله على سلامتك...
فقاطَعَتني:
– إنّها المصادفة. أنا سَلِمتُ، لكنَّ سواي رحل. اليومَ كان دورُهم، ومَن يدري متى يجيء دوري. لا يمكننا أن ننسى هذا لحظةً واحدة.

حاولتُ أن أخرجَها من الغرق في التشاؤم واليأس، مستعيرةً شيئًا من أسلوبها: – كلّ يوم يُطلُّ وزادُه معه. يكفي اليوم شرّه.

تأمَّلَتني دون أن تعلّق بكلمة. ثمّ توجَّهَتْ إلى الباب بهدوء، فتَحَته، ووقَفَت عند العبتةِ لحظات، قبل أن تخرجَ وتتوارى، مخلِّفةً في نفسي حَيْرَة السؤال، وذلك الطعمَ الغامضَ، الذي يَغْرِسُهُ في وجودِنا، حضورُ إنسان، خرج للتوّ من «كادَ يموت» حتّى إذا حاول الرجوعَ، إلى عالمِهِ الطبيعيّ، يتحوّل الحدَثُ إلى هاجِسٍ، يرعى في عينيهِ ويتغذّى من حبّاتِ قلبه... وكأنّما الشخصُ الآخر، تسلّمَ إشارةً خاصّةً رسَمَتْ فوق جبينهِ تلك العلامةَ الغامضة.

لم أنتبه أيّة عَلامة استخدمْتُ في وداعها. فقد توارتْ عن نظري بسرعة، وهي تردّد: – اليوم، لديّ عمل فوق العادة... هناك موعدٌ هامّ ينتظرُني.

زوَّدتُها بالدعاء، وبألفِ «رافقتك السلامة»، ثمّ عُدتُ إلى نقطةِ الجاذبِ في داري: مكتبي الصغير. وقبل أن أفتحَ كتابًا، أو أُمسكَ بالقلم، أدَرتُ الراديو «الترانزيستور» لألتقطَ آخر الأنباء. وصدمني «الفلاش» الذي ترتعشُ لدى سَماعه القلوبُ من هَلَع: – إليكم آخرَ الأخبارِ الأمنيّة!...

جمَدَ الدمُ في عروقي وأنا أسمعُ الصوتَ يَلهثُ الخبرَ بالتفصيل: – وقع انفجارٌ عنيف في مَحَلَّة (الكولا) قبل أربعِ دقائقَ أدّى إلى سقوطِ عددٍ من القتلى والجرحى... نوافِيكُم بما يَردُنا من تفاصيل.

قبل أربعِ دقائق! وفي محلَّة «الكولا» أيّ في الحيّ الذي تسكنُه سناء... تُراها تَوَجَّهَتْ إلى البيت؟

... لا... هي قالَت إنّها ذَاهبة إلى موعدٍ هامّ... إنّها مشغولة... إنّها...

امتدَّت يدي إلى سمّاعة التلفون، ورُحتُ أطلب رقم بيتها... كان ذلك مستحيلًا... الخطوطُ فقَدَت حرارتها، وهذا ما يحدُثُ دائمًا: ترتفِعُ حرارةُ القصفِ والتفجير، فتنخفضُ حرارةُ المواصلاتِ إلى ما دونِ الصفر.

ولكن سناء!... كيف الوصول إليها؟ إلى سناء؟

أوتكونُ بين الجرحى؟ القتـ... لا... لا...

صوتُ المذيع من جديد، يُعطي الأرقام وأسماءَ الضحايا...

عددُ القتلى تجاوزَ العشرين، وهناكَ عَشَراتُ الجرحى.

أصغيتُ جيدًا إلى جدولِ الأسماء التي لا تنتهي. لم يَرِدِ اسمُ سناء. ربما تجاوَزَت تلك النقطة قبلَ حصولِ الانفجار... أو إنّها سلكَت سبيلًا آخر!...

لا بدّ أنّها اختارَت طريقًا آخر إلى مقرّ الاجتماع... ولكن... أين يكونُ ذلك المقرّ؟ لماذا لم أسألْها؟... أو ربّما توجَّهَت إلى المنزل، قبل الاجتماع، لتبدّلَ ملابسهَا... ربّما...

قاتلَ اللهُ الشكّ، كيف يهجُمُ في لحظاتِ الانهيار، وحين تُرْفَعُ عن المرءِ سقوفُ الحماية، ويَغْرَقُ في وحولِ الضَّعْفِ البشريّ، حتّى القاع.

* * *

في ظلالِ الشكّ، والتخمين، أمضيتُ الساعاتِ التالية، ولا واسطة تَصِلُني بالحادث، سوى تلك الإبرةِ الدقيقة، المتنقّلة بين كلّ المحطّاتِ الإذاعيّة، لتقدّم إلى المستمعين آخر الأخبار.

كنتُ لا أزالُ على تلك الحالة، حين انطلق التلفون في رنين مخنوق. قفَزتُ إليه، وتناوَلتُ السمّاعة بيدٍ ترتعش. وجاءني الصوت الغريب من الطرفِ الآخر:

– السيّدة منى الغزال؟... هل أنتِ السيّدة منى؟... يسألُني الصوت، وتردُّ عليه الشفتان للتأكيد بأنّه لم يُخطئ... ويتجوّلُ في البال شيطانُ القلق...

– نعم... أنا هي... وأنت؟؟

لم يَدَعني أنتظر طويلًا، بل ردّ فورًا:

– الدكتور نعمان. أُكلّمكِ من مستشفى الجامعة...

– دكتور نعمان؟ نعم، ما الخبر؟ ماذا تريد أن تخبرَني يا...

– ما تبلّغتُه منها حرفيًّا... أرجو حضورك. قالَت إنّ عائلتها خارجَ البلاد... وأنتِ أقربُ الصديقات، قالت ذلك قبل أن...

– لا... أنا لا أعرفكَ، يا دكتور نعمان. ربّما أخطأتَ الرقم... تعرف، هذه الأيّام، الحرارة مفقودة. الخطوط مقطوعة. الأرقام متشابكة، كذلك الوجوه، والأسماء... أنتَ لا تعرفني. فكيف أمكنَك أن تتّصل بي؟... ربّما طلَبتَ الرقم خطأ. يا دكتور!...

* * *

لا... لا أصدّق. قبل قليل، غادرتْ منزلي، بملء العافية والمرح. طمأَنَتني بأنّها نجَت من الانفجارِ بأعجوبة. قَدِمتْ خصوصًا، لتخبرَني وتطَمئِنَني.

وغادرَتني، لأنّها على موعد. أكّدت أنّه موعدٌ مهمّ جدًّا... وهي، كما عرفتُها، لا تَنْكُثُ بوعدٍ، ولا تتخلَّفُ عن موعد.

بيروت 1986

المعابر

غادرتُ منزلي مع تلويح الشعاع الأوّل من الفجر.

كان موعدُنا في تلك الساعة المبكرة من الصباح، قبل أن تزدحمَ الطرق بالسيّارات والمشاة. وقبل أن يختنقَ «عنق الزجاجة» – خطّ الوصل الوحيد بين شطْرَي بيروت.

قالَت: إنّها ستجتاز هذا المعبر الوحيد الباقي.

وكانت قادمةً من جهة الشرق... وعدتُها بأن أوافِيَها إلى نقطةٍ وسطٍ، كي نتقابل، وتخبرني ما الذي دفعَها إلى القيام بتلك المغامرة الخطرة، خصوصًا أنّها أفهَمَتني بصراحة بأنّها غريبة عن العاصمة، وأصلها من قرية في الجبل، لكنّ حكمَ آخر زمان شدّها من أنفها، وأسقطَها في غربة المكان والزمان.

فهي مهجّرة، وتعيش في مصنع مهجور مع بعض أبناء قريتها.

* * *

هذا كلّ ما فهمتُه منها، وعرفتُه عنها. وها إنّي قاصدة تلك النقطة، التي يلتقي عندها سكان الشطرَينِ، الشرقيّ والغربيّ، حين يستحيل العبور.

قال صوتها المرتعش:

– أودّ مقابلتك، وبسرعة. هناك أمر هامّ، يجب أن أُطلعَكِ عليه.

وحاولتُ أن أستفهم ما هو الأمر الملحّ إلى تلك الدرجة التي تدفعها إلى ركوب متن المغامرة الخطرة، فلزمَتِ الصمت، مكتفيةً بالكشف الجزئيّ عن الموضوع:

– أمر مهمّ.

وحين زدتُ الضغط والإلحاح، لتبوح ولو بكلمة، ردّت باختصار:

– إنّها قضيّة حياة أو موت.

* * *

كان يكفيها أن تقول ذلك، لتُخرسَني، وتُقنعَني، وتُجرّدَني من أيّ اعتراض؛ ثمّ تدفعني إلى الخروج في الشوارع الخطرة، وقد سلبَت مني الإرادة، والقدرة على الرفض، وانقَدتُ لذلك الولع العتيق بالبحث عن قصّة.

أعدتُ سمّاعة التلفون إلى قاعدتها، ووقَفتُ لحظات أفكّر:

– وماذا لو كانت امرأة مهووسة؟... ماذا تفعلين، حين تكتشفين أنّك وقعتِ ضحيّة سذاجتك، وبساطة قلبك، وشعورك بالرحمة وهو الغالب والمسيطر على كلّ تحرّكاتك؟

«قضيّة حياة أو موت»، هذا ما قالتهُ المرأة... ومَن تظنّني المسكينة، لتطرحَ هذا الثقل على منكبيّ؟...

وكيف، كيف وافقتُها؟... بل خضَعتُ لأمرها، وها إنّي أقوم بتنفيذ بقيّة الأمر. ولماذا لم أرفض؟...

بحزم وإصرار، كان عليّ أن أرفض. أختلق لها أعذارًا شتّى. نعم، أقول لها:

– إنّي مريضة، سيّدتي. آسفة، الطبيب فرض عليّ البقاء في السرير مدّة أسبوعين... نعم، تعب في القلب. لا... أقول لها: إنّي جبانة. أخشى رصاص القنص. أَوَلَم تسمعي بالقنص، سيّدتي؟ وعلى ذلك المعبر بالذات؟ والقنّاص، كما أقرأ وأسمع، يفضّل جنسَنا؟... مسألة انجذاب طبيعيّ.

هل عندكِ فكرة كم امرأة، وكم رجلًا، وكم طفلًا خرّ على ذلك المعبر الذي اختَرتِه للعبور؟...

أَوَلَم تسمعي، بذلك كلّه، سيّدتي؟... لماذا لم تسمعي؟... أَوَلَيس عندكِ راديو «ترانزستور». نعم، هذا الابتكار العظيم الذي كان من جملة الأبطال في حربنا الطويلة؟

أَوَلَم تشاهدي صور الضحايا من المدنيّين المسالِمين، الراكضين يلهثون خلف لقمة العيش... واللقمة باتَت مغمّسةً بالدم؟...

لماذا تأتين، سيّدتي؟ أَوَلَم يكن من الأفضل لو سردتِ لي الموضوع على التلفون، وتبادَلنا فيه الآراء، ووفَّرنا عناء هذا الانتقال، ومشقّة الوقوف في

صفوف الذلّ؟...

أَوَلَم؟...

وأخرستُ النفير الداخليّ؛ فماذا يفيد التساؤل؟

وها إنّي أسعى لبلوغ المكان، وتجرّني قدماي إلى الهدف... بل إنّ كلّ الشكوك والتساؤلات كانت ساقطة منذ قالَت لي: إنّها قضيّة حياة أو موت؛ وكأنّما كلماتها رؤوس مغناطيسيّة، التفتُّ حولي، وأخذَت تتحكَّم بتحرّكي. وحين استلمتُ الطريق، كنتُ قد قطعتُ شوطًا بعيدًا في إقناع نفسي، بأنّ هناك مفاجأة تنتظرني... وربّما كان الموضوع مثيرًا إلى درجة يوحي إليّ بقصة!...

واستسلمتُ بهدوء، إلى أحلام اليقظة، ورحتُ أفصّل الثوب من جديد، والسيّارة تقترب ببطء، من نقطة العبور.

لم يكن المعبر مزدحمًا بالناس والسيّارات، كما يحدث في الصباح. أبصرتُ بعض الشاحنات، وسيّارات الأجرة، والقليل القليل من السيّارات الخصوصيّة... وبالطبع، أبصرتُ المشاة؛ قوافل المواطنين تزحف في الاتّجاهين. ومعهم زحفتُ. ومثلهم فعلتُ: أسير خطوتين، ثمّ أصغي. وأجري بسرعة، وهدفي نقطة بالذات، اتّفَقنا أن نلتقِيَ عندها. وتذكّرتُ أنّي لم أسأَلها عن اسمها، والعلامة الفارقة التي تميّزها عن الآخرين، إذ لم أكن أعرفها. وقد فاتها أن تحدّد لي العلامة، ونسيتُ أن أسألها.

وقفتُ في تلك الغابة من التيه والضياع والشكّ، أسائل نفسي:

– تُراها عابثة؟ وقد جرَّتني إلى هذا المكان، وتوارَت عن الأنظار؟... هل شاءَت أن تتسلّى بعذابي؟ أو إنّها مختلّة العقل؟...

* * *

وقفزَت بِيَ الذاكرة سنوات إلى الوراء، حين اكتشفَت سيّدة رقم تلفوني، فاتصلَت بي، وراحَت تحدّثني في الأدب. وقالَت: إنّها تكتب كثيرًا، لكنّها تخاف النشر. وكأنّما راقها إصغائي، فراحَت تعيد الكرّة كلّ مساء، غير حافلة بالوقت. أحيانًا، يخطر لها أن تكالمني في الليل، لتجد مَن يستمع إليها.

وفي إحدى الليالي، نهضتُ عند منتصف الليل، على رنين التلفون. وعرفتُ صوتها، وسمعتُها تلهث عند الطرف الآخر، من الخطّ:

– تنامين؟...

ولم تترك لي فرصة الإجابة لأسألها بدوري:

– وماذا تتوقّعين، سيّدتي؟...

ماذا يمكن الإنسان أن يفعل، وتلك اليد الخفيّة تشطر الكرة الأرضيّة إلى شطرين: واحد يقيم في الظلام والثاني ينعم بنور الشمس؟

ماذا تتوقّعين من امرأة تعمل طوال النهار، وعلى عدّة جبهات؟... أَوَلا يجوز لها أن تستريح؟

لم تدَعني أفتح فمي وأقول كلمة ممّا كان يجول في خاطري. راحَت هي تصبّ الكلام حارقًا كألسنة نار شرسة:

– طبعًا، أنت مرتاحة؟... ولماذا لا ترتاحين، وعندك سرير ناعم، وزوج محبّ، وأولاد سعداء؛ بينما هناك أناس يموتون جوعًا. يُقتلون. تدوسهم عجلات الحروب. يعذَّبون في أقبية من صنع إخوانهم بالإنسانية!؟... إنّهم يستغيثون... أَوَلا تبلغك صرخاتُهم؟ إنهضي، واسهري، وشاطريهم آلامهم...

وقاطعتُها، قبل أن أسحب الخطّ نهائيًّا:

– وأنتِ، الساهرة، اليقظة، حتّى هذه الساعة المتأخّرة من الليل، أخبريني، ماذا فعلتِ لهم؟...

حاولَت أن تردّ فلم أُعطِها الفرصة... أقفلتُ الخطّ وعدتُ إلى النوم، وشعرتُ بأنَّ الفراش تحوّل لوحَ جليد. والغطاء مصنوع من رؤوس الإبر.

اللئيمة!...

قُلتُها وأنا أكاد أنفجر غيظًا:

– لقد نجحَت في تعطيل نومي، وإفساد ليلتي.

وبقيتُ أتقلّبُ على أشواك القلق حتّى صباح اليوم التالي.

والآن، ذكراها تعود، مع نداء المرأة الغامضة... تُراها عادت إليّ، وبصورة أخرى؟... وتحت قناع أشدّ دهاء؟...

* * *

لم أستمرَّ طويلًا في التخمين؛ فالمسافة التي تفصلني عنها، قصيرة. وفي اللقاء سوف أكتشف حقيقة المرأة، وجوهر رسالتها. وما عليّ سوى التقدّم خطوات، إلى الأمام... أجل، إلى الأمام...

المرأة جبليّة. وليست خبيرة في معابر المدينة... وقد يمنعها خوفها من اقتحام المعبر، ربّما وقفَت تنتظرني على الطرف الآخر. إلى الأمام!...

تابعتُ تقدّمي، وظلَلتُ أمشي حتّى تجاوزتُ نقاط التقاطع، والجسور الوهميّة، ولم ألمح امرأة واقفة تنتظر. عندها، بدأ الشك يتحوّل يقينًا؛ لقد وقعتُ من جديد. أنا الغبيّة الساذجة، وقعتُ ضحيّة امرأة مهووسة.

واستدرتُ لأعود من حيث أتيتُ، وقد امتلأَت نفسي بالخيبة، إلى جانب شعور بالسخط والغضب على المرأة وعلى نفسي في آن معًا. وما كدتُ أسير بضع خطوات، حتّى سمعتُ صرخة، سمّرَتني مكاني:

– سيّدة منى!... انتظريني!

هذا صوتها.

الصوت الذي سمعتُه أمس على التلفون، لكنّه الآن، يحمل بعض ملامح من ذلك الصوت البعيد، والذي فتح معي حوارًا قبل سنوات.

استدرتُ في اتجاه النداء، فأبصرتُ، على بعد أمتار، امرأة تجاور العقد الخامس من عمرها؛ ربعة القامة، رصينة المظهر، وقد غزا الشيب لمّتها، فتحوّل لون شعرها إلى لون الملح والبهار.

لوّحتُ لها بيدي، إشارة فهم وتطمين، ولبثتُ أنتظرها، وهي تسعى جريًا إليّ، وأحيانًا، خُيِّل إليّ بأنّها تقفز قفزًا كالأرنب، وقد ارتسمَت فوق وجهها بشائر الفرح والانتصار. وبدأَتِ الشكوك تفرّ مني، وتغور في دهاليز النسيان، مخلّفة الساحة إلى ذلك الشعور الحامل مطرقة التأنيب يقرع بها باب الضمير:

– ظلَمتِها. تسرّعتِ في ظنونكِ، وأنتِ تعرفين أنّ «بعض الظنّ إثم». وها هي مُقبلة صوبك، تسبقها لهفتها، وماذا بوسعك أن تفعلي لتعوّضي، لتكفّري عن آثام ظنونك؟...

* * *

هذا التداعي الفكريّ لم يستغرق سوى ثوانٍ ثمّ انقلب كلّ شيء، وتراكمَتِ الأحداث بشكل مفاجىء.

سمعتُ طلقات رصاص. وبدافع الغريزة، رحتُ أتلفّت حولي، باحثة عن سقف أو جدار، أحتمي به، وربّما أحمي المرأة القادمة فوق صهوة المغامرة، وقد باتَت على مسافة أمتار منّي.

وقبل أن أفتح فمي، وأدعوها كي تحثّ الخطى، إلى أقرب جدار، أبصرتُها تتعثّر ثمّ تقع.

فكّرتُ:

المسكينة، وقعَت من شدّة حماستها أو... خوفها...

ربّما تعثَّرَت بحجر ناتىء في طرف الرصيف.

كانت نظراتها مشدودة إلى نقطة واحدة، حيث وقفتُ أنا بانتظارها، وإذن، لم تبصر سبب تعثّرها، لتحيد عنه، أو تقفز من فوقه. فوقَعَت، ولن تلبث أن تنهض. وتتابع الرحلة باتجاهي.

هذا ما عبر في بالي، في أقلّ من رفّة الجفن.

لكنّ المشهد الجديد مسح هذه النظرية من جذورها:

المرأة بقيَت في مكانها. وراح جسدها يتمدّد، بعدما تكوّم على ذاته إثر الصدمة الأولى. ثمّ أبصرتُ بقعة من الدم تتّسع تدريجيًّا، ثمّ تصبح هالة حمراء حول وجهها في وضعه الجديد، المغروس في التراب، وقد تحوّل قمرًا، سقط من كوكب مجهول، لينغرس على مفارق الطرق.

* * *

لم تكن الدقائق التالية هادئة، لذا لا أستطيع أن أسجّل المشاهد مسلسلة، بل أذكرها متقطّعة، مشرذمة مهشّمة الجوانب...

كانت الرصاصات الأولى النذيرَ، أو الإعلامَ عن الآتي الأعظم... وتلَتها طلقات، راحَت تتضاعف، ثمّ تتصاعد، وتقوى، وتقترب، وتتنوّع. واختلط الرصاص بالقنابل، وراحَتِ الأصوات تهدر في الفضاء، وفي تلك المساحة المكشوفة من كلّ صوب.

وهذا ليس بشيء إذا ما قيسَ بمنظر الناس، وهم يركضون، أو يزحفون على البطون، ينشدون أية ذروة من حجر أو تراب، ترتفع، لتحمِيَهم.

لم تكد لحظات تمرّ، حتّى فرغ المكان، ولم يَعُد هناك غصن يتحرّك، عدا ذاك الذي يهزّه انفجار، أو تقصفه رصاصة أو قنبلة.

نعم، بقيَت في المكان، تلك المرأة الغامضة، التي حاولَت العبور بين شطرَيِ العاصمة حاملة قضيّة، قالَت: إنّها مسألة حياة أو موت.

فهل كان الحدث بعينه هو الرسالة التي شاءَت تبليغها؟...

واختارَتني شاهدًا على صدقها؟...

هل كانَتِ الضحية المرأة الأولى، التي أقفلتُ الحوار معها، منذ سنوات، أو تلك التي اتصلَت بي في إحدى الليالي، ولم تُفصح عن اسمها؟...

أو إنّ المرأتين شخصيّة واحدة؟...

مَن يدري؟...

مَن يمكنه أن يردّ على سؤال، أغرقَته دماء الضحيّة حتّى أعماق الجهل.

بيروت 1987

مجهولة الهويّة

الخبر عاديّ، لا يتوقّف عنده القارىء، خصوصًا إذا كان يقرأ صحيفة بيروتيّة. فجثّة «مجهولة الهويّة»، والمعلومة الهويّة، والمشهورة، والمتميّزة... الكلّ واحد، والمِقصلة تساوي بين الجميع.

* * *

انتقلتُ من زاوية الأخبار المحلّيّة، لأتابعَ بقيّة الأخبار التي تبلغنا عبر شبكة التواصل العصريّ السريع. لكنّ ذلك الخبر بقي عالقًا في اللاوعي، وظلّت العبارة ترفّ كفراشة تحتضر: «مجهولة الهويّة، مجهولة الهويّة...».

ومَن تكون تلك المرأة؟

وهل الهويّة هي التي تعطي صاحبها كيانه؟...

ثمّ أقفلتُ الباب على عشّ «الزنابير» الذي استفاق، وراح يطنّ بألوف الأصوات: «مَن تكون؟ مَن تكون؟...».

وانبرى له ضمير الدفاع عن النفس:

– وماذا يهمّك أنت؟... وهل بوسعك ملاحقة كلّ الأحداث المأسوية بين أرجاء هذه المدينة البائسة؟...

* * *

ثمّ عدتُ أقلب الصفحة. وهذه المرّة، طلع وجهها من بين الكلمات مثل كرّات الموج عند أطراف الشاطىء. كان يُطلّ، ويغيب وبين إطلالته وغيابه، تنبري الكلمات:

هناك محاولة لقتلي... أمس هاجموني. المرأة كانَتِ الأشرس بين المهاجمين؛ ثمّ تبعها رجلان. هي ضربَتني، شتمَتني، وهدّدَت بأنّها سوف تعود لتقضِيَ عليّ، إذا بقيتُ في هذه الشقة.

يختفي الوجه لحظات، ثمّ يعود:

– إنّي خائفة. أقول لك، في عمري كلّه (وأنت تعرفين أنّي لم أنقل خطواتي فوق بساط من ورق الورد) أقول لك، في عمري، لم يخترِقني الخوف، ولم يسرِقني الرعب من ذاتي، ومن إيماني. أنا تائهة. لا أنام. لا أستقرّ. أقضي ساعات النهار والليل في التنصّت والإصغاء، وصوت داخلي يؤكّد لي أنّهم عائدون، وبأسرع مما أظنّ. وكلّما توقّف المصعد على بابي، ترتعد عظامي فرقًا، وأنزوي في ركن خفيٍّ، وفي ترقّب أين منه رهبة الموت...

أروي لك ما جرى، حتّى إذا وقع ما هو في الحسبان، تكونين على بيّنة من الوضع. ليست لي عائلة ولا أهل. وحدي أعيش، مع كتبي، وهم يعلمون ذلك، ويعرفون أنّ مسألة قتلي لا تُثير الاهتمام ولا تدفع إنسانًا واحدًا ليحاسبهم. علاوة على ذلك، تكسبهم مسكنًا مجانيًّا.

* * *

هذا الحديث جرى قبل أسبوع على التلفون. قلتُ لنفسي على أثره:

– بلغَت ميرا حدًّا من الضياع والقلق، يتجاوز الخط الطبيعيّ. حقًّا إنّ الوحدة لا تطاق، خصوصًا إذا كان الإنسان يتمتّع بخصوبة خيال ميرا.

وبعد لحظات، كانَت مشاغل بيتيّة ملحّة تتلقّفني، وتغلّف قلقي.

* * *

وصحف هذا الصباح، تنقل الخبر عن المرأة المجهولة الهويّة. ومن عادتي أن أقرأ زاوية المحليّات كلّ يوم، وتطالعني عشرات الأخبار عن مفقودين، وضحايا معلومين ومجهولين... وأحسّ بالخبر يتحوّل مِدْيَةً تحزّ عنقي، وتدفعني إلى الانتفاض، ثمّ الهرب إلى أقرب ملجأ يحميني من طوفان الألم، ويُنسيني أو يكاد، كم يعاني الإنسان القريب منّي، قرب رموش عينيّ، ويذكّرني بعجزي عن مدّ يد الإنقاذ.

والآن، لماذا يكون الوضع مختلفًا؟ وما هي العلاقة التي تربط بين خبر عاديّ وحوار مع صديقتي ميرا، الكاتبة المشهورة، والتي اختارت وحدتها، نعمة أيّام

السلام؛ ولم تحسب أنّ هذا الامتياز قد يتحوّل نقمةً؛ خصوصًا أنّ الأسباب متوفّرة في كلّ لحظة: هذا التعدّي، السرقة، القصف، الخطف والتفجير، وكلّ ما يمكن أن تجود به عبقريّة الإجرام.

* * *

و«مجهولة الهويّة» لا تفارق ضميري.

غادرتُ الفراش، وبدأتُ أستعدّ ليوم جديد. وفكّرتُ بأن أتّصل أوّلًا، وقبل كلّ شيء، بميرا لأستطلع أحوالها، وأهدّىء غليان الضمير.

يتابع التلفون رنينه، ويرتدّ صداه إلى سمعي ويترجّع في فراغ الصمت.

كانت الساعة التاسعة صباحًا. ومن عادة صديقتي النهوض باكرًا... وهي تعمل في البيت، ولا تخرج إلّا في الحالات الضروريّة. وربّما كانت هناك واحدة من تلك الحالات: شراء طعام، أو حاجات هامّة، أو...

انتظرتُ ساعة، ثمّ رُحتُ أكرّر الاتصال؛ وعادَت إليّ أصداء الرنين كما في السابق.

تُراها لجأت إلى منزل الجيران؟... هل تكرّرَتِ الهجمات الشرسة ولم تتمكّن من إبلاغي خبرها؟... ولم...

ولكي أُخمد بركان التساؤلات قصدتُ دارها. واستقبلَني الباب الموصد بمثل الصمت والغموض اللذَين نقلهما الهاتف. طرقتُ باب الجيران، أسألهم أخبارها، فأبدوا تعجّبهم حيال قلقي:

– أَوَلا تعرفين ميرا؟ إنّها غريبة الأطوار. أحيانًا تقضي أيّامًا داخل الباب الموصد، بعدما تسحب الهاتف، وتقطع أيّ اتّصال بالعالم الخارجيّ، كي لا تشوّش فكرها بضجيجه، كما تقول:

– ولكنّها لا تردّ على جرس الباب؟... وهو ليس معطّلًا!

– نعم، وهذا ليس مستغربًا. فهي ترفض الاستقبال، إلّا بناء على موعد مسبق.

بدَأَت أنفاسي تضيق، خصوصًا حين شعرتُ بأنّ الأجوبة تحمل نَفَس النقد والتشفّي لا القلق. تلفَّتُ أبحث بين الوجوه المحيطة بي، عن وجه يبشّر ببارقة أمل... لكنّها ظلّت وجوهًا مغلقة، بينما غارت النظرات في فراغ اللحظات.

وبقِيَ عليّ وحدي أن أتابع البحث عن لغز ميرا.

* * *

حملتُ الصحيفة إلى دائرة الشرطة وعرضتُ قضيّتي على الرقيب المسؤول، آملة أن أحظى منه بالمساعدة.

– أيّة مساعدة، يا ستّ؟... يسألني من خلف مكتبه، ولا يرفّ له جفن رفّة اهتمام.

قلتُ متابعة بصبر وهدوء:

– المساعدة التي بوسعكم تقديمها. قد تكون صديقتي صاحبة الهويّة المجهولة الوارد ذكرها في تقريركم...

رفع نظره إليّ، ولمحتُ في طرف عينيه بريق اهتمام:

– لكنّهم عثروا عليها على رصيفٍ محاذٍ للشاطىء. ومنزل صديقتك في حيّ داخليّ، كما أخبرتِني...

ثمّ تابع الشرح: إنّنا نعثر يوميًّا على هذه الجثث... والأخيرة كانَت مصابة بطلقات في رأسها وصدرها؛ ولم يعثروا على حقيبتها، ولم تكن في جيوبها أوراق ثبوتيّة تشير إلى هويّتها. نرجو أن يفتقدها أهلها ويأتوا للتعرّف إليها.

قلت، محاولةً إدخاله في دائرة قلقي:

– صديقتي وحيدة في هذه المدينة، لا أهل لها. منذ مطلع الشباب، اختارَت عائلة القلم، ولم تعد تنفصل عنها. لذا، لا تتوقّع أن يطلبها منكم أحد.

تأمّلني الرجل، لحظة، قبل أن يزيد، بحياديّة وبرودة:

– وهذا من سوء حظّها.

عدتُ أسأله:

– هل بإمكاني الحلول مكان أهلها في متابعة البحث عنها؟...

لم يردّ فورًا على سؤالي. راح يتشاغل بأوراقٍ أمامه، قبل أن يرفع نظره إليّ من جديد:

– يمكن ذلك، إذا شئت وإذا كنت قادرة على مواجهة المشهد.

طمأنَتهُ بقولي: - لا تَخَف، أعصابي لا تزال متينة، والحمد لله. إنّ أحد عشر عامًا من الحرب لم تذهب سدًى، فقد كوّنَت لدينا مناعة ربّما انتقَلَت إلى عشرة أجيال مقبلة!...

* * *

اقترح أن نمضيَ معًا إلى البرّاد، في مستشفى الجامعة، كي نقوم بمهمة التعرّف عليها.

الباب ينفتح بثقل جفن متورّم، وتمتدّ أمامنا قاعة فسيحة، باردة، وقد امتلأَت بالجثث، ورائحة الموت.

وكانت جميعها جثثًا لضحايا خرّوا في الشوارع، أو تحت ردم المنازل... وتنتظر مَن يأتي، للتعرّف... وإرجاعها إلى الرحم الأوّل... حضن أرض.

قادني الرقيب من أقصر الطرق، حتّى بلغنا المكان الذي تتمدّد فيه الجثّة الجديدة: انتفاخ مستطيل، يختبىء تحت غطاء أبيض.

أهذا كلّ ما تبقّى من تلك الكتلة الحيويّة، الشاعرية، الرائعة الحُسن؟!...

رفع الرقيب طرفًا من الغطاء فوق الرأس، ودعاني كي أقترب، وأمعن النظر. وبصوت هامس سألني:

– هل هي صديقتك؟

لم أَدرِ بماذا أجيبه؛ فالوجه مشوّه إلى درجة مفزعة، كذلك الرأس الذي اخترقه الرصاص وتركه أشبه برمّانة مبعثرة، وكان مستحيلًا عليّ أن أقوم بعملية حسابيّة سريعة تجمع الفتات...

أزاح الغطاء عن الكتفين، والظهر، والبطن... وصرختُ:

– ... أرجوك. هذا يكفي.

كان ما أبصرتُهُ كتلة مشوّهة امتزجَت فيها الدماء بالعظم المفتّت، واللّحم الأسود المتناثر، وبقايا قماش فَقَدَ لونه.

انسحبتُ من المكان دون وعي واتّجهتُ نحو الباب، وقد أصابني ضيق الأنفاس، وكاد يُغمى عليّ لو لم يكُنِ الباب قريبًا. اندفعتُ منه إلى الخارج، أنشُدُ النور والهواء، وأجسّ نبض الوجود...

هل، حقًّا، هناك نبض حيّ خارج تلك القاعة؟...

* * *

تبعَني الرقيب وهو يردّد، وكأنّما ليعيدَني إلى حالتي الطبيعيّة:
– المؤسف أنّهم لم يعثروا معها على ورقة واحدة تشير إلى شخصها.
– والآن، ما العمل؟...
سمعتني أطرح السؤال، ولم أنتظر جوابًا. مَن يمكنه تقديم الجواب؟...

* * *

لم أَجِد أفضل من الرجوع إلى البيت، لأستعيدَ هدوئي، وألملمَ شتات أفكاري. لكنّي فشلت في كلا الحالين؛ إذ ما كدتُ أخطو داخل العتبة، حتّى هرعت إلى التلفون. وبحركة آليّة، راحَت أصابعي تُدير أرقامها؛ وسمعتُ الصدى يرتطم بجدران الصمت، ويترك ذلك الرنين القاتل... كرّرتُ المحاولة مرّتين، وفي المرّة الثالثة سمعتُ صوتًا خافتًا يردّ، وكأنّه آتٍ من خلف جدران الأبديّة:
– نـــ... نـــ... نعـ... م.
– ميرا!...
كان سؤالي صرخة انفعال:
– ميرا، أخبريني ما بكِ؟...
– نـ... نـــ... عم...
هذا كلّ ما استطعتُ سماعه... وران الصمت.

* * *

هرعتُ إلى السيّارة، وقُدتُها باتجاه المخفر، وسألتُ الرقيب ليرافقَني:
– صديقتي في خطر... سمعتُ صوتها منهكًا... نعم، ردّت على مخابرتي التلفونيّة... أرجوكَ، أسرِعْ لنتمكّن من إنقاذها.
تردّد لحظات قبل أن يسألَني:
– هل أنت أكيدة من كلامك؟...
– طبعًا...
قلتُها بقوة ثمّ أردفتُ:
– أرجوكَ، لا يجوز أن نضيّع الوقت بالأسئلة، أنا واثقة بأنّ صديقتي في خطر.
قلتُ ذلك، وسبقتُه إلى السيّارة، دون أن أترك له المجال للمزيد من التشكيك.

عند مدخل البناية، التَقينا بعض الجيران الذين رافقونا إلى شقّتها، وتعاونوا مع الرقيب على خلع الباب.

كنتُ أخشى أن ينخلع باب آخر في قفص صدري؛ ذلك أنّ ضربات قلبي راحت تتسارع، وجفّ الريق في حلقي، وشعرت بدبيبِ النمل يسري في أطرافي، والسؤال واقف في عيني:

– ماذا يخبّىء لنا الباب؟...

ولم أنتظر طويلًا لأتلقّى الجواب؛ فقد جاءني بسرعة، ومن كلّ زوايا البيت؛ وكأنّما عاصفة شرسة انقضّت على كلّ ما في داخله، وقلَبَته رأسًا على عقب، ثمّ راحَت تخلط الأثاث، وتبعثره وتعبث بالخزائن والأدراج، من غرفة الاستقبال، إلى غرف الطعام والمنامة والاستحمام. وبدَت لنا، صاحبة الدار، في زاوية مظلمة، قطعة أخرى من الفرش المحطّم. كانت مغلولة اليدين والساقين، معصوبة العينين، مكمومة الفم، مرضّضة الجسم، وفاقدة وعيها.

اقتربتُ أجسّ نبضها لأتأكّد بأنّ فيها رمقًا من حياة، بينما سارع الرقيب إلى قصّ الحبال التي كبّلَتها. وأحضرَت إحدى الجارات كوب ماء، راحت ترشّ منه على وجهها وتقطر بعض قطرات في فمها. وفتحت ميرا عينيها، ولم نصدّق.

حاولَت أن تحرّك شفتيها، لكنّ الوهن غلَبَها، وأعادَها إلى الغيبوبة من جديد.

* * *

تعاون الجيران على حملها إلى السيّارة، وتولّيتُ مع الرقيب، نقلَها إلى غرفة الطوارىء، حيث أُجريَت لها إسعافات مكثّفة أعادَتها إلى دنيا الأحياء. لكنّها لم تغادر المستشفى إلّا بعدما تعافَت، واستردَّت نشاطها الجسديّ والروحيّ.

ولم يُلهِني اهتمامي بها عن التفكير بتلك المسألة الغامضة، بل اللغز الذي يستحيل حلّه: كيف استطاعَت ميرا أن تبلغ التلفون، وهي مقيّدة على تلك الصورة؟...

وهل كان، ما سمعتُه، صوتها الحقيقيّ، أو صدى التخاطر، والذي يستفيق في الحالات الخارقة للطبيعة؟

بيروت 1986

أتظاهرُ

أتظاهرُ بأنّي أمشي،
وأمشي.
وبأنّ الشمس تُشرق على داري، ويملأ الربيع حديقتي بالزهر والنور. أشرع الأبواب والنوافذ وأخرج لأستقبلَ الصباح الجديد.
أبحثُ عن العصافير، وأتظاهرُ بأنّي سمعتُ زقزقتها مع شقّ الفجر، حين غطَّت على «أسكف» النافذة، تنقر فُتاتَ الخبز، مثلما اعتادَت أن تفعل في زمان مضى، وحين كانَتِ الحديقة مسوّرةً بأشجار الزنزلخت والكينا... وفيما هي منهمكة بالطعام، تتحاور... أحيانًا تتعارك، وتوقظ الفرح في أعماقي... توقظني من النوم.
أتظاهرُ بأنّ الذي خَبَطَ الجدار هو ارتطام أجنحتها، لا تفجّر الرصاص القانص.
وأتظاهرُ بأنّ الشارع العريض، أمام داري، لا يزال شارعًا عريضًا وهادئًا، يرحّب بالناس والعربات؛ ويتواصل مع شرايين أخرى في المدينة، تحفظ دورة الدماء الحامية.
وأسيرُ فوق رصيفه، مثلما اعتدتُ أن أسير، وأتظاهرُ بأنّ الحاجز الذي يصدم قدمي، ليس سوى سراب من بعض أوهامي؛ فأنا خارجة للتوّ من دنيا الكرى، وضباب الليل يغلّف بصري، ورطوبة الليل تجثم في عينيّ، وتحجب عني صفاء الرؤية.
أرفع قدمي وأتجاوزه... أميل عن الحاجز وأمضي، مؤكّدة للذات المشرنقة في كياني، أنّ قدمي لم تصطدم ببرميل البارود، ولا داسَتِ الأسلاك الشائكة،

الملولبة، المتعانقة حول الأرصفة، والمعابر... المعوْسجة في قلبي.

أكبو، وأنهض، رأسي شامخ، ونظراتي تسبقني إلى الأمام.

وفي شموخي، لا أبالي بحفرة تفاجئُني. تنفتح أمامي مثل عين شريرة، تمور فيها المياه الآسنة... وأسقط.

قدماي تغرقان فيها حتّى القاع. وتفوح، من مكان خفّي في باطن التراب، رائحةٌ تصدم الحواسّ دفعة واحدة... وانتشل من الحفرة قدمَيّ، وأمشي.

أتظاهرُ بأنّ الانفجار الذي قطع عليّ مجرى أفكاري، وخيط الجدار المُسنِدة إليه ظهري، ليس سوى تعبير احتفاليّ... وبأنّ الضغط الذي رفس دماغي، ثمّ شالني عن مقعدي وطرَحَني خارج الغرفة، ما هو إلّا عرض لطيف للاهتمام بوجودي: فأنا، والحمد لله، بألف خير. لم أفقِد عضوًا من أعضاء جسمي، ولا حاسّة من حواسيّ... وما هَمّ، إذن، لو خفق القلب قليلًا، وتسارعَت دقّاته، وارتفع ضغط الدم في عروقي، وجفّ الريق في حلقي، وتمدّد الصقيع في كياني بالغًا أقصى الأطراف!... فهذه جميعها، أعراض طبيعيّة، يخلّفها العيش وسط المدينة بيروت، مثلما يستنفرها الرعب في مجاهل الأدغال والغابات.

وأتظاهرُ بأنّ الطاقة الذاتيّة على الحبّ لم تذبل، ولم يجفّ مُعينها في وجودي. أضمّ حولها جناحيّ، وأستعدّ للتحليق: فأنا مشتاقة إلى لقياك. أحلم بأن نلتقي، مصادفة، في بعض الطريق؛ فقد طالَت مدّة غيابك، والشوق يغلي في عروقي ويفور، وفوق هامتي ينتشر صقيع الموت.

وأنت، عوّدَتني الأنس ودفء الحضور.

أتظاهر بأنّ في أعماقي، معاصر لحبّنا العتيق، تدور ولا تكلّ، تقطّر وتصفّي، وتردف الروح برحيقها البكر. وأتظاهر بأنّي، لو رفعتُ عينيّ من مكانهما الترابيّ، واقتلعتُ نظراتي من التصاق أدمنتُه، بأسفلت الرصيف، لأبصرتُ وجهك، بكلّ التجلّي، والتألّق الذي عرفتُه وخبرتُه، وكان خبز أيّامي. وأمدّ يدي. بشوق إليك أمدّ يدي. ودون أن تتحرّك الشفتان أسألك لتُمسكَ بأطراف أصابعي، وتفرك يدي، بقوّة وحنان، فتُذيب جليدًا يذكّر بالموت، وتطرد صقيعًا استطاب الإقامة.

وأتظاهرُ بأنّك منّي قريب، وسوف تسمع، وتدرك، وتعي وتفهم، وتبلّغك أشواقي مطوّلة.

وتمدّ، من مكانك البعيد، تلك اليد اللطيفة، الحانية، فتنتشلني من إمكان السقوط في اليأس. ونسير معًا، بمحاذاة الشاطىء، نصغي إلى ارتطام الأمواج فوق الصخور، بينما تتغلغل في مسامّ وَعْينا، صرخات هستيريّة، تُطلقها طيور النَوْرس، وهي تتسابق، وتتعارك لالتقاط الصيد الطافي فوق صفحة الماء.

وأتظاهر، بأنّ قلبي يغلي ويفور. وتتصاعد أبخرته من عينيّ، تبلّغك الرسالة. تقول لك: إنّ الطاقة صامدة، وإمكان الاسترسال في الحوار ينتظر، وإنّه لنا مع الحبّ جولات.

وأتظاهرُ بأنّ الحرب لم تهدم البناء الداخليّ من كياني، ولم تُسقِط الكلمات. لم تنحرِ العواطف، أو تطرَحنا في الشتات، نعدّ أيّام الفراق ولا نعيشها، بانتظار أن نلتقِيَ من جديد.

وحين نلتقي، نتظاهر:

بأنّنا ما اقترفنا منذ البداية. وبأنّ كلّ العناء والألم والجوع والشوق، وحتّى الموت، وكلّ ما عِشنا، ومِتنا، كان وهْمًا. وها إنّنا نِلنا الظفر، بالصبر والحكمة. ونقف فوق قمّة الوجود، نُعلن الغلبة، والانتصار على الضياع والتشتّت... الانتصار على الموت.

وننهض، من بين أكوام الرماد، طيورًا جديدة وعصريّة، وإنّما من سلالة ذلك «الفينيق» القديم.

وأتظاهر، بأنّ أناملي ترتفع لتطاول جبينك العالِيَ، تلامسه، وتتأكّد من أنّه لا يزال صامدًا في مكانه، ولن يغيب. وبأنّ يدي تتشابك ويَدك، وذراعي تلتفّ حول ذراعك، ونتابع المسير، وتسمّعني عذوبة أناشيدك، وتتغلغل ذبذبات صوتك في ذرّات وجودي، ترسم السعادة في مسار أيامي.

وأتظاهرُ، بأنّ النشيد لا يزال يترجّع في الأعماق؛ وأصداؤه تتشظّى في كلّ صوب، وترتفع أعلى من تفجّر القنابل وعويل الثكالى.

وأتظاهرُ، بأنّ الحرب الطويلة، والتي أيبَسَت عشبنا الأخضر، وداسَتِ الأرواح، لم تبلغ غايتها.

وكلّ الانهيارات والحرائق لم تقتل حبّة الحنطة، المقيمة في مكانٍ سرّيٍّ، في باطن الأرض.

وأنّ الانهيار الآخر، الذي أصاب بناءً رفَعناه معًا، فوق السواعد والجباه، كان كابوس ليلة شتائيّة. وجوهر البناء باقٍ، وإلى الأبد. وهو يتابع المسير، مع حبّاتٍ مباركةٍ غرَسناها في أرضنا، لأنّنا نؤمن بالغد، وبالإنسان... ونؤمن بمتابعة الرسالة.

وأتظاهرُ، بأنّ هبوب العاصفة لم يقلَعنا من المكان؛ فالأسوار كانت أعلى منها قامات... وكانت مخفورة برموش أعيننا.

والعاصفة، بكلّ ما لها من جبروت وقوّة، ظلّت عاجزة عن قصف أشجار الصنوبر والنخيل، وكلّ ما فعلَته، أنّها هشّمَت الطحالب وتلاشَت في النسيان... والأشجار السامقة، لا بدّ وأن تنهض، لتلتقِيَ، وتتعانق في رحاب الفضاء.

وأتظاهرُ، بأنّنا سنخرج، عندما تشرق الشمس، إلى حديقتنا القريبة، ونجلس على مقاعدها الخضراء، نرشف القهوة المطيّبة بحبّ الهال؛ نصغي إلى عراك العصافير، فوق السنديانة الدهريّة، نستقبل أصدقاء العمر. نشاطرهم الكلام والسلام، ثمّ ننهض لنواجِهَ يومًا آخر من أيّام العمران.

وأتظاهرُ، بأنّ البيت الغالِيَ، والمرتفع كعشّ نسر، في أعالي الجبال، لم يُمحَ ولم تُدَكّ أسسُه. فهو باقٍ، ما بقيَت فيه أنفاس أطفالنا، وصُوَر وجوههم السعيدة، وقهقهاتهم المرحة، وحفنات الأنس والصداقة والمرح.

وأتظاهرُ، بأنّ بيتنا الآخر في المدينة، باقٍ، على سابق عهده، صامد، يستقبل الأصدقاء والأحباب. يفتح أبوابه والنوافذ، ولا يبالي بالذين يختلسون إليه النظرات الحاسدة، أو يتحيّنون الفرص للانقضاض عليه.

وأتظاهرُ، بأنّ كلّ شيء في المكان، باقٍ مثلما كان:

المحبّة بين الناس، هي المحبّة، والسلام يعمّ الكون. والأطفال يولدون كلّ يوم. كذلك تفقس العصافير والفراشات، في السرّ وفي العلن. وتنوّر الزهور في الحدائق، وتغمز من فوق الشرفات.

والشمس تشرق وتغيب. والقمر يطلع والنجوم، وتتعاقب دورات الفصول، ولكلّ فصل وعود وألوان.

وأتظاهر، بأنّ هذا الامتداد الأزرق، الذي هو البحر، وهو الفضاء، محتفظ بصفائه، ورقّته؛ لم تمخر عليه سفن الحرب. لم تدنّسه نوايا العدوان. وسوف

يظل غطاءنا والمدى... فوق أمواجه ترنّم مجاذيفنا، وتصدح أغنيات الحرّيّة والانعتاق.

وأتظاهر، بأنّك عائد إلى عشّ صغير بنيناه معًا، ولن تقتلعنا منه العواصف والمغريات.

وحين تعود، يهدر صوتك كالرعد، ويصدّ رعدًا آخر يخترق أحلامي، ويغرس الكوابيس موضع الرؤى.

وهكذا أتظاهر بأنّي ما زلت صبيّة، لا تجاوز ربيعها العشرين، واقفة فوق الشرفة، تنتظر. والقلب يخفق بفرح، ويطفر النور من العينين، ويبرطع الشوق فوق الشفتين. وهي تنتظر، وتحسّ في ذراعيها، تململ ذلك التوق الموجع، لاحتضانك.

وحين تعود:

أقول لك: حين تحدث المعجزة؛ وترجع، كالنسر يهبط من شاهقات القمم، وتأتيني حاملًا، فوق جناحيك، وجوهًا غيَّبها دخان الحرب... أعدك بأنّي:

أسحب كلّ الكلام الذي دار بيننا، حوارًا غيابيًّا وجلسات في الضباب.

وأعدك بأنّي لن أعود إلى التظاهر والتمثيل، بل أعترف وأجهر بإيماني. وأصدّق، يا سيّدي، ويا حبيبي، بأنّنا في عصرنا الكافر، وفي الربع الأخير من هذا القرن الأعوج، وعند مطلّ قرن آخر ينتظرنا خلف الأفق... في زمن التخلّي، والجوع والعنف، والبطر... أعلن إيماني بأنّه، برغم كلّ الذي نرى، ولا نرى، وما نسمع وما لا نعي، وما نعاني منه، ونتألّم لأجله، تبقى هناك مساحات طيّبة، منذورة لظهور المعجزات.

وإلى أن يتمّ ذلك،

وتتحقّق الرؤيا،

سأظلّ مقيمة في الضباب متلفّعة بالوهم.

وأتظاهر، بأنّني أمشي مشيتي الطبيعيّة. وأعبر مسالك عاديّة، بين أناس، لم يفقدوا جوهر الإنسان، في كيانهم.

وبين أناس، لم يستقيلوا من الاسم أو المهمّة... ولم يتخلّوا بيأس، عن إمكانيّة الوصول.

* * *

وأتظاهر، بأنّني أمشي، وأمشي، وأصمّ أذنيّ، عن كلّ صوت أو صدى يمكن أن يغرس النشاز، في التناغم الكونيّ، والذي وحدهما، اختراقهما وتصدّعهما يعنيان الهزيمة... بل النهاية.

بيروت 1986

الرصاصة تكتب القصّة

سمِعنا الطلقة الأولى، مثلما اعتَدنا سماعها منذ عشر...

انتظَرنا بترقّب،

لم يخِبْ توقّعنا... تَلَتها عدّة رشقات. أصغَينا جيّدًا كي نحدّد المصدر. كان ذلك ضروريًّا لنختار موقعنا في إحدى زوايا الدار. لكنّ الرشقات التي تلَت لم تترك لنا الفرصة كي نقرّر؛ اتّخذَت هي القرار، ودفعَتنا بقوّة، كي نتكوّم في الممشى الضيّق بين غرف البيت.

الممشى يؤمّن الحماية لظهورنا. هذا ما فكّرت فيه، إثر عملية حسابيّة سريعة. فالطلقات التي سمِعناها، طلقات رصاص؛ والرصاصة، مهما فعلَت، لن تخترق جدار الإسمنت. أو هذا ما قدّرتُه بسذاجة.

وأمامنا جدار داخليّ، يفصل بيننا وبين الواجهة الزجاجيّة في الخارج... تلك الواجهة، كانَت نعمة، أيّام الصحو والسلام؛ تُفسح لأشعّة الشمس بأن تتسرّب إلى الداخل، فتُنير السلالم، حيث نُصبت غرسات منوّعة، تطاوَلَت، ونَمَت وكبُرَت وعملَقَت حتّى باتَت رؤوسها تناطح السقف.

أمّا في أيّام الحرب، فالقصّة تختلف تمامًا...

مدخل الممشى يقع إلى يسارنا، يقابله جدار داخليّ نصفيّ، يستقبل رسائل الحرب مجانيّة، ويمكن أن يردّ عنّا الرصاص إذا جاء من الجهة الشماليّة...

وإلى يميننا باب خشبيّ، قد يردع الرياح الجنوبيّة، و«شرْد» المطر، لكنّه يظلّ عاجزًا عن صدّ الرسائل الحارّة الموقّعة بأحرف من نار.

لا... لم يكن ذلك الملجأ المثاليّ، غير أنّه المكان الوحيد الذي أمكننا اختياره أمام سرعة التصعيد، ومداهمة القصف.

فالطلقات التي بدأت بعيدًا، في المراحل الأولى، وبلغَتنا أصداؤها ورموزها، لم تلبث أن أخذَت تقترب، وتقترب؛ ثمّ سمِعنا تفجُّرَها على الجدار الخارجيّ للبيت؛ وهذا أمر طبيعيّ اعتَدناه واختبَرناه في جولات سابقة... فالرصاصة، حين تنطلق من فوهة البندقيّة، يجب أن ترسوَ في مكان ما، وتتفجّر فيه... وقد يكون جدار بناية، واجهة زجاجيّة، جذع شجرة، أو جلدًا بشريًّا. هدف الرصاصة الاستقرار في نهاية المطاف، لذا لم نستغرب، وإن ازدادَ خَفَقان القلوب، وارتَفَعَت نسبة الجفاف في الحلوق، واصطكّت منا الأسنان والركَب، وسرَت في الأجساد قشعريرة البرد حتّى أقصى الأطراف.

كانت تلك ردود فعل طبيعيّة أكّدتها الخبرة وشهادات الأطبّاء.

لكنّ الذي لم يكن عاديًّا، هو تكرار «الفقش» على الجدار الخارجيّ... (وثمّة جارٌ شَهِدَ ما يجري وعبّر عنها فيما بعد بالطقش... واللبخ، وسائر التعابير الشعبية التي تعني أمرًا واحدًا: القصف).

وكان يتكرّر بنسبة طلقة كلّ ثانية... إذن، الأمر ليس مصادفة. والرصاصات السابقة لم تكن عرضيّة، طائشة، هائمة، عشوائيّة، مغشيًّا عليها... أو ما شاء ذوقك اختياره من نعوت... كانت رصاصات هادفة، صائبة... إحداها اخترقَتِ النافذة الخشبيّة، وعبرَتِ الزجاج، و«طنّت» في طبلة أذني: تاكْ ناعمة، مثل الهمسة الأولى، يسكبها في الأذن، عاشق مجهول: تاكْ...

دفَعَني الفضول كي أنظر إلى حيث انطلق الصدى، فأبصرتُ ثقبًا في الزجاج، مكمّلًا لثقب في الخشب، يكاد لا يتّسع لخنصر طفل رضيع.

لم تكن تلك الرسالة الوحيدة يُبلغنا إيّاها القنّاص، الذي سيكون لنا معه، في الأيّام التالية، حوار طويل... بل شعرتُ بالسليقة، بأنّ هذا الإنسان المجهول، يحاول إثبات مهارته. ولم يلبث هذا الشعور أن تحوّل قناعةً، حين سمعتُ انفجار الرصاصة الثانية، ثمّ أبصرتُها تحفر ثغرة أوسع، ولكن في الثقب عينه، وتفتح دائرة شعاعيّة، في صفحة الزجاج الذي لم يكن قد تأثّر من الطلقة الأولى حين نفذَت منه، وكأنّها تخترق العجين المرقوق.

القنّاص يتسلّى!...

قلتُ لنفسي، وتابعتُ: ولكن لماذا اختارنا نحن بالذات؟... أي هذه البقية الباقية في البناية، والمؤلّفة من جماعة لا علاقة لها بما يجري في الشارع، خصوصًا بوجوهه العنيفة!...

لماذا؟...

وكنتُ، حتى تلك اللحظة، محتفظة بروح الدعابة، قادرة على ملاحظة ما يجري، مستعدّة لفتح حوار مع القنّاص، طبعًا بالكلمة، وجاهلة تمامًا ما ينتظرنا من خطر...

* * *

ذلك القنّاص المجهول، ذكّرني بالفنّان الذي طَرَقَ مجلس الخليفة، ذات يوم، كي يعرض أمامه فنونه ومهاراته. ولم يرفض الخليفة طلبه، بل جلس يراقبه وهو يرمي الإبرة، ثمّ يشكّ الثانية في ثقب سابقتها، حتى أتى على مجموعة الإبر في حوزته، وانتظر المكافأة.

وكافأه الخليفة: فأمر بأن يعطى مائة دينار، ويُجلَدَ مائة جلدة: الأولى تقديرًا لمهارته. أمّا الثانية، فلأنّه أضاع وقته في عمل لا جدوى منه.

طبعًا، الشبه ليس تامًّا بين الاثنين، لأنّ القنّاص الذي يعرض مهارته، لا يفعل ذلك دون هدف أو فائدة... بالنسبة إليه على الأقلّ. وقد قام بتلك الدعابة كمحاولة أولى. حتى إذا أيقن بأنّ الرسالة بُلّغت، أخذ يمارس فنّه بأسلوب آخر، ومختلف كلّ الاختلاف؛ راح ينقل حقل الرماية من شرفة إلى نافذة، من اليسار إلى اليمين، ومن الشمال إلى الجنوب والشرق. (ولا أقول الغرب، لأنّ موقعه كان غربًا إلّا إذا كان يمارس هوايته على الجانبين؛ فيمطرنا، نحن الواقعين شرقًا، برشق ناريّ، ثمّ يدير إلينا ظهره، ليقنّص مَن هم في الاتجاه الآخر...).

هذا ما لم أستطع بتَّهُ، من مكاني في تلك الزاوية الضيّقة، حيث قضَينا الساعات التالية، دون حراك، بينما بقي السمع وحده، مشدودًا إلى نقاط التفجير.

* * *

حدث ذلك كلّه في اليوم الأوّل، والذي انتهى مع حلول الظلام. لكنّه لم يسحب أذياله قبل أن يوقع عدّة ضحايا بشريّة، كانت إحداها أمام مدخل البناية، وجاءَتنا

صرخات الضحيّة تزيدنا خوفًا على خوف، وألمًا فوق ألم؛ ثمّ فجأة توقّف القنص. أبلغ القنّاص أقصى غايته... أم إنّه تعب، مثلما يتعب سواه من الآدميّين المحدودين بحدود جلودهم الضيّقة؟... وإذا لم تتعب يده، فربّما تعبت عيناه، أو سمعه أو... هل أقول: الضمير؟...

– لا بدّ أنّكِ تمزحين...

«حنان» تعترض، مصحّحة، ثمّ تروي تجربتها الشخصيّة معه:

– «هبط علينا، قبيل المغيب، كنّا نتكوّم في بيت الدرج. خمس نساء وعشرة أطفال، ولم يكن معنا رجل. وفجأة أبصَرناه بيننا: كان شابًّا لا يجاوز الخامسة والعشرين، مفتول العضلات، ناريّ النظرات. يحمل رشّاشه بطرف أصابعه، وبأطراف شفتيه طلب زجاجة ماء. لا أدري، ما الذي جعلَني أتجاهل الرشّاش وأفكّر بظمإه. أثار منظره حناني وشوقي. شعرت فجأة بأنّي مشتاقة إلى ابني الكبير، وإلى أخيه الأصغر منه، وكلاهما خارج البلاد... وهذا المقاتل له أمّ، طبعًا. وهو بعيد عنها... بعيد...

هرعتُ إلى داخل البيت، وانتشلتُ زجاجة الماء دون أن أنسى الكأس، ناولتُه الماء بحركة طقوسيّة: انتقلتُ معه إلى المسرح، والواقع تحوّل خيالًا.

كان أمامي بطل، وكنتُ مطلوبة لتمثيل دوري معه.

انتظرتُ أن يروي ظمأه كي أقول له: هنيئًا... لكنّه لم يفعل. بدل أن يردّ فوهة الزجاجة إلى فمه أدارها إلى ظهر سلاحه وراح يسكب الماء البارد على صفحة الحديد الحامي، فيصدر صوت كفحيح الأفعى.

لم أقوَ على ردّ نظري عن المشهد، والفتى مشغول عنّي بما يفعل. كان يقوم بعمله بلذّة فائقة، يسيل لها لعابه... وحين انتهى من سكب الماء رفع نظره إليّ، ولما لاحظ دهشتي، بل شرودي، أدار الزجاجة إلى فمه، وراح يعصر ما بقي في جوفها من قطرات شحيحة، قبل أن يردّها إليّ، ويُعيدني إلى الواقع، ثمّ يتوارى».

* * *

في اليوم التالي، صحَّحَت ابنة الجيران معلوماتي الحربيّة، وأضافت بندًا جديدًا، في ماهيّة القتال. أعلَمَتني، أنا وغيري ممن كان حاضرًا، ومستعدًّا للحفظ والتسجيل، بأنّ القنّاص لا يتعب، مثلما صوّرَت لي تخيّلاتي؛ فهو، عندما يهبط

الظلام، لا يعود قادرًا على القنص، خصوصًا في غياب الكهرباء... و«عيون الإنسان لا تقوى على اختراق الجدران...»، قالت.

تلك الابنة الخبيرة، لا تجاوز الثالثة عشرة من عمرها؛ أطلَعَتنا على أمور كثيرة تحفظها، وترويها بثقة، ودون أن يرفّ لها جفن رقّة شكّ أو تساؤل؛ وكلّها متعلّق بتقنيّة الحروب، وفنون أصحابها.

* * *

انحشَرنا، جميعنا، صباح اليوم التالي، وباكرًا، جدًّا جدًّا، في ملجأ آخر... غرفة في مستوى الأرض، رضِيَ بها الرأي الجماعيّ، ونالت أصوات الأكثريّة. غرفة محاطة بثلاثة جدران، ومفتوحة على جهة واحدة، داخليّة.

كان هذا أفضل الموجود.

ومرّة أخرى، لم يكن أمامنا خيار... وخضَعنا جميعنا، للأمر الواقع. وكنّا خليطًا من كلّ الأعمار، والجنسيّات و... المذاهب.

كانت هناك صوفيا، ومرغريتا، مثلما كان معنا عبّودي ومي، وريما، ومنى، وخديجة، والطفلة فاطمة، وأخوها، حسونة، وأم سامي، وأبو الفضل، وسوسن وفيفيان. وكانت نسبة النساء ثمانين بالمائة، وهنّ من مختلف الأعمار، والأحجام. فبينهنّ الكاعب، والحامل، والأرملة، والبالغة المنقلب الآخر من العمر، الطاوية خيام الشباب، والمستعدّة للرحيل... ثمّ المراهقة، المزهوّة بتهدّل شعرها، وجمال عينيها، والطفل الرضيع، والذي لا يعي من ردود الفعل سوى البكاء.

وكانت هناك مشكلة كبرى، ناتجة من الموقع الجغرافيّ للغرفة، والتي لم تصمّم، في أساسها، لإيواء أناس من لحم ودم؛ فهي مستودع لكلّ ما يُحال على التقاعد من آلات وأثاث، وكلّها جامد لا يطلب حاجات الجسد.

وفي حالات الخوف، تتضاعف بعض تلك الحاجات، خصوصًا لدى الحوامل والأطفال... فكيف السبيل إلى قضائها؟...

يوجد بيت للراحة، لكنّه خارج الغرفة، وعلى مسافة بضع خطوات من مدخلها، إنّما دون بلوغه ثلاث نوافذ زجاجيّة، وكلّها في متناول القناص. وهو، سامحه الله، يقِظٌ كالطير، فما أن تلوّح ذبابة أمام واحدة من تلك النوافذ، حتّى يبدأ «التنغيم» وغالبًا ما تستمرّ «التكتكة»، دون حاجة إلى التلويح...

وهذا ما دفع الأمّهات إلى ابتكار طرق وأساليب شتّى، للوصول بفلذة الكبد، إلى بيت الراحة.

وقد اتّبعت بعضهن حيلًا تذكّر بذكاء الشاطر حسن، في سبيل تضليل القنّاص، واختبار نواياه... كأن تلوّح له بمنديل أبيض خلف النافذة، ثمّ تنتظر قليلًا، فإذا تجاوب، جمَدَت مكانها. وإذا أبدى الصمت أو التجاهل، قفَزَت بالطفل قفزة النمر، مجتازة «القطوع» الأوّل... فالثاني والثالث.

أذكر هذه التفاصيل الصغيرة، لأنّ قضاء تلك الحاجات الجسديّة الطبيعيّة، بات ضربًا من المغامرات الخطرة، ويحتاج اجتيازها إلى شجاعة «عنترة» و«الزير» و«أبو زيد الهلالي» وسواهم من أبطال الحكايات القديمة – خصوصًا بعدما تعرّض اثنان من الأطفال للخطر الأكيد، وخرجا سالمين بأعجوبة، ممّا دفع إحدى الجدّات إلى أداء النصح، دون المطالبة بالجمل في المقابل...

قالَتِ الجدّة: أبقوا الأولاد في الملجأ، واستخدموا للغرض، أي وعاء متوفّر في المكان...

وأصغى إليها الجميع... و... سمعًا وطاعة. فالسلامة تأتي في الدرجة الأولى، في سلّم الأولويات.

وانتظَرنا حلولها، مع قدوم الظلام، خصوصًا أنّ الإذاعات كانت تبشّر بوقف جديد لإطلاق النار...

لكنّ الكلام ظلّ كلامًا... وبقي الرصاص يلعلع فوقنا، وحولنا، وتنتشر الانفجارات في كلّ الزوايا...

* * *

في نهاية ذلك اليوم الطويل، قرّر القناص أن ينام، وسمح لنا بالنوم، لبضع ساعات، قبل أن يستأنف من جديد.

وكان ذلك في اليوم الثالث.

* * *

لم تعطَ لنا فرصة الخروج من الباب؛ فجأة بدأ التفجير، وراحت البناية الشاهقة تمطرنا رصاصًا وقذائف، من أنواع وعيارات شتّى؛ وأصيب الملجأ الأوّل. أي الممرّ المُحيّد بين غرف الدار. اخترقَتِ الرصاصات الحارقة، الخارقة،

المتفجّرة، طبقاتٍ من الحديد، والخشب والزجاج، وأصابَت قلب الخزائن الداخليّة، وأشعلَت فيها الحرائق.

قدّرتُ أنّ القنّاص سئم اللعب، وبدأ العمل الجدّيّ، والرصاصة الأولى التي حاول من خلالها، إثبات جدارته، أصبحت في النسيان؛ فالعصر عصر السرعة والتقدّم الصاروخيّ، والرجل لا يلهو (أتصوّره رجلًا، لأنّ التقارير الحربيّة لم تُشِرْ إلى امرأة مارسَتِ القنص، وإن كانت هناك عشرات المقاتلات، وفي كلّ الأطراف). وهو الآن، يُمطرنا بوابل من رصاصه الحارق، وعلى كلّ الجهات. وهذا الرصاص يحرق في السرّ كما في الجهر. يخترق الخشب، والحديد... ويجتاز المعابر، بلوغًا إلى الحواشي الباطنيّة، داخل الخزائن والأدراج، وبينما يترك ثقوبًا صغيرة، في الصفحات الخارجيّة، فإنّ فعله الحقيقيّ، هو في الداخل، حيث يحرق في لحظة، كلّ ما حَوَت تلك المخابىء منذ سنين.

* * *

وهكذا ظلّ الحارق الخارق يتنقّل في طبقات البناء، على مدى ساعات. ونحن في اليوم الثالث. وبعض الجيران (بالأحرى، بعض الجارات) فضّلن البقاء في منزلي الواقع في الطبقة الأولى؛ خصوصًا السيدة الحامل، والتي أتعبها القفز في اليوم السابق؛ وذلك لأنّ الملجأ الجديد الذي اختَرناه، يقع في جوار غرفة الحمام... ولتمطر القذائف ما شاء لها ذلك، فالسقف يحمي رؤوسنا، وحولنا ثلاثة جدران، وأمامنا زجاجة ماء، و«راديو ترانزستور»... وماذا يطلب القلب الواجف أكثر من هذه النعمة؟!...

تمدَّدنا على الأرض، عدا صوفيا، الجارة الأوروبيّة الأرستوقراطيّة، صاحبة الساقين الطويلتين، والقامة «الجهاميّة». لم تتدرّب مثلنا منذ الطفولة، على الجلوس أرضًا، ومن الصعب أن تُطوّع ساقيها في لحظات. وحدها ظلّت جالسة فوق الكرسيّ، مُعرّضة رأسها، مع «الشينيون» الأشقر، لكلّ الاحتمالات.

وفي ذلك اليوم الثالث، تطوّرَتِ الأوضاع، وارتفَعَت حرارة الغضب، وجُنّ جنون القنّاص؛ خصوصًا أنّ إطلاق القذائف، صار يأتي من كلّ الجهات. وبِتنا،

نحن، في تلك المساحة الضيّقة، واقعين بين أربعة نيران، أشدّها رعبًا يأتينا من صاحب الكلمة الأولى، والذي خطّ رصاصه السطر الأوّل في الحوار.

* * *

افتقدتُ الصبيّة، ابنة الجيران، والتي خبَرَت سلوك القنّاص وطبائعه، بفعل التأمّل، والمطالعة. قيل لي إنّها غادرَتِ البناية مع الصغار من أفراد عائلتها، قبل أن يشقّ الفجر.

وبقينا، نحن، نتلقّى الصفعات الحارّة، ومن عيارات شتّى.

لا أدري كيف كان الوقت يمرّ، بطيئًا كأنّه أقدام فولاذيّة عملاقة تتمرّغ فوق رموش أعيننا... أو سريعًا كالومضة الخارجة عن مدار الزمن.

وكان الوعي، والأحاسيس اللاواعية، بل الكيان برمّته، كان مشدودًا إلى نقطة بالذات؛ مركز التفجّرات، وقد باتت على قيد شعرة من جلدنا، بينما هي تمعن في التفجّر فوق جدران المنزل ونوافذه والأبواب. ولم تَعُدْ رصاصات صغيرة، بل أصبحت قذائف صاروخية من عيار يدُكّ الجدران، يخترق الغرف، يدمّر، ويحرق؛ ومن الحرائق يصعد دخان يهدّدنا بالاختناق.

* * *

كم مضى من الوقت، ونحن على تلك الحالة؟...

كيف يُقاس الحدّ الفاصل بين نشوة الحياة وشهقة الموت؟...

كيف لي أن أحدّد تلك اللحظات الفريدة، والتي يدعوها إيماني «ساعة التجربة» وتنبري لها إنسانيّتي الراضخة، المنسحقة، المتألّمة، طالبة الخلاص السريع؟...

في ذلك اليوم الثالث، بل في تلك الساعات المشهودة من مساء السبت، الواقع فيه الثالث والعشرون من شهر تشرين الثاني، كان المذيع يلهث الأخبار من الراديو، يطمئن المستمعين إلى أنّ وقفًا جديدًا ونهائيًا، لإطلاق النار، قد أعلن... وأنّ اللجنة «الفلانية» اجتمَعَت، والزعيم «فلان» أصدر أوامره... ونحن... نحن وحدنا، في تلك اللحظات الضيقة، كنّا نعلم، أنّ الأخبار غير صحيحة، وأنّ رحى القتال لا تزال تدور فوق رؤوسنا، وأنّ أحدًا لم يمتثل لأوامر وقف القتال.

فقط، كنّا ننتظر حلول الظلام، كي يضع القنّاص الخاتمة لحواره الساخن.

بيروت 1986

محاولة لاسترجاع ذكريات مفقودة

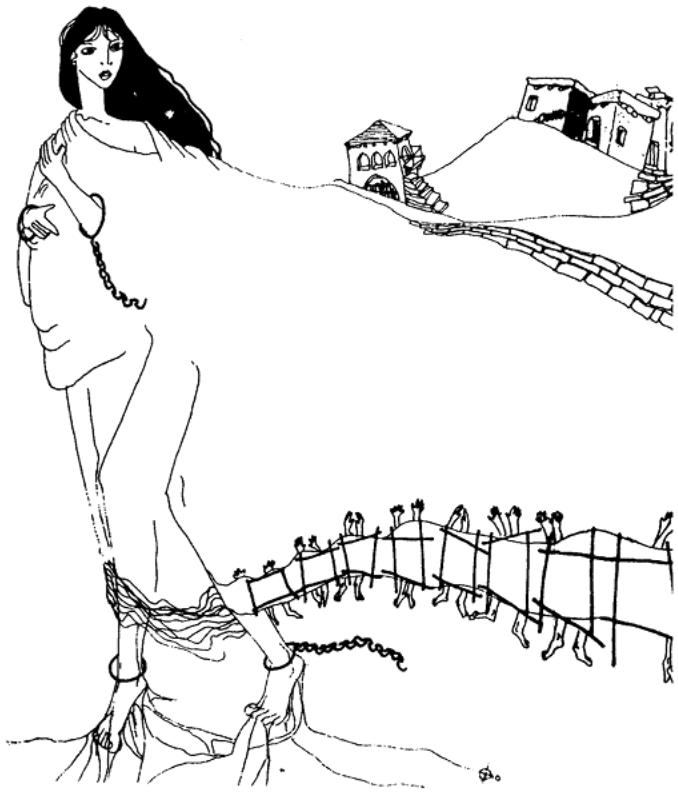

الحلقة المفقودة
التوقيع الأخير
مثل ما كنّا
قطرة مطر
الفردوس الصغير
عالم سعيد
ظلها والمدينة
ملح الأرض

الحلقة المفقودة

لاحظَتِ السيّدة نون أنّ المدير بدأ يمسح العرق الناضح من فوق جبينه، واعتبرَت تلك إشارة إلى أنّه استنفد كلّ الكلام الذي شاء أن يقوله، دون أن يتوصّل إلى إقناعها.

فهي هنا منذ ساعة... أي منذ أن بدأ لقاؤهما، بناء على موعد سابق، وبطلب منه، كي يبحث معها موضوعًا يتعلّق بابنها كريم.

أخبرها بأنّ كريمًا تقدّم بطلب للالتحاق بالمعهد العالي للفنون الذي يديره هو، وتقصده نخبة الطلّاب المتفوّقين في معاهد أخرى شتّى... ويقصدونه حاملين شهاداتهم الممتازة، مرفَقة بتوصيات خاصّة من معاهدهم، مع مشروع يشهد على تفوّقهم في أحد الفنون... وعدد هؤلاء الطلاب، محدود.

* * *

– أجل، يا سيّدتي. هنا، يبذل الطالب أقصى الجهد، كي يبلغ مرحلة التخرّج. وبالطبع، هذا لا يكفي لأن يجعله فنّانًا مرموقًا، بل يفتَرض فيه أن يكون أصيل الموهبة والإبداع. وهذه الصفات لا تتوافر لجميع الناس، للأسف الشديد، لكنّها، متوافرة عند ابنك، دون أي شكّ. لقد ذَكَرَ كريم في قسيمة الطلب، أنّه يطمح إلى دراسة الموسيقى والرقص والغناء. لكنّ اللجنة الفاحصة ارتأت أن يركّز على الرقص، فهو يرقص بالسليقة... يرقص وكأنّما ألوف الطبول الغجريّة تقرع في مجاري دمه.

* * *

كان يكفي السيّدة نون أن تسمع العبارة الأخيرة كي تهبّ من مقعدها، فتسوّي قبّعتها، ثمّ تحمل حقيبتها، استعدادًا للخروج.

وعاد المدير يستوقفها:

– لستِ أوّل أمّ ترفض أن يتابع ابنها دراسة الفنّ؛ فمعظم الأهل يعتبرون ذلك هدرًا للوقت والمال. إنّي أفهمكِ تمامًا، يا سيّدتي، إنّما أرجو أن تفكّري مليًّا في الأمر، ولا تقفي حجر عثرة في وجه ابنك. فإنّ موهبة كهذه لا تتكرّر كلّ يوم.

لم تردّ على كلامه. بدأَتِ الرعدة تسري في عروقها، ولاحظ المدير أنّ أطراف أصابعها ترتعش، وهي تحاول أن تضمّ الحقيبة إلى صدرها، وكأنّها الملجأ الأخير لحمايتها. ثمّ صافحَته مودّعة، دون أن تتفوّه بكلمة يرشح منها أيّ تبدّل في الموقف. وسارت إلى العربة الفخمة، حيث ينتظرها سائقها الخاصّ.

ارتَمَت فوق المقعد الخلفيّ دون أن تنبس بحرف؛ لكنّ السائق أدرك أنّ سيّدته متكدّرة، بل معقودة اللسان والأحاسيس. فاحترم صمتها، وقاد العربة، باتجاه المنزل.

* * *

والسيّدة نون ليسَت في أصلها من سكّان باريس. انتقلت إليها، إثر وفاة زوجها، رجل الأعمال البيروتيّ الكبير «رضا بك ناجي». انتقلَت إليها كي تلاحِقَ أعمالًا شاسعة، خلفها الزوج، موزّعة في أقطار أوروبيّة شتّى... ثمّ لتوفّر لأولادها الثلاثة دراسة تليق بالأعمال، والمسؤوليّات الجسام، والتي تنتظرهم عند أوّل محطّة من محطّات العمر.

وقد نجح اثنان منهم، وتخرّجا، حاملَين شهادات تخوّلهما خوض غمار الأعمال الإداريّة والتجاريّة، وبقي صغيرهم، كريم، والذي يبلغ هذا العام سنته الخامسة عشرة... وهو شعلة ذكاء، حسب شهادة أساتذته. وأمّه تتوقّع له مستقبلًا عظيمًا في الأعمال. والأعمال تنتظره، بل تشرّع له كلّ الفرص والأبواب، فما باله يفاجئها بهذا التصرّف الأخرق؟... ماذا دهاه، كي يختار دراسة الفنون؟... والمدير يمتدحه. ويبشّرها بأنّ ألوف الطبول الغجريّة تقرع في مجاري دمه!...

هذا ما كان ينقصها!...

أين ذهب جهد السنوات المنصرمة، منذ أن وضعت قدمَيْها خارج حدود القرية؟... كيف يفهم، هذا المدير، أو سواه... كيف يفهم رفضها للموضوع جملة وتفصيلًا؟

بل كيف تدور الدائرة، وتعيد الإنسان إلى نقطة البداية الأولى؟

* * *

وكانت تلك نقطة الضعف في حياتها. ظلّت سرّها، ولن تبوح به لأحد. لا لهذا المدير، ولا لابنها. خصوصًا لن تبوح به لابنها. فقد حملَته، مع أخويه، بعيدًا عن ذكريات، حاولت الجهد كلّه كي تردم أثرها، في صدرها.

جاءت من قرية متواضعة في الريف البعيد. بل كانت لاجئة، في تلك القرية.

فتحَت عينيها، منذ الطفولة، على همس الرفاق «الدجاجة الغريبة». كانوا يرشقونها بالسخرية، ثمّ يضحكون بفظاظة تعرّيها، وتجرّدها من كلّ وسائل الدفاع؛ فتحسّ بأنّها حقًّا غريبة عنهم، عن جوّ القرية، عن التقاليد والعادات. وبالأخصّ، غريبة عن لقاءاتهم في أوقات الفرح والأعياد.

وظلّت تهرب إلى الزوايا الحميمة، والمطارح المعتمة، إلى حيث لا تشير إليها الأصابع، ولا تطالها ألسن الخبثاء.

في ذلك الوقت، كان يمكنها أن تلجأ إلى أبيها... تهرب إليه، تستجير به من تلك الموجات الكاسحة، والتي تسحق كلّ محاولة منها للوقوف أو المقاومة.

لكنّ أباها كان مصدر الشقاء. فهو، بلجوئه إلى هذا القفير العدائيّ، أهاج الزنابير والنحلات، وجعلها تتحفّز كي تلسعها كلّما تحرّكت، ولا توفّر من جسمها مغرز إبرة.

وأبوها جاء من الجبل البعيد. كان يكتفي بتسميته «الجبل الأبيض». يتيمًا كان. لا يعرف أبًا ولا أمًّا. ظلّ يردّد الحكاية على سمعها وسمع إخوتها: «أهلي ماتوا خلال الحرب الكونيّة. وبقيتُ مع إخوتي، نعمل في الحقول، وننتقل مع المواسم، من أرض إلى أرض...».

كان أبوها عاملًا نشيطًا، أتْقَنَ الكثير من فنون الغرس؛ تقليم الشجر وتطعيمه. وجعلَته خِبرَته في تلك الأعمال، مطلوبًا من كبار الملّاكين، يتسابقون على تشغيله في بساتينهم. والمال الذي يحصله، كان يكفي حاجات العائلة،

ويردّ عنها عائلة الجوع؛ وهذا أقصى ما تتمنّاه أسرة في ذينكَ الزمان والمكان، خصوصًا حين بات عدد الأفواه يربو على العشرة.

لكنّ هذه الصلة العمليّة، ظلّت عاجزة عن ربط الأب بتقاليد، يحافظ عليها أهالي القرى، ويسلكون فيها سلوك رجل واحد؛ والويل لمن يشذّ عن القاعدة، ويسير في طريق يختلف عن طرق اعتادوا هم أن يسلكوها.

وهو سار في كثير من الشعاب المتباعدة عن دروبهم. فقد كان له، إلى جانب صداقاته العاديّة في القرية، صداقات أخرى، بين جماعة من الغجر الرحّل، الذين يؤمّون القرية مع قدوم المواسم.

لم يكن أحد يُدرك السرّ الذي جعل الرجل يصادق تلك الجماعة، ويندمج في حياتها، بل يقتبس من عاداتها وسلوكها، ما هو مرفوض لدى الجماعات التقليديّة.

فالغجر راحلون أبدًا. يتبعون في رحيلهم خطّ الشمس، ومهبّ الريح. وهم يختلفون كل الاختلاف عن الجماعات المستقرّة، والمرتبطة بالزمان والمكان والتقاليد.

حين يأتون القرية، يقيمون خيامهم عند أطرافها، وعلى مسافة كافية، لتُبقِيَ الحدود بينهم وبين السكان. وهم لا يتخطّون الحدّ المرسوم بخطّ وهميّ، إلّا متى سعوا إلى رزقهم.

وطُرُق السعي، عندهم، معروفة؛ فهم يحملون إلى الناس الفرح مع موسيقى «الرباب» و«العود» و«الناي» وقرع الطبول. ويحملونها في أجسامهم الرشيقة الراقصة.

وتُصبح أفراح القرية وأعيادها أكثرَ زهوًا ومرحًا، حين يحضرها الغجر. ولهم أعمال أخرى، تظل ثانويّة، إذا ما قيست بالاستعراضات الفنيّة أو البهلوانيّة. وتبقى للرقص عندهم حكاية خاصة. فلكلّ راقصة عازف أو ضارب على الطبل يرافقها، وهي تتيهُ مزهوّة بثيابها المزركَشة الفضفاضة. وتعقد حول الرأس إكليلًا تلمع فيه الليرات الذهبيّة الزائفة. وهذا بعدما تكون قد زيّنت وجهها بزينة من خصوصيّات الغجريّات. فالأقراط مدقوقة بطرف الأنف، بدل الأذنين، والوشم يزيّن الخدّ واليدين. وتتكفّل الشمس والهواء الطلق بذرّ العافية، فوق الوجنتين. وهكذا، يبدو هذا الكيان، لأعْين القرويّين، ذا غربتين، في الأصل

والشكل، باستثناء عينَي أبيها، إذ لم تكن هناك حدود فاصلة بينه وبين عالم الغجر.

وفي الواقع، كان الأب يمثّل حلقة الوصل بينهم وبين مجتمع القرية. فإذا حصلت مشادّة، أو وقعت مشكلة، واستعصى حلّها على ذوي الشأن، كانوا يلجأون إليه. واكتسب، مع الأيّام، وبين الجدّ والمزح، لقب «ريّس». فسكّان القرية اعتبروه «ريّس» الغجر... وهؤلاء اعتبروه «ريّس» القرية، إذ كانت داره تُفتح في وجوههم. ويُستقبَلون فيها كأصدقاء أعزّاء، لا كغرباء هامشيّين.

ولم يكُنِ الرجل يجد أيّة غضاضة في ممارسة الفنون الغجريّة. فإذا غاب أصدقاؤه في رحلاتهم الموسيقيّة، ناب هو عنهم بنشر الفرح في أجواء القرية. كان يعزف على الناي، ويضرب على الطبل أو الدربكّة ويغنّي. لكنّ أهمّ ما حُفظ عنهم هو الرقص. فالناس، كلّ الناس، يستدرجونه في المناسبات ليرقص لهم. ويتحلّقون حوله، أو يضبطون الإيقاع بخبْط الأقدام. وهو يرقص كنخلة متمرّدة، ويرقص حتّى تميد الأرض بهم جميعًا، فتزوغ أبصارهم ولا تتعب قامته الممشوقة.

وفي رقصه، كان يرفعهم، ويخفضهم، يُبكيهم، ويُضحكهم، ويجعلهم يتلمّسون أجسامهم المخشّبة بندامة سرّية. وكلّما ارتفعت موجات المرح، كان ينخفض جناحا الطفلة الصغيرة، ابنته الجالسة بين الرفاق، جامدة، لا تدري، هل تصفّق وتبدي الإعجاب؟... أو تصغي إلى تأفّف أمّها وهمسها المُحرِج: «ليته يكفّ عن الرقص!... جعل نفسه مهزلة. يصفّقون له الآن، وعندما يدير ظهره، يسخرون منه. متى يُدرك ذلك، ويكفّ عن جعل نفسه مَضحَكَة؟»...

أمّها تتأفّف، دائمًا تتأفّف. وتختزن هي، في غدّة سرّية، ردود الفعل القاتمة. وتجد نفسها، في نهاية كلّ احتفال، وحيدة، تجلس في ركن منعزل، مستسلِمةً للحزن، للبكاء. وتبقى هذه حالها إلى أن يعثر عليها أحد الأخوة، ويقودها إلى البيت.

* * *

سنة بعد سنة، وهي تنمو، ومعها تكبر الأقاويل وردود الفعل. وتصبح العبارات التقليديّة الموجّهة لتحميس الراقص، وتشجيعه، رصاصاتٍ تصوَّب إلى قلبها، وتُدمي أعماقها؛ بل تجمّدها، وتحجّر منها أوتار الفرح والبهجة. فإذا التجاعيد

المبكرة تغزو القلب والروح، والعينين، قبل أن تغزُوَ وجهها. والحزن يرتع في الأعماق، ولا تجد كلمات تعبّر بها عن رفضها لكلّ ما يجري، وتحرّرها من الحزن المترسّب في نفسها.

ويبقى هذا سرّها. فلا الأم تدري، ولا الأخوة أو الرفاق... فهي تريد أن يكون أبوها مثل سائر الآباء، يتمشّى بين الناس وهو عابس، شامخ الرأس بطربوشه الأحمر، لا حاسرًا، تاركًا خصلات شعره ملعبًا للريح، وفي كلّ الفصول.

وبرغم كلّ شيء، كانت تحبّه. ولأنّها تحبّه، كان عذابها يزداد. وبات حلمها الأوحد، أن تكبر لتهرب بعيدًا عن قريتها.

* * *

قضَت ساعات، بل أيامًا وسنوات، تحلم بمستقبلها؛ بل تبنيه في حلمها، ودائمًا، بعيدًا عن الجوّ الذي عرفَت فيه مرّ الهوان. وكانت، في أحلامها، تهرب على متن الغيوم الراحلة، وفوق أجنحة الطيور المهاجرة. ولم يَعُد هناك باب آخر مشرّع في وجهها، سوى الحلم.

وظلّت تلك حالها، إلى أن تبدّلت ريح قدَرها.

* * *

في يوم لم يكن في الحساب، جاء... من حيث لا تدري، طَرَقَ بابها. كان رفيقًا لأخيها، ويُقيم في القرية المجاورة. أحَبَّته، من الوهلة الأولى، وبادَلَها هو الحبّ. ولم يطل به الأمر حتى خطبَها من أهلها، وتزوّجا.

تمّ كلّ شيء وهي هائمة في عالم خاصّ، اعتادَت اللجوء إليه، هربًا من كلّ ما يُحيط بها. وكان هذا الزواج ورقة الحظّ الرابحة، التي نقلَتها من محيط القرية الضيّق، إلى العاصمة، حيث أنشأ الزوج عملًا متواضعًا في بادئ الأمر. ثمّ لم يلْبَث أن كَبُرَ وتضاعَفَ، وأصبح له فروع في عدّة بلدان. وصار زوجها من كبار رجال الأعمال الناجحين، لا في العاصمة وحسب، بل وفي المنطقة بأسرها. وكان همّها الأوّل أن تُنشىء عائلة محترمة. وتربّي أولادها تربية رصينة، وتوقفهم فوق أرضيّة صلبة، لا تميد تحت أقدامهم من أوّل هزّة. وبذلك، تُبعدهم عن الجوّ «البوهيميّ» الذي عذّب طفولتها، وأشقاها. وظلّ غصّة في الحلق إبان سنوات المراهقة.

وهكذا، أقامت جدارًا بين الحاضر والماضي المرفوض. وإذا تحدَّثَت إلى أولادها عن أيّامها الأولى، كانت تحرص على نقل الصور مشرقةً، ومصفّاةً من كلّ وخْز أدمى قلبها.

لم تحدّثهم كثيرًا عن طفولتها، وآلام عرفَتها منذ فجر العمر. ولمّا تفتّح وعيهم على الحياة، كان الجدّ في منتصف العقد السادس من عمره، وكان مرّ السنين قد ذرَّ بعض الرماد فوق لمّته، وزاده وقارًا وهيبة. لكنّ تراكُمَ السنين لم ينجح في استئصال نزعَتِه الدائمة للشرود، والانعتاق من كلّ رابطة تشدّه إلى الواقع الجافّ، بأناسه وأحداثه. كذلك ظلّ الزمان عاجزًا عن انتزاع الخزّان العميق في ذاته، والذي كان يفجّره ساعة يشاء، ألعابًا، وفنونًا، تسلّي الصغار، والكبار.

* * *

وصغارها أحبّوا جدّهم كثيرًا. لكنّ حياتهم في المدينة، لم تسمح لهم بالإقامة الطويلة في القرية النائية، وظلّت زياراتهم إليها أشبه ببقع ملوّنة، تُضفي على حياتهم رونقًا جديدًا، وطعمًا مختلفًا عن طعم الحياة في المدينة.

ثمّ كانت هذه الهجرة الأخيرة بسبب الحرب، والتي غرسَتهم في العاصمة الفرنسيّة. وتكفَّلَت بعدها سنوات الحرب التسع المنصرمة، بتكثيف الحاجز بينهم وبين عالم الأجداد والذكريات.

* * *

والسيّدة نون حذَفَت من ذهنها كلّ رغبة في تجسيم الماضي، على حساب الحاضر أو المستقبل. وحاضرها عزٌّ ونجاحٌ، وزوجٌ لا يألو جهدًا في سبيل إرضائها وإسعادها. وكان يمكن أن تَعُدَّ نفسها أسعد امرأة في الأرض، لو لم يوافِهِ الأجل، باكرًا. فقد غاب عنها وهو في الخامسة والأربعين من عمره، إثر نوبة قلبية لم تمهله كي يودّعها ويودّع أولاده. وخلّف لها امبراطورية أعمال، تتكفّل هي بإدارتها. كما خلّف أبناء ورثوا عنه الطموح، والتصميم على النجاح والمثابرة في العمل.

* * *

هذا ما كانت تعتقده دون كلمة «لو»، حتى جاءَتها تلك الدعوة من مدير «المعهد العالي للفنون». وفيها يطلب إليها الحضور لمقابلته، بشأن ابنها كريم.

وهي، لم تسمع من قبل، بهذا المعهد. وكريم لم يذكره لها. لكنّها تعرف حق المعرفة بأنّ ابنها يتابع سنته الأخيرة في أرقى المعاهد الثانويّة في باريس. ويستعدّ في السنة المقبلة، لدخول الجامعة.

– طبعًا، كريم سيدخل الجامعة في العام المقبل. هذا أمر مفروغ منه...

كانت تخاطب دوارًا راح يلفّها، ويرفع ستارًا من الضباب، بينها وبين كل ما يحيط بها.

وسمعَت صدى كلماتها يرتدّ إليها، من المقعد الأماميّ في العربة، حيث يجلس سائقها المطيع:

– طبعًا، يا سيّدتي... كريم سيدخل الجامعة، ويتخرّج منها، مثلما فعل أخواه، من قبله...

بيروت 1984

التوقيع الأخير

من جديد، ينتظم صفّ الانتظار الطويل، في مطار بيروت الدوليّ: ازدحام، وحقائب، ودموع.

لا، عفوًا، لم ألمح الدموع، هذه المرّة... أضفتُها من دفتر الأدب القديم. ربّما للمحافظة على توازن النغم. عبارة باقية في خلفيّة الذاكرة من زمن الرومنطيقيّة. أيّام كان المسافر «ينشلع» عن صدر أمّه، عن صدر أرضه، وتبقى الحسرة... حسرة الفراق... نقطة النار، تكويه، مدى العمر، ولا يفيده أن يعود؛ فالغصن متى انفصل عن أصله، يصبح لحمه عملية مستحيلة.

تعترض؟...

تقول هناك أساليب حديثة في فنّ الزرع، والتقليم و... التلحيم؟... ربما. لكنّي، هنا، أتكلّم عن الطبيعة، وعن الأصول، لا عن الفنون المبتكرة أو المصنوعة.

* * *

إذن، لم تكن هناك دموع، بل كانت المآقي حمراء، جافّة، محترقة. وكان أمامي ذلك الصفّ الطويل...

وقفتُ أنتظر دوري ولا ألتفت حولي، بل أغرز النظرات في نقطة ثابتة أمامي.

كنتُ الشاهد الأخير على احتراق المدينة. لذا لم أتوقّع أن أقابل أي قريب أو صديق عند نقطة الفصل الأخير. وكنت واقفة في مؤخّرة الصفّ الطويل،

أنتظر دوري، وبلوغ شبّاك التذاكر. كان همّي تثبيت اسمي، وإيداع حقيبتي، ثم الإقلاع، وبأسرع ما يمكن، وقبل أن يبدأ الشيطان الرجيم ممارسة هوايته.

* * *

مرهَقةً كنتُ.

خارجة من ألف ليلة سهاد. من تحت ركام الحرائق. من عالم الجنون الحقيقيّ، حيث بات التدمير والقتل، خبزنا اليوميّ الدائم.

مرهَقةٌ هي تلك الأعصاب التي تتلاحم، لكي تجمع هذا الكيان الصغير، والمؤلّف من لحم وعظام... ولا أقول: من دم، لأنّ السائل الحيّ جفّ في العروق، منذ أن انفتَحَت تلك الأقنية في جسم الوطن، وراحت تمتصّه قطرة قطرة.

أنتظر.

وفي الحلق جفاف. وفي العينين فراغ، والقلب لم يَعُد قلبًا ينبض على إيقاع اللحظات، بل عاد كتلة عضليّة، بحجم قبضة اليد؛ وعاد ينطوي بهلع داخل قفصه المظلم.

القلب؟...

كم حمّلناه من شقاء!...

كدتُ أهمس العبارة في أذن السيّدة الواقفة أمامي.

منذ أن بدأتُ الانتظام في الصف، وأنا أتأمّل هذا المشهد الماثل لعينيّ؛ استدارة كتفَيْها، «قفا» رأسها، وطرفَيْ نظّارتَيْها.

* * *

الأمر الأكيد، والذي لا يقبل الجدل، أنّ الجارة أمامي كانت ترتدي نظّارتين. أما وجهها فكان عليّ أن أنتظر فرصة جديدة لأتعرّفه. وأرى نظّارتَيها مواجهة، فأعرف إذا كانتا لردّ حرارة الشمس، والعيون الفضوليّة، أو لمساعدة النظر على استرجاع اعتباره.

و...

استدارَت فجأة، حين نادى أحدهم اسمًا، تبيّن أنّه اسمها: – السيدة حدّاد!...

وهو اسم مألوف في بلدنا. عائلة الحدّادين تنتشر من أرفع قمّة جبليّة، حتى امتداد الساحل...

– سيّدة حدّاد!...

الصوت ينادي من مكان ما، خلْفنا.

تستدير صوبه، وتبتسم. ثمّ تركّز نظّارتَيها. تقول له بإشارة من يدها: – نعم... انتظر لحظة.

لا ينتظر.

يعود صوته يتابع الحديث:

– أرسلتُ الحقيبة. بقي عليك أن تحجزي مقعدك فقط.

– شكرًا.

تتحرّك شفتاها، وأسمع الصوت لأوّل مرّة، فأعود أتأمّل وجهها.

كان الوجه أمامي، مثلما كان الجسم، بطوله الفارع، وبعرضه. وكان شعرها الأشقر، ينسدل على الكتفين، وبالطبع، كانت هناك نظّارتاها.

* * *

– سيّدة حدّاد!؟...

السؤال خرج، هذه المرّة، من بين شفتيّ. وتابعتُ، دون أن أُعطيَها الفرصة كي تردّ على سؤالي: – أهذا أنتِ، سيّدة حدّاد؟

* * *

توقّعتُ منها أن تنفِيَ. أن تقول لي: إنّ الاسم مستعار، وهو يخصّ صديقة لها، وقد استعارَتهُ حجابًا تختفي وراءه. لم تشأ أن يكتشف الرجل حقيقتها.

توقّعتُ منها أن تستفيض بالشرح، مثلما هي طريقتها، فتقول: أجل. إنّه اسم مستعار. اضطرَرتُ إلى استعارته في هذه الأوقات الصعبة. المرء لا يدري مَن يواجهه، مَن يفاجئه عند زاوية أو منعطف، أو عند أحد الحواجز العديدة... لذا أخفَيتُ اسمي الحقيقي، والذي تعرفين وأعرف، أنّه فوق كلّ شفة ولسان، خصوصًا في مطلع الثمانينات، وإثر نجاح برنامجي التلفزيوني المعروف «على دروب النجاح».

تذكرين، قبل خمس سنين.

* * *

توقَّعتُ أن تبادرَني بمثل هذا التعليل، كي تصلَني بما انقطع من أخبارها. لكنّها فاجأَتني بتلك الابتسامة الهادئة، تنتشر من عينيها قبل أن ترتسم فوق الشفتين: – هذا اسمي الحالي.

وبادرتُها بالسؤال:

– تزوَّجتِ، من جديد؟...

هزَّت رأسها وردَّت، وفي رنّة صوتها شكّ التساؤل:

– تزوَّجتُ؟... نعم، يمكن أن تقولي ذلك.

ثمّ استطرَدَت:

– نعم... نعم. تزوَّجتُ. وزوجي من عائلة حدّاد. يُقيم حاليًّا في واشنطن. إنّه مغترب. بدأَت هجرته مع نشوب الحرب العالميّة الأولى.

– إذن، هو رجل ثريّ جدًّا!

قلتُ ذلك، وأنا أقرأ استدارة وجهها... وكان، من قبل وجهًا نحيلًا حادّ التفاصيل... الوجه النموذجيّ للمرأة الذكيّة...

وقلتُ ذلك، وفي خلفية ذهني تتفاعل الخلايا، لتقيسَ الزمن، وتجريَ عملية حسابيّة سريعة، كم يكون الفارق في السنّ، بين لينا، الأربعينيّة، والزوج المهاجر منذ نشوب الحرب العالميّة الأولى؟...

وإذا لم تكن هناك عوامل إغراء ساطعة، كالثروة مثلًا، فما الذي جعل امرأة ذات الشخصية، المتحرّرة، والقويّة، كشخصيّتها... ما الذي جعلها تُقدم على مثل ذلك الزواج؟

وكانت تنهض، في خلايا الذاكرة، صورة أخرى، لزوج آخر، تزامن مع أيام الدراسة. تزوَّجَته، وهي بعد، على مقاعد الجامعة، ثمّ خلفَته، في مكان ما، فوق الدروب الكثيرة التي تجاوَزَتها، وذلك بعدما فشل فشلًا ذريعًا في امتحان التسابق مع الزمن. وتابعَت هي معاركَها مع الحياة، وبكلّ ما أوتِيَت من طاقات وقوًى: كافَحَت بعقلها، بقلبها، بجمال وجهها وجسدها، بسرعة خاطرها، ثمّ بموهبتها الفنّية الآسرة.

وكانت تسطع، في خلفيّة ذهني، صورتها الأخيرة، وقد خرَجَت من تلك المعارك جميعها، مظفّرة، منتصرة، سعيدة و... حرّة.

* * *

– نعم... إنّني اليوم حرّة، مثل رياح السهول...

قالَتها، وهي تتقدّم كي تأخذ مقعدًا إلى المائدة.

وكانت صديقتنا جنان تُقيم مأدبة غداء، على شرف الضيفة المتألّقة لمناسبة صدور كتابها الناجح: «فنّ الإعلام المعاصر».

وسألتُها بحنان، بين الجدّ والدعابة:

– أخبرينا، كيف تكون رياح السهول تلك؟...

فردّت بكلّ الجدّيّة:

– بلا حدود، ولا سدود.

* * *

لكنّ الحدود لم تلبث أن ارتفَعَت من حولها، ومن حولنا جميعًا. وارتسمَت في الأفق، شاراتٌ مظلمةٌ، ولم يعُدِ الصوت يبلغ «صهيله» إلى زوايا الغرفة الموصدة. ولم نعد نسمع في أجواء السهول والجبال، سوى تفجّر القنابل، وزغردة الرصاص.

وتوارى وجهها عنّا. ثم راحَتِ الذاكرة تتقلّص وهي تسجّل أسماء الراحلين إلى دار البقاء، أو ديار الغربة.

وجهها غاب، وفَقَدنا أخبارها. وفشلَتِ المحاولات التلفونيّة لتحديد مكان إقامتها الجديدة.

وصار الزمن يمرّ، ثقيلًا، مشبعًا بالقلق، بالألم، بالدموع والدماء، ومشحونًا بتلك الرغبة الجامحة للانطواء على الذات، حيث باتَت تطيب الإقامة، وتشرق الشمس الوحيدة الباقية... شمس الذات البعيدة الأغوار.

* * *

لكنّها الآن هنا، وإن تبدّلت معالم الاسم.

واغتنمتُها فرصة لوصل ما انقطع بيننا، ومعرفة أخبارها الحاليّة، وما إذا كانت مواظبة على العمل.

– نعم...

ردّت بكلّ تأكيد، ثمّ تابَعَت:

– إنّي أعمل لحساب إحدى دور النشر وعملي يقتصر على الترجمة.

– ولكن...

اعترضَت، وقد عادَت إليّ ظلال الاسم، وتاريخ هجرة الزوج...

– ولكن، زوجك، أَوَليس؟...

قاطعَتني هي، هذه المرّة:

– تقصدين السؤال عن مكانته الماليّة... عن ثروته وحصّتي منها. هذا ما يسأله الجميع. خصوصًا حين يعرفون الفارق في السنّ...

لا، ليس كما تعتقدين...

قالت ذلك، وانفجرت ضاحكة.

وقلّصَت ضحكتُها فضولي، خصوصًا حين تسرّبَت من ثناياها روح السخرية. فتراجعتُ إلى صمتي، ونقطة وقوفي في صفّ الانتظار. لكنّها لم تلبث أن مدَّت يدها، كي تنتشلني من قلق الخيبة: – لا تسيئي فهمي. لم أقصد السخرية، إنّما تلك طبيعة الأمور.

لبثَت صامتة، فشجّعها صمتي على المضي في الكلام:

– أرجوكِ، لا تقاطعيني. استمعي، وسجّلي، فقط. وحين أنتهي أكون قد بلّغتُكِ حكاية مئات، بل ألوف التائهين في الأرض؛ المشرّدين عن أوطانهم، المجرّدين من كلّ حسّ بالكرامة.

لا حاجة إلى أن اشرح لك كيف فقدتُ عملي. تعلمين كيف ارتفَعَت جبال الرمال والحقد في وجه «الرياح»، وتحوّل «الصهيل» إلى «عواء» واحتجزِتِ الرياح في أضيق الزوايا. وكان عليّ أن أستمرّ في عمل يؤمّن لي لقمة العيش دون سفك الحريّة كثمن بديل. وقد وجدتُ، عبر إحدى المؤسّسات، عملًا أغراني، وإنّما كان مشروطًا بنجاحي في الحصول على جنسيّة البلاد. وهذا لا يتوفّر بالسرعة المرجوّة، إلّا في حال اقتراني بمواطن يسجّلني على اسمه، وهويّته.

وبما أنّي لم أكن مستعدّة للزواج؛ وبما أنّه لم يكن هناك مَن يتهالك على الاقتران بامرأة، في منتصف عمرها، مهجّرة من ديارها، فاقدة الأهل والوطن، وبقيّة أسباب العيش... لذا، كان تحقيق مثل ذلك الزواج، مستحيلًا.

ثمّ جاءت تلك الصديقة، وأخبرَتني عن أسلوب جديد يلجأ إليه المهاجرون أمثالي في أميركا؛ ألا وهو الزواج الاسميّ، أو الصّوَريّ، في سبيل الحصول على تلك الورقة – الجنسيّة. وتطوّعَت هي للبحث عن مرشّح يكفلني، ويفكّ

«حكلتي». وقد عثرتُ عليه في شخص ذلك الرجل الطيّب: سيمون حداد، والذي تزامنت هجرته مع نشوب الحرب العالميّة الأولى. وكان يومها شابًّا فقيرًا ونشيطًا؛ فراح يعمل مثل سواه من المغتربين، بائعًا متجوّلًا، يحمل «الكشّة» ويطوف بين القرى والمزارع، يبيع الثياب، ويجمع الدرهم إلى الدرهم، حتّى جمع ثروة «لا تأكلها النيران»... قد تزوّج الرجل، وأنجب، وكبر الأولاد، وتزوّجوا وتفرّقوا. ورحلت الزوجة إلى دار البقاء وبقي هو، يداري آلام القلب في وحدة قاتلة، يحيط به جمهور من الخدم والممرّضين.

هذا الرجل، الذي يبلغ اليوم العقد التاسع من عمره، قَبِلَ بي زوجة، شرط ألّا أطالبه بالميراث، ورضيتُ به زوجًا، شرط أن انفصل عنه، بعد حصولي على الجنسيّة. ونحن الآن في حالة انتظار.

* * *

صمتَت لينا. وتجمّدَتِ الكلمات فوق شفتيّ. لم أدرِ ماذا أقول أو أفعل؟ وتساءَلتُ إذا كانت تلك حكاية حقيقية، أو إنّها من ابتكار خيالها الشاسع، والذي تمرّس بكلّ ألوان الإبداع.

وربما لاحظَت هي حيرتي، ووقوفي أمامها على الحدّ الفاصل بين الشكّ واليقين، فعادت تضيف: – لا... لا تسيئي فهمي، لم أفعل ما هو مخلّ بقوانين البلاد. لقد سجّل عقد الزواج حسب القوانين المرعية الإجراء... سجّلَته سيّدة قانون متمرّسة في عملها، وتتابع أحداث لبنان منذ اندلاع الشرارة الأولى.

تلك السيّدة الجليلة تأمَّلَتني طويلًا، قبل أن تختم الأوراق، وتمهرها بالتوقيع الأخير، ثمّ سمعتُها تُتَمْتِم، وكأنّها تحادث نفسها: – قلتِ إنّ عودتك إلى بلادك، باتت مستحيلة... أعرف... أعرف مذاق الحروب. إنّه مرّ في كلّ الحالات... فقدتُ أخي الوحيد في حرب كوريا وابني في حرب فييتنام. والآن لم أعد مستعدّة لأدفع نفسًا بشرية إلى القتل...

ومع تلك الكلمة، كانت تضع التوقيع الأخير على وثيقة الزواج.

بيروت 1986

إلى منى مثل ما كنّا

أُمسك بيدِكِ، فتتشابك أناملكِ الدقيقة الطريئة بأصابعي الغليظة، الطالعة من بين غابات البطم والسنديان. ويتسرّب عبر المسامّ ذلك النسغُ الخفيُّ، ينقل إليك دفء كياني. ويُزهر الفرح في عينيك البريئتين وتقفزين على رصيف البحر الأزرق، بينما تومىء يدك الحرّة صوب الأفق، وتتأتىء شفتاك:

– طيور البحر...

وكأنّي بالنورس سمع صدى صوتكِ، وحسِبَه النداء؛ فراح يقترب من الشاطىء، ومن مكان وقوفنا... وظلّت عيناك تلاحقان تعرّج مسلكه الفضائيّ. وحين بات على بُعد أمتار، غطّ فوق صفحة الماء لينتشل سمكة صغيرة، غبيّة، ومزهوّة، جذَبَتها أنوار الفضاء.

وحين استعاد النورس توازنه، راح يرفّ ويبتعد... وتابَعنا معًا مسيرنا بهدوء وطمأنينة.

* * *

في تلك الصبيحة الهادئة، أبصَرنا جماعات من الناس، من الكبار والصغار، الأمّهات والعجائز والأطفال. كانوا يتنزّهون فوق الرصيف المنفتح كذراعَي حبيب، يستقبل الوجوه بالترحاب، ويحملها فوق ظهره المرصّص المتين، الصامد، كي تعبّ الفرح والنشوة، من امتزاج زرقة البحر بزرقة الفضاء.

* * *

في تلك الصبيحة، كما في الأيّام التي بعدها، وبعدها، كنّا نخرج، نتمشّى قرب البحر، وتقابلنا وجوه أَلِفناها، فنتبادل معها التحيّات دون كلام؛ كان هناك شبه

تفاهم صامت على هدف مشترك.

ورُحتِ تكبرين، وبدأَت أناملك الدقيقة اللطيفة تنفصل عن غلاظة أصابعي. وصرتُ أقف من بعيد، أراقبك تقفزين، أحيانًا، كما يقفز العصفور الدوريّ، أو تنطّين، مثلما يفعل الأرانب في سكينة البراري. وبيننا تمتدّ حبال الزمن، وقد نشرَت فوقها فقاقيع ملوّنة؛ أيام مشاركتنا الحياة السعيدة الهانئة.

* * *

في بعض الأحيان كنتِ تتمهّلين في مشيتك، حين تصادفين أولادًا في مثل سنّك؛ تتأمّلينهم، أو تبتسمين، وتتبادلين معهم الكلام... ثمّ لا يلبث أن يحدث المنتظَر: تدخلين عالمهم وتنسين أنّه في مكان ما، في نقطة خلفيّة، شخص آخر، يترقّبك؛ حتّى إذا نبّهكِ صوت أو إشارة، عدتِ إليّ لتجدي ذراعَيّ ترتعشان شوقًا لاحتضانك.

* * *

في بعض الحالات، كنتِ تكتفين بالجلوس على واحد من المقاعد الحجريّة، وقد تدلَّت ساقاك في محاولة فاشلة لبلوغ الرصيف...

وكنّا نتسلّى بالأحاديث؛ أسئلة منكِ وأجوبة مني. أو نتبادل الأدوار، فأسألكِ وأنتِ تُجيبين. وتنقلني كلماتكِ إلى عوالم الغرابة والدهشة، حيث يُقيم الصغار، في جزر من بلور، تُحيط بهم غابات خيالهم الجامح.

وأحاول جهدي كي أدخل تلك العوالم، وأبقى عاجزة حتى عن اجتياز العتبة، فكيف ببلوغ الداخل؟...

وكأنّما ذلك العالم السحريّ المرصود، محظور على الكبار، وينفتح فقط لرفيف أجنحة الصغار.

أذكر، من بعض أحاديثنا، سؤالًا طرحتُه عليكِ:

– إذا عُدتُ طفلة مثلك، فهل يُسمح لي بالدخول؟

راحت عيناك تتأمّلانني بدهشة وارتباك، وبكثير من الشكّ ردّت شفتاك:

– إذا...

ثمّ استطرَدتِ، وكأنّك تنتشلين ذاتك من السقوط في الخطأ:

– لكنّ الكبار لا يعودون صغارًا.

قلتُ، متابعةً اللعبة:

– إذا كان الصغار يكبرون، فلماذا لا يعود الكبار إلى أصلهم... وقد كانوا من قبل صغارًا؟...

وأجبتِ دون تردّد:

– لأنّهم خرجوا من اللعبة...

* * *

في بعض الأحيان، كانت الشمس ترحل عن الشاطىء، مخلّفة لنا مظلّة من الغمام الرماديّ، تمتدّ من تلاحُمِ الموج بالمدى الأزرق، صعودًا إلى حيث يزوغ النظر. وكنا نسير في الضباب، نسترق السمع إلى ما تهمسه الأمواج لكلّ ما يلامس وجهها مداعبًا، أو يُقبّل ثغرها لاهيًا... حتّى إذا استحال الهمس صراخًا وعويلًا، عُدنا نختبىء خلف النافذة الزجاجيّة، ونتأمّل كيف سيطبَّق التهديد والوعيد.

* * *

في ذلك الزمان البعيد، كنتِ أنت طفلتي الصغيرة، وكنتُ أنا أمّك... ثم اقتلعتِ خطواتِكِ من فوق رصيف قلبي، وحلَّقتِ.

لم أدرِ بأنّك كنت، بين رفيف الأهداب وخفقان اللحظات، تتعلّمين كيف يحلّق النورس، وبأنّكِ كنتِ في السرّ، تختلسين مهاراتك، بينما أتابع، بكثير من الغباء والاستسلام والنشوة، تأمّل خيالك، وقفز قدميك بين أهدابي.

وفي لحظة من لحظات الاستسلام إلى طمأنينة القلب الخادعة، انسحبتِ وكأنّما نقلاتك الصغيرة كبرت فجأة، وباتَت خطوات عملاقة.

وتمدَّدَتِ الأنامل التي كان نسغ حبّي ودفء كياني، يتسرّبان إليها...

تمدّدَت، وفكَّت ارتباطها. وتحوّلَتِ الذراعان إلى جناحَيٍ نورس قويّ، وحلَّقتِ في رحاب الفضاء... في الكون الشاسع اللامحدود.

والآن، عُدتُ من رحلتي المُضنِية لأرتاح من عناء مطاردتكِ؛ وها إني جالسة على المقعد الحجريّ، فوق الرصيف المحاذي للبحر...

عبثًا بحثتُ عن النورس... عبثًا بحثتُ عن النور.

تلك الغمامة الرماديّة تغلّف الشرفات، وتنحدر، فتلفّ زرقة البحر، وتُخرس قهقهة الأمواج.

قلتُ: إنّه الخريف. وهذا المشهد طبيعيّ، فلماذا أحاول اختراقه، وشقّ الصفحة الهادئة؟

قلتُ: إنّها غمامة الخريف، تداعب صفحة البحر، ولن تلبث أن تنقشع، ثمّ تعود الصفحة الزرقاء ترتعش بلذّة، وهي تخضع لمداعبة النسائم الخفيّة.

وقلتُ: إنّه شعور وقتيّ، لن يلبث أن يتلاشى، وتعود الفرحة ترقص في شغاف القلب، وفي أعماق العينين، وهما تُبصرانك تركضين وتقفزين... وأنا أركض خلفك، بكلّ ما أوتيتُ من قوة ونشاط. ويسبقني إليكِ صوتي كي يتلقّاك إذا تعثّرت.

قلتُ لنفسي وأنا أهدهدُها محاوِلةً إخراجَها من قلقها المضني: سنعود. مثلما كنّا. ومثلما كان كلّ شيء، في ماضي الأشياء. سنعود. وتعودين أنت، صغيرتي الحلوة، التي تشبك أناملها المخمليّة، بغلاظة أصابعي الجبليّة... ونجري معًا، بمحاذاة البحر، في مواجهة الجبل، فوق هذا الرصيف المدبّب، الصامد.

لكنّ الشكّ الناهض من نقطة انبلاج الحقيقة، يقف كالحربة، في حلقي، ثمّ يتحوّل إلى صرخة تدكّ أسوار الحلم، وتزلزل جبال الوهم...

وأُبصركِ، في حقيقتكِ الجديدة، صبيّة، مثل قلب النهار...

أنتِ لستِ النورس، ولم تعودي طفلة تقفز، وأنا في أعقابها.

وأحاديث الطفولة ظلّت معلّقة فوق الحبال الخفيّة. وأحيانًا ألمحها تتحرّك وترتعش مثلما ترتعش أوراق الشجر حين تداعبها رياح الذكريات.

* * *

وأحاول الآن، أن أقطف بعضًا من تلك الأحاديث، كي أضعها في غلاف أُحكِمُ إقفالُه، وأرسله إليكِ.

قلتُ لنفسي: تمهّلي بالسير في محاذاة الرصيف، وأَصغي جيّدًا؛ ربما حفظَ الموج ما شردَ من ثقوب الذاكرة. أو ربّما وجدتِ صورة سرقها النورس بمنقاره، وخبّأها في كهف من الكهوف الخفيّة، بين نخاريب الصخور.

قلتُ ذلك كلّه، لأسكّن هذا القلق العاصف، المزلزل، ولكي أملأ هذا الفراغ العميق، «البلا» قاع...

يا صغيرتي الكبيرة: إنّك تتابعين مسيرتك، فرحلتك لم تنقطع.

قفزتُ من فوق الرصيف البحريّ. امتطَيتُ متن النورس (أو متن الطائرة، لا فرق... بالنسبة إليّ، كان هناك تحليق أبعَدكِ عني. انتزَعكِ من حضني، وأنت في طور الزغب، ولم يقسُ الريش في جناحَيكِ).

لم تختاري بُعدَكِ، ولم أختَره أنا. أملَته إرادة خارجيّة أقوى منّا جميعًا.

وحين أبصرتك تُرَهونين، فوق امتداد السهول الخضراء، في تلك القارّة البعيدة، وقد استبدَلتِ رصيف بحرنا الدافىء بذلك الشاطىء المحاذي لحدود القطب الشماليّ، لم أتمالك نفسي من البكاء.

بكيتُ كثيرًا، مذ فارقتُكِ... لا شفقة على نفسي، بل لأنّ الانفصال كان الحدث الفجائيّ الذي لم أعدّ له، ولم أحسب الحساب.

ولأنّ... العصفورة لا تدفع زغاليلها، من فوق الغصن، ومن دفء العشّ الصغير، كي يتعلّموا الطيران والتحليق، إلّا بعدما تتأكّد من أنّ الزغب في الجناحين قد استكمل نموّه، وقسا عوده، وبات قادرًا على حملهم إلى بُعد أقدارهم.

لم تكن تلك حالي معكِ. لذا عدتُ الآن كي أسير فوق رصيف أيّامنا الماضية، أفكّر فيك، أحلم بك، أتحدّث إليك وأقول: قد أستعيدكِ في يوم. حين يهدأ غليان القدَر، وتحطّ القافلة رحالها... حين ترقد ثورة البركان. أستعيدكِ أنتِ، مع أغمارٍ من زهور، وسلالٍ من ثمار، جنيتُها وأنت تتابعين الرحيل، واكتشاف عوالم جديدة، تنفتح أمامكِ، وتستقبلكِ، وتدعوكِ لتغرفي من جوهرها، وأصالتها. لكنّ الذي أجهله هو: كيف ستكون تلك العودة؟

ومتى؟... أجل، متى موعدها؟...

وبينما أنتظر الجواب، يا صغيرتي التي كبرَت فجأة؛ تريننني أتابع مسيري بمحاذاة الشاطىء، في صبح الأيام، والأمسيات. وها أنا الآن، فوق الرصيف الذي تعهدين، وقد هبط المساء بجيوشه الغامضة، وهجر المتنزّهون شاطئهم، ونزحت الشمس من الأفق، ومعها ارتحَلَت أسراب النورس، ولم يعد هناك جسم يتحرّك أو يميل، سوى تلك الرعشات بين أغصان الشجر، وبعض تململ فوق الصفحة الصامتة صمت مَن يستسيغ اجترار الذكريات.

* * *

وفيما كنتُ أهمّ باقتفاء آثار القافلة، كي أرحل، بدوري، مع الراحلين، أبصرتُك تحضرين. فجأة، أنتِ هنا. تمامًا مثلما كنتِ معي، في نزهاتنا الماضية... وتمتدّ يدي كي تمسك بيدك، وتتشابك أناملك الطريئة بغلاظة أصابعي، وتقفز خطواتك قفزًا مرحًا، وأنت تهمّين بمطاردة طائر تخلّف عن سربه، ودَهَمَته ظلمة المساء.

ولا نلبث أن نكتشف، معًا بأنّ الظلام ليس عائقًا. والطائر يرفّ بجناحيه، وبكثير من الجهد والسعي؛ فهو مؤمن بأنّه سيبلغ محطّة الرفاق. ومع رفيف جناحيه، أسمع صدى عبارة، باتت، بالنسبة إليّ، تعويذة تردّ عنّي الضيم... بل هي صلاة جديدة، ترسمها شفتاي، على صفحة الوجود:

مثلما كنّا... في الماضي، تمامًا، أيّام كنتِ، صغيرتي الكبيرة.

بيروت 1986

قطرة مطر

جاءَتني دعوتها قبل دقائق من بدء الاحتفال:

– أريدكِ أن تحضري حفلة موسيقيّة.

وحين لاحظَتِ التساؤل في عيني أضافت:

– ذلك إذا شئتِ الحضور. سوف أعزف مقطوعة صغيرة.

سألتُها:

– لماذا لم تُعلميني من قبل؟ لماذا لم تستعدّي؟ لم تحضّري ثوبًا لائقًا بالمناسبة و...

اقتربَت تغمرني ماسحةً قلقي بابتسامتها الهادئة:

– الأمر لا يستحقّ هذا التعقيد. إنّها حفلة مدرسيّة بسيطة نختم بها الفصل الدراسيّ الأوّل. وقد اختار كلّ من الطلبة، بإرشاد الأساتذة، قطعة على مستوى تحصيله.

الفكرة ليست جديدة عليّ؛ فقد سبق لي أن حضرتُ حفلاتها الماضية، حين كانت بقربي، أرافق نموّها خطوة خطوة. إنّما الجديد هو المكان، والجو المثلج، وهذا الهدوء، والبياض يغمر الأرض والمياه والشجر. والرياح تهبّ من الشمال، من أقاصيه المجهولة حاملة رسائل التهديد. نافخة بكلّ الأبواق، مذرية ملح القطب الجليديّ.

والجديد هو هذه الوجوه الغريبة المحيطة بنا، والرؤوس تنتصب متباعدة، متحايدة، وقد غابت عنها خيوط أنس وألفة، تشدّ الإنسان إلى الإنسان، ثمّ تنحدر بهما معًا، لتربطهما بجذور خفيّة في الزمان وفي المكان.

والمكان غريب...
كذلك الزمان.
وكذلك، كذلك الإنسان.
رأسها وحده يشمخ في عيني: قامة منتصبة بثقة، ناهضة، مقاوِمة، مناضِلة، متحدّية.
عيناها السوداوان الجميلتان، ابتسامتها البيضاء العذبة، وشعرها الليلي مضفورًا ضفيرة شرقيّة تنسدل من قمّة الرأس لترتاح بين الكتفين.
أخذَت مكانها في المقعد المخصّص لها. وظلَّت نظراتي تواكب تطلّعاتها. هادئة تجلس. واثقة من نفسها، ممتلئة نعمة وفرحًا وبهاء... ممتلئة تجربة. حاملة من خلفيّات الوطن، ومن تلك الرقعة الصغيرة – الكبيرة – في الكون، حاملة زاد العمر.
لم يكن يلاحظها أحد سواي؛ فهي رقم في جملة الأرقام المرشّحة للعزف... واحدة في جمهور كبير وغريب.
قُبَيْل البدء بالعزف، قالت لي بلامبالاة:
– سأكون الرقم الأخير على اللائحة.
وصمتَت، تنتظر جوابي، مثلما هو شأنها حين تدلي بملاحظات عابرة أو مهمّة... توجّه إليّ نظراتها بصمت، وكأنّها تقيس، وبآلة خفية، ردود فعلي. وكان ذلك يُفرحني في الماضي، وهي طفلة صغيرة، إذ يُبقي الشعلة متّقدة والتيار الداخليّ في حوار متواصل. ثمّ جاء يوم بتّ فيه أخشى هذه القربى، وأسعى إلى تمرين الطرفين، على شيء من التباعد، خوفًا عليها... فالوقت حرب، وكلّ الاحتمالات ترِدُ في الحساب، وقد يحدث أمر يُبعدني عنها فجأة و...

* * *

حَدَثَ البعد...
سقَطَت علينا لعنة الحروب المتعاقبة، وراحت الرياح تذري، وتفرّق، وتقتلع الكيان من أعماق الجذور، وتفتح الأعين على واقع جديد، وتدفعنا إلى الخيارات الصعبة.
واخترنا لها المكان البعيد للدراسة. ولكي تنمو، مستقلّة، وتواجه العالم بإمكاناتها، وبما زوّدتها به أعوامها الغضّة، ومدرستها الأولى، وأرضها الدافئة

و...

نظراتها لا تزال مسلّطة عليّ.

هذه هي طفلتي، تلاحق الموضوع حتى أقصى مداه. أجابَتها ابتسامتي:

– وعزفك، عندئذ، يكون مسك الختام.

أطلقتُ ملاحظتي من قبيل المجاملة، ومن خلفيّات التقاليد. ولم أنتبه، أنا «المرتى» الغبيّة والمنهمكة بأمور كثيرة – لم أنتبه إلى أنّها كانت تودع في سمعي كلمة السر.

* * *

وبدأتِ الحفلة.

وأخذ المرشّحون يتقدّمون: الصغار أوّلًا. ثمّ راحت القامات ترتفع، وتسارعَت دقات قلبي.

لم يكن هناك سبب موجب لأن يُرسل القلب ضرباته الهادرة تلك؛ فالجوّ هادىء، والقاعة مبطّنة بالخشب والرسوم الجميلة... القاعة دافئة، ترقص فيها الأضواء، فتمسح من البال، وبأسرع مما يتوقّع الوعي، صورة لرقع بيضاء؛ تتراقص في الخارج على إيقاع الرياح الشماليّة.

إنّها العاصفة الثالثة في شهر «نوفمبر»...

إنّها الرسالة الثالثة على لائحة التبليغ. والقاعة الداخليّة هادئة. أنوارها ساطعة سخيّة، والناس يترقّبون.

وبدأت الأسماء تتكرّر، ومعها الأنغام و... فترات التصفيق.

* * *

وتتكرّر الأسماء غريبة، حياديّة. تنزلق على طبلة الأذن، ومساحة الوعي. ولا يبقى منها سوى أصداء النغم الأخير.

ثمّ يأتي اسمها.

تُرسله الأستاذة بلغتها الغريبة.

واسمها يملأ الأذن والقلب معًا، ويوقظ الأحلام والأماني. يُعيدني من رحلة الذكريات، لترافقها عيناي، وصلاة تتردّد في السر.

تسير بهدوء وثقة.

المساحة بين مقعدها والبيانو، ليست مساحة. هي بضع خطوات. لكنّ الذي يقيسه الوعي النابض أبدًا، هو تلك المساحة الفاصلة بين هذا «البيانو» الذي يستقبل أناملها في قاعة بعيدة من شمال كندا، وذلك الصغير، المنتظر في زاوية غرفتها... والمنتظر بصبر وإيمان، حاملًا آلامه، وآثار الحروب الشرسة.

* * *

إنّها مسافة شاسعة، تجتازها ابنة السابعة عشرة، لتجلس فوق المقعد.

بصمت تجلس، وتستعدّ.

الأستاذة تقترب منها، ويتهيّأ الجمهور. هدوء يرفّ فوق القاعة مع لفظ اسمها، مرفقًا باسم المقطوعة ومؤلّفها: «شوبان».

«منى» تعزف «قطرة مطر» لشوبان. تقدّمها لهؤلاء الغرباء، الحياديّين الطيّبين... سكّان الجزيرة البعيدة في شمال كندا.

وبدأ شوبان...

العزف والدموع.

أناملها الدقيقة تنقرُ أضلاع البيانو. رأسها يحافظ على شمخته، ووجهها الرزين متّجه إلى الأمام. وعيناها تغرقان في لهب الحماسة.

قطرة مطر تسيل من عيني، وتتحوّل إلى تيار زاخر، وإلى جرف يبدأ من نقطة أعرف مصدرها ولا أعلم أين تصبّ.

وأناملها تعالج أضلاع الآلة الموسيقيّة. وينطلق شوبان من بين النوتات ودفّتَيِ الكتاب. يروي للسامعين حكاية قطرة مطر، نقرت ذات ليلة زجاج نافذته، وردّته على إيقاعها، إلى مراتع دفء وأمان انسحب منها قسرًا.

وقطرة المطر تروي عنه حكاية العذاب في البُعد عن مراتع الطفولة، وحكاية الاغتراب، والجرح المفتوح حتّى آخر الزمان.

أناملها خبِرَت هذه الآلة الموسيقية وتألّقت معها. بدأت حوارًا عمره عشر سنين، في مدينة العزّ والبهاء: بيروت.

والقاعة هادئة إلّا من النغم وأصدائه. حتى الصغار يصغون بخشوع. أللموسيقى سحرها وسطوتها... أم إنّه الشيء الآخر؟...

أظنّه الشيء الآخر، يخرج من بين الأنغام، ويرتفع فوق الرؤوس حتى يلامس القبّة. وهو الشيء الذي أخفَته الطفلة، وحملَته طيّ الضلوع سنوات... وقد

دفعها اليوم لتختار شوبان وتعزف معه «قطرة مطر».

تراها كانت واعية معنى الاختيار؟

هل أدركَت بالحدس، والصلة التي تربط بيننا، كيف سيكون وقع النغم عليّ، فحذّرَتني سلفًا، وأرسلَت الاشارة – الرمز – مثل إنذار يسبق الانفجار؟... أو إنّها المصادفة... مجرّد مصادفة، وتوارد أنغام؟...

الأسئلة تنهمر من كوّة انفتحت في الوعي، ولم أعد أقوى على سدّها. ذلك لأنّ الجرف الخارجيّ عتيّ، والطاقة الداخليّة ضعيفة، والإنسان مسحوق، والكيان مجهد من طول صبر ومقاومة.

* * *

همستُ في أذنها وأنا أغمرها والصالة تميد بالتصفيق:

– كان عليكِ أن تبدّلي العنوان.

سألَتني بدهشة:

– لماذا؟

قلتُ:

– انسجامًا مع المناخ. كان يجب أن تحوّلي التسمية لتصبح «رقعة ثلج»... «رشّة ملح جليديّ» أو أيّ شيء يتلاءم مع مزاج الطبيعة هذا النهار.

لم تفُتها الدعابة، وقد اعتمدتُها لأُخفِيَ الوجه الآخر، وبقايا دموع في عينيّ... وحتى لا تلاحظ بأنّ قطرة المطر خرجت من بين تموّجات النغم الموسيقيّ، لتتغلغل حتى الأعماق، ثمّ تعود فتطفر من العينين...

قطرة مطر شوبان...

* * *

غادرتُ القاعة قبلها. ووقَفتُ في مواجهة اللوحة البيضاء في الخارج، بينما تريّثَت هي مع المهنّئين الذين تجمّعوا حول صغيرتي يسألونها:

– متى بدأَتِ العزف؟... وهل هي طالبة فنون؟ ومن كانت أستاذتها الأولى؟...

وأسئلة تنهمر، وتحيط بها. وهي تردّ بجدّ وإخلاص، محتفظة بهدوئها وابتسامتها. وأنا خارج القاعة، واقفة خلف الزجاج، أتأمّل رقع الثلج، أسراب

الفراش المذعور. ملح السماء تذرّه فوق الأرض. ثم تلحقه برياح تنشره في كلّ الجهات.

* * *

انتظرتُها. لنخرج معًا قبل الاستسلام لتيّار الذكريات. فالوقت لا يتّسع للدموع أو التأمّلات. إنّه يجري أسرع من العاصفة في الخارج. ويطالبها بالعودة إلى الجامعة. وإلى الغرق في برنامج الدراسة العلميّة.

كذلك لا يسمح لنا الزمان بأن نطيل الوقوف أمام هبوب الرياح...

فالرياح الشماليّة ستظل تهبّ، وتحمل معها الجليد وجبال الثلج، لأنّ ذلك من طبعها. ولأنّ الثلج هنا، وفي كل مكان، خميرة الأرض وبركتها.

هذا ما تعلّمتُه باكرًا في الحياة. ومن الجدّة، رحم الله ثراها. ثمّ قُدّر لي أن أزور هذه البقعة من الوجود لأتعلّم دروسًا جديدة ومتقدّمة في الطبيعة وأسرارها، وأكتشف أنّ الثلج هنا، ليس الخميرة وحسب، بل هو مصدر دفء للناس، مثلما هو للأرض والحيوانات والأشجار.

– الحمدلله على نعمة الثلج.

تؤكّد لي الصديقة المغتربة بكلّ إخلاص... تقول إنّها النعمة الحقيقيّة. والطبيعة عدالة؛ لم تخلق شيئًا إلّا ووجدَت ما يوازيه. وهذه الرياح العاتية، مَن يمكنه مواجهتها وتحدّيها سوى كثافة الثلوج؟... تهبط كالرحمة، فتغلّف المساكن، تُحيط بأسس البيوت، بجذوع الشجر. تحمي الجذوع والجذور. تحفظ الدفء الخزين في جوف الأرض، وتغلّف مداخل الكهوف كي يتسنّى لحيوانات الخدر أن تهنأ بنومها العميق.

والناس في أقاصي الشمال، يحفون الثلج، وفي قلبه يبنون مساكنهم. أَوَلَم تسمعي بسكّان الشمال وبيوتهم العجيبة؟...

كلام الصديقة مسح قلقًا من العينين، وأزال سوء فهم لدى المواجهة الأولى مع الطبيعة في أوج غضبها.

ولكن مَن يمكنه أن يتغلغل إلى الثنايا الخفيّة، ويمسح قلقًا دفينًا بين الضلوع؟... مَن يقوى على إزالة خوف يحتمي بين تجاويف القلب؟...

* * *

أعود إليها.

أبصرها واقفة تنتظر، وقد تدثَّرت بالمعطف الثقيل؛ ولفّت الرأس والأذنين بقبعة صوف واقية، وأحكمت ربط سيور الجزمة وباتت مستعدّة:

– عليّ أن أعود إلى الجامعة قبل الساعة السادسة؛ أي بعد دقائق من الآن. غدًا يبدأ امتحان نهاية الفصل.

* * *

غابَتِ الأنغام.

تركت شوبان غافيًا في قاعة مبطّنة بالدفء والخشب واللوحات الجميلة. وهي حاضرة لمواجهة الواقع.

وكان يمكن صغيرتي أن تتابع امتحانها النهائيّ في مناخ دافىء، حيث لا تذرّي الرياح ملح السماء للأرض. وحيث لا تهجر الروح جسدها، في الليالي الموحشة، وكأنّها الرأس انفصل عن بقيّة الكيان وأضاع مسنده...

كان ذلك ممكنًا لو...

من جديد أتجاوز الوقوف على أطلال الأمس. وإذا ما تداخَلَت عناصر الماضي بين الأحرف ومخارجها، فلأنّها باتت سدوة الكيان ولحمته. ولأنّها الجزء الذي يستحيل نزعه وطرحه في البحر. فهو بطانة الوعي، والضيف المقيم في أعمق الأعماق.

وصغيرتي الحلوة تؤجّل الالتفات إلى الوراء. وتعرف أنّ مستقبلها ينتظر عند محطة، تبحث عنها عيناها بدهشة وشوق.

صوب تلك المحطة تسعى برضى وواقعيّة؛ تعرف أنّها هنا من أجل تحصيل العلم. وخلفها أرض تفتقدها. ورفاق ينتظرون. وبيت تحمله في تضاريس القلب، وتذكّر به النفس، في كلّ لحظة، وتعلن للآخرين بأنّها عائدة، حالما تُنهي دراستها، لتحمل إلى الوطن زادًا لائقًا، يمكّنها من بلسمة بعض الجراح. وتحمل إليه، في صمت الأعماق، حبّها الصافي الكبير.

* * *

تودّعني الأستاذة بكلمات مختصرة، إنّما تنقل إليّ الكثير من المعاني:

– العمل مع منى متعة حقيقية. وجوابي لها ابتسامة، ترتفع جدارًا بين الصفحة الخارجية، وما يختبىء خلفها.

لو اقتربت تلك السيدة أكثر... لو مدّت يدها إلى حدود الجرح المفتوح، لسمعَت صراخ الأعماق، وأبصرَت الوجوه تتلاحق والأحداث. وربما طلع من الزحام، وجه يقف قبالتها، ليشرح لها ما أعجز أنا عن تفصيله... وهو وجه أستاذة موسيقى، مثلها، تقاوم منذ اثنتي عشرة سنة، كلّ ما تفرزه الحروب من بشاعات، مستخدمة أناملها النحيلة، ونغم آلتها الموسيقية، ونورًا تغرسه في عيون طلّابها.

* * *

انتهَتِ الحفلة، وتفرَّقَ الجمهور، وأُغلِقَت أبواب القاعة، ليبقى الدفء في الداخل، وربما اللحن والنغم. وخرَجنا نسير تحت رحمة الملح السماويّ تذرّيه في وجوهنا عاصفة عتيّة.

– إلى متى تدوم العاصفة؟

أسأل رفيقتي ولا أنتظر الجواب. شئتُ الكلمات مدخلًا إلى صفحة جديدة، وإلى فكرة جديدة. لكنّ الرفيقة الطيّبة لا تترك المناسبة تمرّ، فتتابع تلقيني درس «ألف باء» في مزاج القطب الشماليّ:

– حسب نشرات الطقس، والتي تصدر منها واحدة كلّ بضع دقائق، نتوقّع أن تستمرّ هذه العاصفة ثلاثة أو أربعة أيّام ثمّ...

قاطَعتُها بنبرة عابثة:

– ثمّ تشرق الشمس. وينجلي الضباب، وتصدح الطيور، وتطلّ الأزهار من مخابئها، وتعود توزّع بسماتها الملوّنة على الكون...

ردَّت متجاهلة عبَثي:

– لا تستغربي ولا تدهشي، سوف تشرق الشمس، وتطلّ السماء نقيّة الزرقة. إنّما لن تبصري الزهور، أو تسمعي زقزقة الطيور. ثمّ اسمحي لي أن أهمس لك بهذا السرّ الصغير...

– وما هو السرّ؟

سألت بجدّ، فقالَت:

– ما نتوقّع حصوله في أيّام الشروق ونقاوة الفضاء.

– لم أفهم.

قلتُها بإخلاص. وقد بدأ كلامها يُثير فضولي، فتابعت:

– طبعًا، لن تفهمي. ويعوزكِ العيش هنا سنة، بعد سنة، لكي تتعلّمي الأحرف الأولى من أحوال الطبيعة... ويا عزيزتي، لا يغرّنّك شروق الشمس، فالذي يحصل في أيّام الصحو، يجعلنا نصلّي من أجل المطر والثلج؛ إذ تهبط الحرارة إلى العشرين أو الثلاثين تحت الصفر، ويتحوّل كلّ مغرز إبرة في جسد الأرض، إلى صفحة جليديّة. حتّى الهواء، يقف حبالًا في الجو. نعم، حين يحدث هذا، تترحّمين على الثلج، وتصدّقين قولي إنّه مصدر للدفء، وعازل منيع من قسوة الرياح الغاضبة.

طأطَأتُ الرأس، وبكثير من التواضع قلتُ:

– يقضي المرء عمره كلّه، في البلد الغريب، ويبقى عاجزًا عن فهم الطبيعة، وما تحويه من مخلوقات. كلّ الحق معك، يا سيّدتي...

وتابعَت شرحها:

– كيف يمكنك أن تفهمي، أو تصدّقي بأنّنا نصلّي من أجل هطول الثلج، وعودة الغيوم لتغلّف الصفحة الزرقاء؟... كيف لك أن تقبلي هذه المعادلة المعكوسة، أنت، القادمة من مناخ المعادلات السهلة؟...

وفي الجزء الأخير من الحوار بقيتُ مستسلمة، موافِقة. فلتبقَ الصديقة ساذجة، تعدّ أرضنا منطقة المعادلات السهلة. ولتسقط بقية الكلمات في دهاليز الذاكرة. فإذا كان على المرء، حسب تقديرها، أن يقضي سنوات عديدة ليفهم مزاج الطبيعة هنا، فكم جيل وجيل، على ذلك المرء (أو المرأة) أن يقضِيَ ويعيش ليفهم معادلاتنا «البسيطة»؟...

لم أسألها. لم أقل كلمة من سرّنا المذاع، والمرفوض إطلاقًا، إذ لا يدخل في حساب الدماغ الإلكترونيّ. وبدل أن أعترضها تابعتُ باستسلام:

– الحق معك، يا رفيقتي، أوّلًا وآخرًا. الثلج خميرة الأرض في كندا كما في جبال لبنان. لكنّ رحمة السماء تأتي مع قطرات المطر... وربما مع قطرة واحدة منه...

* * *

عند هذا الحدّ، حسَمنا الحوار. وكنّا قد بلَغنا الجامعة، وانفصلَت «منى» عنّي، لتنضمّ إلى صفوف الطلبة.

وقفتُ لحظات، أتأمّلها تسحب قامتها من عينيّ لتدخل في دوّامة العصف الأبيض قبل أن تبلغ العتبة.

* * *

– والآن، إلى أين؟

رفيقتي، ومضيفتي لا تترك فرصة لأجترّ أفكاري. تريدني مستنفرة، حاضرة في كلّ الحالات، مثلما هو طبع البلاد.

قلتُ ببساطة:

– إلى البيت... إلى الدفء.

ثمّ اختفَت بقية الكلمات.

وكنتُ أفكّر ببيت آخر غير المسكن الوقتيّ، ألجأ إليه من حرّ ومن قرّ. يلتفّ حول كياني، يحميني، يحفظ سرّي. يصغي إليّ، في حالات الصمت والثرثرة، وبكثير من الصبر والحنان.

– خذيني، الآن، أيّتها الصديقة الطيّبة إذا كان الوقت يسمح بذلك، والإمكانات...

* * *

داخل المنزل، بدأتُ أحطُّ أحمالي الثقيلة. خلعتُ المعطف الكثيف عن الكتفين، وجزمة الثلج من القدمين. ونزعتُ الشال المكبّل الرأس. ثمّ هرعتُ إلى غرفتي، وأغلقتُ خلفي الباب.

هنا الدفء، والسرير النظيف الناعم، وكلّ وسائل الراحة، فلماذا يبقى ذلك الطائر الشرس يخبّط جدران القفص... لماذا؟... أما آن له أن يستقرّ ويألف الأوضاع المستجدّة؟

أتُراه يذكّرني بأنّه، منذ أن فَقَدَ المسكن الأوّل، وإلى أن أبلغ معه، دار الراحة والبقاء، سوف يظلّ هو الملجأ والحمى، مهما تحوّل المكان، وتقلّب مزاج الزمان؟!.

كندا 1986

الفردوس الصغير

موعدنا المساء، والسبيل إليها عاصفة ثلجيّة تجتاح وجه الجزيرة الشماليّة بسرعة عتيّة.

هنا، لا أحد يخلف الوعد، فالدروب تبقى سالكة مهما تقلّصت الأجواء العليا. وموعد لقائنا في منزلها الريفيّ حدّدناه قبل شهر، وكان الطقس، آنذاك، لطيفًا... لا يمكنني القول إنّه كان طقسًا دافئًا، إنّما موسم العواصف الثلجيّة لم يكن قد بدأ فعلًا.

موسم العواصف الثلجيّة!

* * *

توقّعَته مراكز الرصد، وبدأَت وسائل الإعلام تبثّه محذّرة: ثلج... ثلج... ثلج وجليد... ثلج ورياح، ينفخها المارد المتحكّم بمصير الناس من خلف حُجب الغيوم...

كان من البديهيّ أن أتّصل تلفونيًّا كي أعتذر من صديقتي مارلي، أو أطلب إليها، على الأقل، أن نرجىء الموعد حتى يصحوَ الطقس. طال رنين الهاتف دون أن أتلقّى جوابًا. وكدتُ أتنفّس براحة، وأنا أفكّر: – هي أيضًا لم تصل إلى بيتها... ربّما احتجزَتها العاصفة خارج البيت، عند أصدقاء لها في المدينة أو في الريف، وهذا يوفّر عليّ القلق وعناء الاعتذار و...

هكذا كان الفكر يقفز خلف الخيال، ويدي تهمّ بإعادة السمّاعة إلى موضعها... وقبل أن يأتِيَني صوتها لاهثًا الدفء والمرح.

– كنتُ أجرف الثلج حتى لا تضلّي طريقك إلى مدخل بيتنا.

– إذًا...

لفظتُ الكلمة، ولم أُكمل. وتابَعَت هي دون أن يخفّ حماسها: – أنتظركِ، بالطبع. أوصيتُ إحدى الجارات بأن تمرّ كي تنقلك بسيّارتها في طريق عودتها من المدينة... دقائق وتكون عندك.

* * *

دقائق؟!...

والدقيقة هنا، تعني دقيقة. وأنا تهاونتُ، واستسلمتُ للعاصفة وشرود المزاج، فلم أُحضر حاجاتٍ ضروريّةً لقضاء عطلة أسبوع في الريف.

نهضتُ مدفوعة بهدوء صوتها المطمئن:

– أجرف الثلج، وأُشعل نار المدفأة. أُريدك أن تعيشي شتاءنا الريفيّ، بكلّ تفاصيله.

* * *

لم أدرِ إذا كانت تلك دعوة منها، أو تهديدًا!... ولم أستطع، وأنا في زحمة ارتباكي، إلّا وألمح الوجه الساخر الهازل لمغامرتي: فأنا أحبّ الريف، لكنّي أحبّ الدفء أكثر... قضيتُ عمري أتفرّج على العواصف من خلف الزجاج...

لتهبّ العواصف، في الخارج، ما شاء لها الهبوب، ما دام هناك سقف فوق رأسي، ودفء يسري في عروق الدار...

لتعصف، وتقصف، وترسل الرعود والبروق، والثلج والجليد... فأنا باقية في الداخل. أراقبها وأحصي أنفاسها، من خلف الزجاج. وأتمتّع بالامتداد الأبيض... أتأمّل الأشجار تئنّ وترضخ، والعاصفة مجنّحة بالثلج والجليد؛ وعصافير تخلّفت تبحث عن مأوًى لها في عبّ شجرة لم تتعرّ نهائيًّا. العصافير تستوطن أعشاشًا من الثلج، تحمي في ثناياها أجسامها اللطيفة. وثمّة أطفال يلعبون في الساحة، وقد لفّوا أجسامهم بالمعاطف الواقية، وغطّوا الرؤوس والوجوه، فبدَت أعينهم من فوق كمّامات أنوفهم، وكأنّها قناديل صغيرة مغروسة في وجوه مخلوقات من قبل التاريخ.

الأطفال والقطط والعصافير ومارلي، لا يخشون العاصفة.

وأنا، بعد دقائق معدودة، سأنضمّ إليهم وأسجّل خطوة تاريخيّة في حياتي.

ولم تخيّب صديقة مارلي توقّعاتي. دقائق، وتوقّفت سيّارتها عند أقرب نقطة من مدخل البيت، أي عند حدود التلال البيضاء. وفي ثوانٍ قليلة، كنتُ بقربها، وقد خرجتُ من الرفض والتحدّي، إلى الاستسلام القدري... للعاصفة...

* * *

– لا أظنّك شهدت عاصفة ثلجيّة بهذا الحجم؟

رفيقة الدرب تحاول أن تفتح ثغرة في المسافة الصامتة بيننا.

قلتُ مسايرة:

– إنّها عاصفة عتيّة، ولا شكّ. إنّما سبق لي أن تعرّفت إلى واحدة مشابهة...

قاطعَتني:

– في بلدك؟...

– بل هنا، في هذه الجزيرة. وكان ذلك قبل عدّة سنوات، ولدى زيارتي الأولى لكندا. يومها، أقامت لي الطبيعة استقبالًا لن أنساه عمري... فقد ظلّت الطائرة تتصارع والعاصفة مدّة ساعة، قبل أن يتمكّن ربّانها من الهبوط بأمان.

نعم، سيّدتي... تعرّفت إلى عاصفة ثلجيّة قبل هذا اليوم.

ابتسمَتِ الرفيقة، وقالت:

– إذًا، ليس هناك جديد أضيفه إلى معلوماتك، وسنكتفي بسماع هذه الموسيقى الرائعة.

شكرتُها على ذوقها وحُسن اختيارها لمحطّة تبثّ موسيقى، لا فرقعة طناجر وتحطّم كؤوس. وغرقتُ في مُتعَتَين: رشف الأنغام العذبة، وتأمّل العاصفة، من خلف الزجاج...

* * *

كانت مارلي تنتظر.

طبعًا لم أتوقّع أن أراها في الساحة أو عند سور الحديقة. إنّما تركَت إشاراتٍ ضوئيّةً تهديني إلى مدخل البيت.

وهل هناك بيت؟...

تساءَلتُ، وأنا أغادر السيّارة، وأتبع تعليمات رفيقة الطريق.

– إلزمي خطّ النور.

تركتُ لقدمَيَّ أمر قيادتي؛ فكلّ ما حولي مغلّف بذلك البياض الغامض، الهادىء، والذي يبدو ساذجًا، مسالمًا. إنّما الغريزة وحدها تعلم كم من مطبّات تختبىء تحت ستار السذاجة البيضاء!...

مارلي تنتظر...

فتحتُ الباب الأوّل، وصدَمَت أنفي رائحةٌ غير ودّية، سرعان ما أدركتُ مصدرها؛ ففي زوايا المدخل حواش وسلال مبطّنة، تتمدّد فيها قطط من أشكال وأحجام شتّى. ولم يفُت مارلي الحسّاسة أن تلاحظ دهشتي. فحاولَت أن تشرح واقع الحال: – مجموعة من القطط السائبة. لجأَت إلينا قبل أسبوع. لم أجِد بدًّا من إيوائها، فحصرتُها في هذه المساحة وذلك...

قاطعتُها:

– لا لزوم للشرح، فالحيوانات لا تُزعجني.

تابعَت:

– لا... يجب أن أُكمل.

وأكمَلَت ونحن ننتقل إلى المدخل الثاني:

– هنا تقيم قطّتنا السياميّة وعائلتها. وبما أنّ الخلاف يمكن أن يقع بين القطط، كما في عالم البشر، فقد رأيتُ أن أضع حاجزًا بين القطيعين، ليبقى الوئام سائدًا.

مع العبارة الأخيرة، كنا نلج ردهة فسيحة. هي قاعة الجلوس. وأوّل ما لفتني فيها، حيوان أنيق الشكل، كستنائيّ اللون، قام يخطر في المكان، وكأنّه السيّد الآمر: – الراعي الألمانيّ!... إسمه موسكي... إنّه «ابننا المدلّل»...

وموسكي يعرف مقامه جيّدًا. تمطّى وتثاءب، ثمّ قفز إلى مقعد مغطّى بالقطيفة الزرقاء الفاخرة، وتمدّد فوقه باسترخاء...

«الابن المدلّل»!...

طبعًا، مارلي بأمسّ الحاجة إلى «ابن» كهذا يحرس الدار: – تعرفين، زوجي يسافر كثيرًا، ونحن نعيش في هذه الفلاة.

ولم أعلّق، فتابَعَت:

– لا أخشى اللصوص، فليس عندنا ما يستحقّ مغامرة لصّ، خصوصًا في هذا الطقس المستحيل. لكنّ الذي أحسب له كلّ حساب، هو حيوانات البرّ.

وليست بيننا وبينها أية حدود.

– تقصدين...

– جميع أنواع الحيوانات، اللطيفة الطيبة، والمفترسة الشرسة. تقصد «فردوسنا الصغير» الأرانب والسناجب، كما تهاجمه الثعالب والذئاب والدببة... وتزورنا الطيور الرائعة كعصافير الجنة، والكواسر العدوانيّة، وفي طليعتها بومة الوادي... هذه تغريها العصافير النادرة التي نربّيها في المزرعة المجاورة، وموسكي وحده يستطيع، بما له من غريزة قوية، وحاسّة شمّ حادّة، أن يرصد الكيانات الغريبة، وينهض لها، بالنباح على الأقلّ. وهي، مثل كلّ معتدٍ جبان، يكفيها منه التهويل.

إذًا، هناك تحدّ آخر غير تحدّي العاصفة. ومارلي، كما لاحظتُ، لا تقفل الأبواب. ولا تضع حدودًا بين «فردوسها» والغابات الموحشة: – اعتدتُ أن أترك الأبواب مغلقة وأبوابنا بدون أقفال... فالباب، بالنسبة إليّ ليس فاصلًا، بل جسر عبور إلى الطبيعة، إلى الكون. سوف تلمسين ذلك بنفسك صباح الغد: فقد أعددت لك مفاجأة رائعة.

* * *

لم يتحرّك في صدري أيّ شوق لمعرفة نوع المفاجأة. كنت أفكّر بالليل المقبل عليّ، من خلف الفيافي والغابات. وتساءَلتُ إذا كان باب غرفتي مختلفًا، أو إنّه هو أيضًا واحد من جسور العبور!...

وانتشلَني صوت مارلي من قلقي، وردَّني إلى جلسةٍ أنيسةٍ دافئةٍ، فاكهتُها لهبة قزحيّة الألوان، تتراقص في جوف موقد، أعادَني إلى الليالي الشتائيّة، في قريتنا... في جبل ذلك البلد البعيد!...

في أقلّ من رمشة عين، كان هدير العاصفة يحملني إليه...

في أقلّ من رمشة عين... اختفت المرأة التي كانت ترتدي جلدي... زاغَت من عينيّ، وراحَت تتقلّص لتصبح فتاة صغيرة، تجلس فوق جلد خروف، وقد اقتطعَت لها ركنًا خاصًّا من دائرة الموقد تكوّمت فيه، وظلّت تُصغي إلى لغطٍ يدور حولها، وتتأمّل لهبة تتصاعد من قرامي السنديان، في الموقد العتيق؛ وترتفع مع الدخان وتراقص الألوان، وتعلو، ثمّ ينبت لها جناحان من ريح، وتغادر، عبر فتحة المدخنة... تغادر الموقد والدفء الداخلي وترحل. تحملها

العواصف إلى مدًى يعجز عن ملامسته الخيال. حتى إذا بلغت غايتها، وأشبعت الذات المتعطّشة إلى الرحيل، عادت تهبط الكوّة، وتتربّع في الركن المتواضع، فوق جلد خروف.

* * *

ومدفأة مارلي تختلف بشكلها. والفرش من حولها أنيق، والقاعة مشعشعة بالأنوار الكهربائيّة وقد ازدانت جدرانها بلوحات فنّية رائعة.

– ترسمين؟...

سألتُها محاوِلةً أن أكتشف بُعدًا آخر لشخصيّتها. فقد عرفتُها كاتبة مبدعة، وإنسانة نبيلة طيّبة... وراقبتُها تحمل القلم سلاحًا في وجه الحروب الشرسة ومشعِّلي نارها. وسمعتُها تحثّ الناس على النظر خارج حدود جلودهم الضيّقة، وتدعو حكومة بلادها إلى نجدة البلدان المتضوّرة جوعًا، والمنكسرة تحت ثقل الأمراض والآفات الاجتماعيّة. وكان هذا السبب الذي جمعَنا، وتعرَّفتُ، من خلال شخصيّتها وسلوكها، إلى إنسانة سعيدة، تتجاوز حدود الأنانيّة الفرديّة، لتوزّع اهتمامها ولطف حضورها حيثما حلّت.

مدّت يدها إلى رفّ جانبيّ، وسحبت كتابًا من مجموعة مرصوفة فوقه، قدّمته إليّ قائلة: – سألتِني إذا كنتُ أرسم. لسوء الحظّ، ليست لي موهبة هذا العمّ الكبير...

وأشارَت إلى صورة تزيّن الغلاف، ثمّ تابَعَت:

– إنّه الرسّام الذي تملأ آثاره منزلي.

تناولتُ الكتاب من يدها، ورحتُ أتصفّحه، وقرأتُ في المقدمة: – الفنّان الرائد «هاريس». لوحاته معلّقة في المتحف الوطنيّ. كان مولعًا برسم الطبيعة، لكنّ براعته تجلّت في رسم الوجوه.

وأكمل صوت مارلي:

– تلك السيّدة، داخل الإطار الذهبيّ، هي أمّي، في عزّ صباها. الفنان أخوها، وقد رسمها عشرات المرّات... أمّي العزيزة الصغيرة العذبة... عاشت حتى الخامسة والتسعين، وتتابع خلودها في لوحات أخيها.

مع الكلمة الأخيرة، دفَعَت إليّ مضيفتي، كتابًا آخر. سألتُها، وأنا اقرأ على الغلاف اسم «هاريس» آخر: – عمٌّ آخر، وفنّان؟...

وابتسمت بهدوء:

– لا... هذا كان مهندسًا معماريًّا.

وتابعتُ القراءة على غلاف الجزء الأوّل من مجموعة كتَبَت عن الرائد المعماريّ هاريس: – كان حلم المعماريّين في زمانه، أن ينجح واحدهم في تصميم كنيسة واحدة، أما هو فقد ترك في كلّ مدينة أثرًا رائعًا. وبالطبع لم يقتصر عمله على تصميم دور العبادة، بل صمّم منازل، ومراكز حكوميّة وجسورًا. كان أحد الكبار الروّاد، الذين ساهموا في تجديد فنّ العمارة.

قلتُ لمارلي، وأنا أسحب نظري من بين دفّتَيِ الكتاب:

– إنّه إرث ثقيل، وقد زادني فهمًا لشخصيّتك.

صرفَت تعليقي بضحكة لامبالية:

– الفنّ يجري في دم العائلة. ويمكنني أن أضيف: الفنّ وحبّ الطبيعة.

في الصباح، أُريكِ الموقع الحقيقيّ لتلك اللوحة، حيث يبدو الثغر البحريّ مرآة للغابة المجاورة. أدلّك على الموقع فقط، لأنّ التفاصيل الباقية مغلّفة بالثلج. بالمناسبة، هذا البيت شُيّد قبل مائة سنة، وكان في الأصل مُلكًا لعائلة أمي، ثمّ انتقل إلى عائلة أخرى. وحين اخترتُ، مع زوجي، السكن في الجزيرة، سَعَينا إلى استرجاعه بأي ثمن.

في الصباح، تُبصرين أصول اللوحات المنتشرة فوق الجدران. فهي تطلّ علينا عبر النوافذ والشرفات والأبواب.

* * *

في الصباح!...

نسيتُ أنّ صباحًا ينتظرنا، مع وعود ومفاجآت. كانت افكاري ترفّ كالفراشة، وتنتقل بين عوالم مارلي وحكاياتها. ولم أشعر كيف انقضى الوقت، وتجاوزَت عقارب الساعة منتصف الليل: – الأفضل أن ننام قبل أن يشطح بنا الحديث حتى الفجر.

وقادَتني إلى غرفة أهدتها لي، في الطابق العلويّ. وقبل أن تغادر، أوصتني بألّا أفوّت المشهد الصباحيّ من النافذة، خصوصًا إذا أشرقت الشمس.

شكرتُها، وتمنّيتُ لها ليلة سعيدة، وسارعتُ إلى الباب، أتفحّصه إذا كان يحمل قفلًا...

ما أغباني!

إذا كانت مارلي تترك أبواب المنزل الخارجيّة بدون أقفال، فهل يعقل أن تقفل أبواب الداخل؟... وفي الطابق العلويّ؟...

رددتُ الباب وتوكّلتُ على الله... وحاولتُ أن أركّز تفكيري على الأرانب وطيور الجنّة.

ما كدتُ أُغمض عينيّ، حتّى سمعتُ جلَبَةً في الطابق الأرضيّ، تلاها نباح موسكي، يعلو ويهبط، ويمتزج بِخَبطِ قوائمه على دفّتي الباب. انتظرتُ برهة، لأسمع وطء أقدام في الغرفة المقابلة، حيث تنام الصديقة. لكنّها لم تتحرّك. فتحتُ الباب وخطوتُ باتجاه غرفتها: الأنوار مطفأة، والهدوء يخيّم على المكان، والباب مشرّع بدفّتيه.

عدتُ إلى غرفتي وقد اعتراني الخجل!

يا لضعف النفس أمام المجهول!

استمرّ النباح والضجيج مدى ساعة، ثمّ هدأ كلّ شيء.

* * *

لا أذكر كم طال نومي. إنّما أعلم أنّي نمتُ بعمق وراحة، وسط هدوء الطبيعة والمكان. وفي الصباح نهضتُ مرتاحة، يغمرني شعور من الفرح الداخليّ. وتذكّرتُ نصيحة مارلي، فهرعتُ إلى النافذة، كي أمتّع النظر بالطبيعة من خلف الزجاج.

كانت العاصفة قد هدأَت، مخلّفةً بعض الأشجار الكسيحة، وكثافة من الثلوج تكاد تغطّي الطابق الأرضيّ.

– أعددتُ لكِ حذاء الثلج. ليس هناك ما هو أروع من السير فوق الثلوج في باكورة النهار... هيّا بنا!...

حاولتُ أن أسأل مارلي إذا كانت تلك المفاجأة الموعودة، لكنّي أرجأْتُ السؤال، وسارعتُ إلى ارتداء معطف واقٍ، ثمّ تبعتُها إلى الباب الخارجيّ، حيث أنفَقنا بعض الوقت في جرف الثلج لنفتح طريقًا يمكّننا من الخروج...

وخرَجنا مستعينتَين على السير بخفّي الثلج. وهما أقرب إلى مضرب تنس، تضاعف حجمه: – هذه هي الوسيلة الفضلى للانتقال فوق الثلج الرخص.

مارلي تواصل الشرح والتحرّك، وأنا في إثرها، وفكري يجري مع تاريخ الإنسان، وطاقته الهائلة على التكيّف بل التحدّي.

ما الذي يجعل هذه السيّدة المرفّهة تختار الحياة الصعبة؟... الوحشة ومكافحة جور الطبيعة؟...

– حاوَلنا أن نبنيَ فردوسًا صغيرًا. هناك، قرب سور الحديقة، حيث لا تبصرين الآن، سوى تلّة بيضاء... هناك مأوى طيورنا مأوى طيورنا الفريدة، عصافير الجنّة، طيور الاستعراض.

هواية زوجي المفضّلة البحث عن هذه البدائع، وتربيتها. وهو يشترك مرّة في السنة على الأقل، في معارض ومسابقات، ويكسب جوائز وتقديرًا.

هذه العاصفة كانت رحمة من السماء، غطّت المأوى ومداخله وفوّتت الفرصة على ثعلب خبيث، ظلّ يحاورني طوال يوم أمس... وبالطبع «موسكي» قام بواجبه خير قيام.

– إذًا هذا هو سبب الضجّة، الليلة البارحة!...

– طبعًا...

تؤكّد مارلي وتستمرّ في الشرح:

– لم أُخبرك ما فعلَته البومة العتيقة. قبل أسبوع، نجحَت في التسلّل إلى قفص طيور الجنّة، وتمكَّنَت من خنق عشرة منها.

وهي تعود كلّ ليلة وتتربّص بالطيور. وتنتظر حظّها.

– وكيف تتمكّن الطيور من العيش، وقد سدّت عليها مجاري الهواء؟

سؤال ساذج، لكنّي لم أستطع لجمه...

قالَت:

– قمتُ باكرًا كي أتفقّدها. وفتحتُ ثغرات صغيرة في الثلج كي يتسرّب الهواء... وتأكّدت بأنّ لديها من الطعام ما يكفيها لبضعة أيام.

– إنّه عمل مرهق، يا صديقتي!...

ولم تأخذ مارلي كلامي بجدّ:

– هذا العمل هو راحتي. الحركة تجسّد نشاطي وحيويتي. ووجود هذه المخلوقات اللطيفة، حولي، يزيدني حبًّا للحياة والعمل.

* * *

كلامها يلوّن المساحات البيضاء. ويغرس في نفسي مفهومًا جديدًا لعلاقة الإنسان بالكون. وهي، في عصر اختلال التوازن الطبيعيّ، تحاول أن تحتفظ بكلّ التوازن: في الطبيعة. والتاريخ والكيان. وتحاول أن تُدخلَني، خطوة خطوة، إلى عالمها. وها إنّها تمضي خطوة أبعد فتسأل: – هل سبق لك أن مشيت على الماء؟...

من أين قفز السؤال العجيب؟...

حسبتُها تداعبني فلم أجب. وانتظرت مزيدًا من الشرح لمعنى سؤالها، ما لبثَت أن قدّمَته: – إنّكِ، الآن، تقفين فوق صفحة الماء.

– ماذا؟...

صرختُ، وشعَرتُ برعدة تتسلّل في كياني حتى النخاع.

وأطلقَت مارلي ضحكة عالية:

– أقصد كلّ كلمة قلتُها... أنت وأنا فوق صفحة الأوقيانوس، وقد سِرنا مسافة كبيرة، ولم أشأ أن أخبرك منذ البداية. تركتُها مفاجأة. لم تلاحظي حدود البرّ والبحر، إذ إنّ الثلج ساوى بينهما، ورفع كلّ الحدود. وبالطبع، المياه متجمّدة كالصخر... ولا خوف من الغرق.

قلت، وقد تجمّدت أعصابي بالرغم مني:

– إنّها مغامرة حقًّا... وأبعد مما يمكنني تصوّره... ولكن، ألا تخشين الثغرات الخفية؟ أحبّ أن أذكّرك بأنّ صاحبتك تجهل السباحة في بركة الدار.

وطمأنتني مارلي:

– قبل أسبوعين قامت لجنة مختصّة بفحص كثافة الجليد. إنّه يزيد على المترين... وهذا يمكّن الناس من ممارسة رياضة شتائيّة فريدة؛ سباق الخيل فوق سطح البحر.

قلتُ وأنا أتراجع تابعة خطًّا سرتُ عليه:

– أمّا أنا، فأفضّل كلّ ما يجري فوق اليابسة.

ولم أنتظر جوابًا. كانت خطواتي العريضة المسطّحة، في الخفّين الشبيهين بمضرب التنس، توجّهني. ولحقَت بي مارلي وهي تردّد كلمات اعتذار: – لم

أقصد إزعاجك. فكّرت أنّها فرصة فريدة؛ فلن تتوفّر لك مغامرة كهذه كلّ يوم. وأنا واثقة من الطريق. ففي كلّ يوم، أبدأ من هنا، انطلاقي باتجاه الكون.

* * *

مارلي تخبّىء لي مفاجآت ومغامرات أخرى في الطبيعة المتجمّدة لكنّها نزلت عند طلبي، وقناعتي، وتفضيلي تأمّل الطبيعة، من خلف الزجاج... خصوصًا طبيعة القطب الشماليّ!...

* * *

كانت هناك أمور كثيرة، يمكن أن أتعلّمها من حياة مارلي وتجربتها الفريدة. لكنّ الوقت لم يسمح بذلك؛ فعطلة أسبوع ليست سوى لحظة عابرة في حساب الزمن. وبالطبع، لن تكفي، لكي يتعلّم المرء، كيف يمكنه أن يبنِيَ، وحده، فردوسًا أرضيًّا.

كندا 1987

عالمٌ سعيدٌ

نهضَت على دقّات المنبّه.

موسيقى ناعمة تألفها... تنطلق من آلة صغيرة قرب السرير.

رفعَت الغطاء عن جسمها، ومسحَتِ الليلَ المغلّف عينَيْها، ثمّ توجّهَت صوب النافذة، وأزاحَتِ الستار عن الجانبَين... المشهد نفسه يطالعها اليوم، مثلما كان بالأمس. امتداد مسطّح، جامد أبيض اللون. امتداد لنفسها وحياتها.

* * *

لا تذكر متى غادرَتها الألوان!

في زمان مضى، كانت هناك بقع حمراء، خضراء، زرقاء وصفراء تلوّن عالمها بكل الألوان. وكانت هناك سهول ومروج وبحار ومرتفعات وأودية... ثمّ بدأَت تلك البقع تتلاشى وتزول. وتساوَتِ المساحات، وبقِيَ لها بياض راح يتوسّع ويمتدّ ليصلَها بالأفق، قبل أن ينحدر فيلامس رؤوس الأشجار، ويغلّف البحر، ويُخفي الأزرق النيليّ ويعيد كلّ شيء إلى أصله... ويصبح من جديد دائرة بيضاء.

* * *

إنّه الخامس من شهر كانون الثاني، من عام جديد. وأيامها تدخل معها، ترافق خطواتها إلى قلب الدائرة البيضاء حيث تنعدم الحرارة، ويغلّف الجليد وجه الكون... يغلّف قلبها.

تحرّكَت يدها تلقائيًّا باتجاه نقطة تقع إلى شمال قفص الصدر، واستقرّت فوقها لحظات، قبل أن تصافحها مطمئنّة بأنّ الساعة لم تتوقّف، ولا يبدو أنّها

على وشك أن... فهي تعمل بسرعة عادية: تِكْ... تاكْ... تِكْ... تاكْ...

العالم الخارجيّ غارق في الثلج والصقيع و... ثلاثون درجة تحت الصفر. وعالمُها الداخليّ يكاد أن يكون نسخة طبق الأصل عنه. منذ سنة وهي تتحرّك في داخله، ضمن دائرة معدومة الجاذبيّة، معلّقة في الفراغ ومعزولة عن كلّ ما تطاله الحواسّ.

منذ سنة...

غادرها. فجأة ارتدى الليل وسافر. وكان وجوده يفرش الدفء في البيت والكيان. ويعوّضها من هجر الزغاليل (أولادهما الثلاثة) وقد غادروا حالما اشتدّ الساعد وقوِيَ الريش في الجناحين.

– تبقى لنا حياتنا معًا.

أكّد لها وهو يغمر جسدها، ويمسح بيديه قطرات سخَّت من عينيها. رفعت إليه عينين تمور فيهما دموع البحار، وقالت:

– تبقى لي، نور أيّامي.

لكنّه غادرها، وأطفأ من بعده الأنوار. وراحَت تغرق، خطوةً بعد خطوةٍ، في عالم السكينة البيضاء.

* * *

تراجعَت عن النافذة ولملَمَت نفسها من أكوام الذكريات: إنّه نهار جديد وحاسم. لحظاته محسوبة عليها، ولا يجوز أن تتخلّف. نهارها المولود من موسيقى ناعمة، يطلقها المنبّه الصغير قرب السرير.

وحقيبتها المنتفِخة، تنتظر بصمت، في ركن من الغرفة. وثمّة كلمات كتبَتها بخطّ كبير، على صفحة التقويم الجديد، وهي تقرأها الآن، وتستعيد أصداء صوت رافقها إلى حدود النعاس:

– غدًا، سيّدتي، نُنهي كلّ شيء. وتُصبحين على خير.

وها هي تُصبح، مستعدّة لتحمّل مسؤوليات يوم جديد.

كان الرجل صريحًا وحاسمًا، وقد حرص على الاتصال بها ليطمئنها، كي تنعم بنوم مريح:

– نعم، سيّدتي. تمّ بيع البيت. وبقي توقيعك الأخير... غدًا أتوجّه كي أرافقك إلى دائرة العقارات... لا... لن أتركك وحدك، يمكنك أن تعتمدي عليّ...

واعتمدَته، وكيلًا أمينًا وقادرًا على التحرّك برشاقة، بسهولة، وسط هذا العالم المنسّق، المنظّم... عالمها.

* * *

اختارَته، منذ سنة، بعد رحيل رفيق العمر، حين قرّرت أن تنظّم حياتها، مع ما يتناسب والوضع الجديد.

وحين قرّرَت أن تبيع البيت الكبير، بيتها، حيث يتغلغل الماضي، وتتآوى أصداء السنين، بأفراحها وأحزانها... وحيث تربّى الصغار، وصاروا كبارًا، وغادروا، تاركين لها الذكريات، وأسرّة مهجورة، وصورًا فوق الجدران، ونقش أصابعهم على الأبواب... و...

رضِيَت بالواقع، ولم تحسب أنّ رفيق العمر، للسرّاء والضرّاء، قد يغدر بها، ويسبقها بالرحيل، ويتركها للوحشة والضياع.

مقرعة الضمير تخبط عينيها، وهي تحسّ مشاعرها تميل إلى التأنيب... لا، هي لا تلومه، لكنّها فوجئت، ولو كانت تعلم... لو...

ويأتيها صوته مثلما كان دائمًا، قويًّا وسندًا:

– كان لا بدّ أن يأتِيَ ذلك اليوم. فتحتجّ:

– لماذا لم تُعلِمني؟...

ويقطع عليها الطريق بسخرية:

– وهل أنا منجّم؟... لم أمارس الرجم بالغيب... تعرفين ذلك...

وتردّ بانهزام:

– لكنّك، في الماضي، كنتَ تعرف كلّ الأمور، وكنتَ السند.

و... خيّم الظلام.

وها هي تواجه الواقع، والعالم الناهض هذا الصباح، لاستقبال نهار جديد... وعليها أن تنهض معه، وتكون مستعدّة لكلّ المفاجآت.

أكّد لها وكيل العقارات الليلة السابقة:

– أمرّ كي أرافقك في تمام العاشرة.

أرقام الساعة تشير إلى التاسعة. أمامها ساعة واحدة لتكون جاهزة، ومستعدّة جسدًا وفكرًا وروحًا، لتوقّع صكّ البيع... بيع ماضيها.

نفضت من وعيها غبار الأفكار، وهي تخطو صوب الحمام.

– هناك دائمًا بدايات، وفي كلّ مراحل العمر... والماء يغرق الأحزان... الماء ورغوة الصابون.

في عمرها الممتدّ على مساحة سبعين عامًا، لم تستسلم للضعف أو الانهيار. بل كانت دائمًا تقاوم وتنهض من الكبوات. وتنهض لمواجهة المسؤوليات.

وقد نهضَت بتحدٍّ وكبرياء من فترة الحداد، ونضَت عنها الثياب السوداء، واختارَتِ الأبيض انسجامًا مع شعرها وعالمها الداخليّ. وكان قرارها التالي والحاسم أن تسعى إلى بيع البيت، العقار الوحيد الذي تملكه، ثمّ تدخل دار المسنّين... «بيت السعادة» كما يسمّيه أهل بلدها. وهي امرأة واقعيّة، ناضجة، وعالمها الخارجيّ هذا الأبيض الهادىء، الصاقع، يُبقي ثغرات مفتوحة على منابع الدفء البشريّ. تُشبهها تلك الثغرات التي يتجمّع حولها الصيّادون، فوق البحر المتجمّد، ليدلوا بشباكهم إلى أعماق المياه الدافئة.

* * *

وهي اليوم، تحمل الشبكة، وتقوم بالمحاولة الأولى، فتخطو صوب المساحات البيضاء الجامدة، تخترقها بشجاعة وحزم، رفيقها رجل غريب، تعتمده وكيلًا لها. وقد تكرّم وحضر بسيّارته ليوفّر عليها مشقّة الانتقال.

شكَرَته مع تحيّة الصباح، وجلسَت بقربه، فوق المقعد الأماميّ، في سيّارة مدفَّأة ومريحة.

– نتوجّه إلى دائرة العقارات، سيّدتي...

– كما تشاء. أنتَ القائد والخبير.

قال متابِعًا مسايرتها:

– العملية شكليّة. فقط حضوركِ وتوقيع اسمكِ، كي يتأكّد المسؤول من أنّ البيع تمّ برضاكِ.

هزّت رأسها موافقة:

– هذه أمور لا بدّ منها...

ثمّ غادَرِت المكتب، مستندة إلى ذراع وكيلها.

قال لها، متابعًا إرشاده وتقديم خدماته:

– علينا أن نتوجّه إلى المصرف، حيث ينتظرنا الشاري، لتستلمي منه المال.

ردّت:
– أنا رهن إشارتك.

* * *

– عفوًا، سيّدتي... تفضّلي وقّعي اسمك في هذه الخانة. وهكذا تكون عمليّة البيع قد تمّت نهائيًّا.

أطاعَت مدير المصرف دون تعليق. أمسكَتِ القلم بيد ثابتة، ووقَّعَت اسمها كاملًا، بينما كان الشاري يوقّع لها «شيكًا» يُبرز الرقم بوضوح و... لحسابها.

نهض وكيل العقارات يهمُّ بالخروج، فاستمهلَته:
– هناك أمور أخرى عليّ إنهاؤها، أرجو أن تتفضّل فتساعدني.
– طبعًا، أنا معك، سيّدتي. وسأبقى برفقتكِ لتُنهي كلّ المسائل العالقة.

دسَّت دفتر الشيكات في حقيبتها، ثمّ نهضت مودِّعة.

* * *

كان وكيل العقارات يُجري حسابًا من وجهة نظره: المرأة الآن ثريّة. ولن تحتاج إلى هذا المبلغ كلّه، ولن تجمّده في مصرف. لا بدّ وأنّ هناك صفقة جديدة... إنّها امرأة واقعيّة.

انتشرَت علامات الرضى فوق محيّاه، وراح يصفّر لحنًا قفز إلى وعيه من أيّام المراهقة. ثمّ تذكّر فجأة، أنّ رفيقته لم تشر إلى الجهة التي تقصدها، فالتفَتَ يسألها:

– هل نحن في الاتجاه الصحيح؟

هزَّت رأسها بالإيجاب، وأومأَت إليه كي يتابع...

* * *

وتابع القيادة والتصفير بمرح. وظلّت هي هادئة حتى بلغت بهما السيّارة مكانًا خارج حدود المدينة، فأشارت إليه أن ينحرف قليلًا إلى لجهة اليمنى.

– ولكن!...

حاول أن يحتجّ فلم تدعه يُكمل:

– أعرف... أعرف. لديّ هنا أيضًا مسائل يجب أن أحلّها... الواجبات أوّلًا.

غادرَتِ السيّارة بخفّة، ولم تنتظر رفيقها ليفتح لها الباب، أو يسندها. خشي أن تنزلق على الجليد، فخفّ إليها والذهول مسيطر على أفكاره. غير أنّه لم يجرؤ على طرح سؤال حول غاية الزيارة إلى عالم الأموات.

– هناك مسائل هنا أيضًا، وعليّ أن أحلّها...

تركها لحرّيتها. ربما هناك نذْر قرّرت أن تفِيَهُ، زيارة لراحل عزيز، ربما...

لكنّها لم تتوجّه ناحية القبور كما ظنّ، بل طرَقَت باب الرجل الحيّ في عالم الأموات، والمسؤول عن حلّ الأمور العالقة بين العالمَين...

وهي لديها أمر عالق منذ سنة.

تمتمَتِ اعتذارها، وسحبَتِ الدفتر، ووقّعَت «شيكًا» بالدين.

– لا تؤاخذني. لم يكن في يدي مال، في حينه، لا تؤاخذني. اليوم بعت البيت، وصار بإمكاني وفاء الدين.

قبض الرجل الشيك مع اعتذارها. ومثل أيّ رجل أعمال يستردّ دينه، ويصبح مطمئنًّا إلى أنّ الزبون كان عند حسن الظنّ، تفرّغ للسؤال عن الحال، والأولاد و...

* * *

لم تدَعه يُكمل. تسلّمت هي زمام الكلام. إنّها امرأة واقعيّة. وضعَت خطّة، وها هي تتابع تنفيذها. وكان الدين من نفقات جنازة المرحوم على رأس قائمة المستحقّات، ثمّ هناك بند آخر يليه في أهمّيته:

– ما هو، سيدتي؟

– أريد أن تحجز لي قبرًا لاسمي. وسوف أدفع تكاليف جنازتي سلفًا... أعرف أنّكم...

قاطعَها الرجل بحماسة:

– تجدين لدينا أفضل خدمة. نحن لا نسعى وراء الزبون، بل يأتي هو إلينا، ويثق بنا...

– أعرف ذلك تمامًا...

وقبل أن تُكمل عبارتها، كان الرجل يضع بين يديها «كاتالوغًا» أنيقًا ملوّنًا، فيه صور لنعوش من كلّ الدرجات والأحجام والألوان:

– خذي وقتك، سيّدتي، في الاختيار. لستُ على عجلة من أمري. المهمّ ألّا نقع في الندامة – لا سمح الله – لدينا أحدث «الموديلات» وبأسعار توفيريّة.

ثم خفض صوته، وكأنّه ينقل إليها سرًّا حميمًا:

– لحسن الحظّ أنّك وصلت في فترة التنزيلات وخفض الأسعار. لدينا فرصة أسبوعين، يحصل خلالهما الزبون على حسم يقارب الخمسين بالمائة. كذلك، خفّضنا، إكرامًا للزبائن الأحبّاء، تكاليف الجنازات... بالطبع لمدّة أسبوعين فقط.

كانت المرأة تصغي إلى محدّثها باهتمام. ولم تكترث لتصفّح «الكاتالوج» إنّها امرأة واقعيّة عمليّة. وقد وضعَت خطة قبل أن تحضر إلى مدينة الأموات، ووضعت تصوّرًا لكلّ التفاصيل الكبيرة والصغيرة، بما فيه الدرجة والنوعية... لن تُنفق مالها على جنازة فخمة، بل تكتفي بدرجة متوسّطة. بنعش متواضع، وصلاة بسيطة، بعيدة عن الأبّهة والجاه... صحيح أنّها قادرة على دفع التكاليف، نقدًا، بعدما باعت البيت وقبضت المال، إنّما هناك المستقبل، أولادها الثلاثة، وهي ترجو أن توفّر لكلّ منهم، حصّته من الميراث.

* * *

– نعم، جنازة من الدرجة الثانية، ونعش مناسب.

ناولها الرجل لائحة بقيمة التكاليف، بعدما أجرى حسابه، مع حسم خاص للدفع المسبق. نقَدَته المبلغ المطلوب، وتسلّمت الإيصال، ثمّ نهضت مودّعة. ومعها نبض وكيل العقارات، وقد كان طوال الجلسة مراقبًا حياديًّا؛ فالصفقة خارجة عن مجال اختصاصه.

أمسك بيدها وقادها إلى السيارة، ثمّ انتظر أن تبادره هي بالإشارة إلى خطواتها التالية.

ولم تخيّبه:

– هل تقبل دعوتي إلى الغداء؟...

فاجأَته. مرّة أخرى تخرج على مدار توقّعاته ومدى حساباته. وشعر بأنّها تمسك بزمام أمورها بحزم، وتحدّه خلف مقود سيارته. أجاب:

– بكلّ سرور، لكنّي لا أريد ازعاجك، سيدتي.

قالت بمرح:

– نذهب إلى مطعم الشموع؟ فالمناسبة تستدعي الاحتفال في أضخم مطاعم المدينة. ثمّ استطردت:

– في الواقع، هناك أكثر من مناسبة تستدعي احتفالنا اليوم. وقد شاركَتني في معظمها. ألا ترى أنّنا حلَلنا كثيرًا من المسائل العالقة؟...

لم يدرِ بماذا يجيبها.

لم يكن غريبًا عن المدينة. فهو يقيم هنا منذ عدّة سنوات. وقد اختارها مقرًّا لسكنه وأعماله، بعدما خسر كلّ شيء في الحروب الدائرة في وطنه. لكنّ سنوات قليلة لا تكفي، ليرتدي المرء جلد المجتمع الجديد. وقد اعتاد أن يشهد الناس في بلاده، تواجه الموت برهبة، وقلق... وتواجهه بدهشة، وكأنّه الحدث الأوّل في التاريخ.

واليوم، قلبَتِ المرأة معادلاته ومفاهيمه كلّها. ببرودة ورضى، حجزت قبرها، ودفعت التكاليف سلفًا. وها هي تدعوه إلى الاحتفال وكأنّها في حفلة زفاف!...

وهي، إلى ذلك، امرأة عاقلة، وأمّ طبيعيّة، أنشأت ثلاثة أولاد، وحفظَتِ البيت وساوَمَت، وصبرَت إلى أن باعتهُ بثمن مناسب. ثمّ إنّها زبونة ممتازة، نقَدَته حقّه من بيع البيت، وليس لديه أي عائق يؤخّره عن قبول دعوتها سوى الزوجة التي تنتظره للغداء.

حالما بلغ المطعم، اتّجه إلى التلفون، واتّصل بها:

– لا تنتظريني اليوم، يا عزيزتي.

وأقفل الخط.

زوجته معتادة أوقاته غير المنظّمة، ومفاجآته من طبيعة عمله، لذلك لم تناقشه أو تسأله عن سبب تأخّره.

* * *

عاد إلى المائدة وتناول قائمة الطعام من يد مضيفته، وراح يتصفّحها ليختار طبقه. وأصرّت عليه المرأة أن ينتقِيَ أفخر الأصناف، فالمناسبة تستدعي الاحتفال. كان يطيعها بطريقة آليّة، وكأنّما سلَبَته إرادته، وأوقعَته تحت تأثير سحريّ.

وكان عليه، أن يهضم، تدريجيًّا مع طعام الغداء، تصرّفها الطبيعي الهادىء، حيال مسائل معقّدة بل مستحيلة.

تساءل، وهو يرافقها إلى السيارة، إذا كانت المرأة قد فرغت من حلّ المسائل المعلّقة، أو بقيت هناك مفاجآت جديدة. ولم يوجّه إليها السؤال، بل جلس إلى مقود السيارة وانتظر إشارتها التالية:

– أرجو أن تذهب بي إلى البيت.

توقّع ذلك، كونه الوسيط، فعليه أن يتسلّم ويُسلّم. خصوصًا وأنّ البيت بيعَ بكلّ محتوياته، عدا بعض الثياب والأمتعة الخصوصيّة:

– تجدها في الزاوية. خلف الباب، تحويها حقيبة خمريّة اللون. أرجو أن تنقلها إلى السيارة.

ظنّ سمعه يخدعه. فعاد يستفهم:

– أَوَلا تريد، سيدتي، أن تتفقّد البيت؟

– لا...

قالَت ذلك، بكلّ تأكيد، ثمّ أضافت:

– المواقف الوداعيّة تزعجني. أفضّل أن أنتظرك هنا، حتى نعود.

* * *

تحشره هذه المرأة، أبدًا تحشره في زاوية ضيّقة، في خانة التساؤلات. والآن. ماذا بعد؟ إلى اين تريده أن ينقلها؟

– إلى دار المسنّين... حجزتُ غرفتي نهار أمس. وبذلك، تلتقي أطراف الدائرة.

قالَت ذلك بهدوء. وأسندَت ظهرها جيّدًا. قبل أن تنطلق بهما السيّارة بالاتجاه المطلوب.

إلى «دار السعادة» تقودها خطاها، برضى وقناعة. وهي ليست عاجزة. لكنّها أتمّت واجباتها مع العالم الخارجيّ. وآن لها أن تبدأ الدخول، خطوة، خطوة، صوب العالم الآخر.

وغرفتها نظيفة، بيضاء، تشرف على تلك المساحات المشابهة في الخارج. وسوف تعيش فيما بعد الآن، في انسجام تامّ، إذ إنّها تشكّل نقطة اللقاء والانسجام، بين الداخل والخارج. بين الماضي ونصيبها الباقي من المستقبل. ولن يضايقها، بعد الآن، تناقض أو خلاف.

إنّه عالمٌ سعيدٌ... سعيد حقًّا، عالمها.

كان وكيل العقارات يروي لزوجته مغامرات يومه، ثمّ يتوقّف عند تلك النقطة العاصية على إدراكه... ويصمت. ويتذكّر أنّ سنوات محدودة لا تكفي، لكي يرتدِيَ المرء جلد المجتمع الجديد.

كندا 1987

ظلّها والمدينة

عمر ربما خمس عشرة سنة. وإذا حسَمنا منها تسعة أرقام يبقى في اليد ستة... تمامًا رقم سنواتها حين بدأت الحرب.

ماذا يظلّ عالقًا في ذاكرة طفلة دبّت فوق هذه الأرض ستّ سنوات من الحياة الطبيعيّة، ثمّ أغرقَت ما تبقّى من حياتها المفرغة من المحتوى والمعاني؟ المعبّأة بالخوف والرعب؟...

ماذا يعلق في ذاكرة الطفلة بعد مرور زمن الرعب الطويل؟...

لا شيء...

هي لا تذكر، ولا تحب أن تذكر، ولا تعرف، ولا يهمّها أن تعرف.

إنّها تحمل الآن حقيبتها الصغيرة، بعدما قضت ليلتَي قلق وتوقّع... تحمل الحقيبة المتدلّية من كتفها، وتشدّ عليها بيدها، وهي تصعد سلّم الطائرة.

هذه أوّل رحلة تقوم بها في زمن الحرب.

رفاق لها، صادفهم الحظّ – أو قلّة الحظ – وسافروا.

بعضهم قاموا برحلات ترفيهيّة، وآخرون أصابهم الترحيل القسريّ. وهي، تتلقّى، بكلّ الحواسّ المتيقّظة، الأخبار مع التعليقات. وتنبت في رأسها الأحلام، وظلال الأحلام. وتتوق إلى يوم، تعود فيه إلى ساحة المدرسة، أو إلى غرفتها المتواضعة في ركن من البيت، وتسرد لرندة، وزينة، ومايا، ودانية، ودونيز، ووليد وأورهان...

تسرد لهؤلاء جميعًا، كيف أنّها سافرَت هي أيضًا. ركبَتِ الطائرة وحلّقَت بعيدًا، وتجاوزَتِ الحدود المحترقة، وزارت مدنًا وعوالم جديدة، وتجوّلت في

الأسواق، والمناطق السياحيّة، والتقطت الصور التذكاريّة، وحملَتِ الهدايا... حملَتِ الهدايا.

* * *

دسَّت يدها داخل الحقيبة، وشعرَت بالفرح يسري في أدقّ عروقها... الجميع تآزروا، وساهموا في تمويل الرحلة، الأب، والأم، وكبار الأخوة... جميعهم وفّروا من مالهم وساندوها، وجعلوا تحقيق رحلة شهر غلى كندا، عبر لندن تزور خلالها الأهل، جعلوها أمرًا ممكنًا.

وإن كان زمن الحرب لم ينحسر نهائيًّا عن وطنها، إلّا أنّ هناك هدوءًا نسبيًّا يعمّ الأجواء، ومطار بيروت فتح، بعد إقفال دام أشهرًا أبديّة... وهي مسافرة...

* * *

ابتسامة عريضة ترحّب بها على عتبة الطائرة. الصبيّة العذبة تتأكّد من البطاقة في يدها، ثمّ تشير إلى اتجاهٍ عليها أن تسلكه كي تصل إلى مقعدها.

ومقعدها قرب النافذة.

كان هذا الشرط الأوّل الذي طرَحَته على شباك الحجز: مقعد قرب النافذة.

جلسَت بكثير من الطمأنينة والثقة بالنفس. ربما استنفرت كلّ القوى الكامنة في ذاتها، كي لا يبدو عليها الارتباك، وأنّها للمرّة الأولى داخل هذه المركبة العجيبة.

وضعَتِ الحقيبة عند قدمَيها، بعدما سحَبَت منها آلة التصوير. لن تُفوّت مشهدًا من المشاهد المنتظرة، على مدى رحلة تستغرق أربع عشرة ساعة طيران، وربّما أربعًا وعشرين ساعة سهر...

وهي ساهرة، يقظة.

تأكَّدَت من أنّ الكاميرا معبّأة (اتّكَلَت في ذلك على أخيها الأكبر، إنّما لريما شكوكها الخاصّة). اطمأنّت إلى أنّ الفيلم في مكانه، والعدسة مثبّتة، والنافذة تنتظر: «إربطوا الأحزمة... نبدأ الإقلاع بعد دقائق...».

وهي ربطَت حزامها مسبقًا. لا تريد أن يُلهِيَها أيّ نداء عن همّها الأوّل: تسجيل الرحلة بكلّ دقائقها.

* * *

تحرّك الطائرة بدأ بطيئًا، ثمّ ارتفع الهدير وعلا، وتضاعفت دقّات قلبها.

ركّزت عينيها جيّدًا، والكاميرا المتحفّزة بين يديها: لا يزال المشهد في الخارج عاديًا، لا يثير الاهتمام: طرق معبّدة، حولها تلال رمليّة، تكسوها شُجيْرات جفّفَتها شمس تمّوز...

لا، المشهد لا يُثير الانتباه، والهدير يتضاعف، ويخفّ ثقل كيانها... لم تعدْ ملتصِقة بالأرض. في أقلّ من ومض البرق، انتشلت المركبة العظيمة ثقلها من ملامسة التراب، وارتَفَت إلى فوق... وعينا ريما ترتفعان معها. وتبحثان عن شيء تحطّان عليه، ولا تُبصران سوى هذا المدى الأزرق، المرتبط بمدى آخر أشدّ زرقة، يشكّل العمق الأرضيّ له. وبرغم ذلك، ضغطَتِ الزرّ، وبرقَتِ العدسة...

* * *

ابتسمَت جارة مسِنّة كانَت جالسة بالقرب منها، وحاولت أن تُبدِيَ ملاحظة، قالت لها:

– لن يظهر شيء في الصورة... انتظري.

لكنّ ريما كانت قد تجاوزَت تلك السيدة، وجميع الناس المحيطين بها، وحلّقت مع الارتفاع الجديد، والذي وضع الطائرة على مسار آخر فوق الغيوم. وهنا بدأت رحلتها الأولى في عالم السحر والدهشة: تلال بيضاء تتلاصق وتتباعد. أودية وجبال. أشكال عجيبة، بعضها يشبه ما اعتادت أن تراه بالعين، أو في الكتب، وعلى شاشة التلفزيون. مخلوقات غريبة مدهشة وبعيدة.

أَوَيكون هذا مشتل القصص الرائعة التي قرأَتها؟

لو أنّ الطائرة تتريّث في سرعتها، فلا تخترق الأجواء اختراق الصاروخ، وتترك لها الفرصة، كي تتأكّد من شخصيّة أولئك الأبطال!...

لكنّها، لحسن الحظ، احتاطَت للامر، وأعدَّت آلة التصوير.

جارتُها في المقعد القريب لم تعد تستطيع ضبط النفس، دعَتها لتفكّ الحزام من حول خصرها، ثمّ استمهلَتها بلطف:

– حرام أن تصوّري الفراغ... انتظري حتّى نصل إلى لندن!...

تأمَّلَتها ريما طويلًا، لتدرك معنى قولها، ثمّ تذكّرت أنّ لندن ستكون محطّتها الأولى... وهي الآن مسافرة إلى لندن، وليس إلى الضياع، بين تلك الأدغال

الفوضويّة... أشكال الغيوم الرائعة.

* * *

ابتسمَت للجارة، وفكَّتِ الحزام من حولها، وتنفّسَت بعمق. ثمّ مدَّت يدها، وتناولَت كوب عصير من يد المضيفة وراحت تحتسي السائل البرتقاليّ ببطء؛ بينما عادت عيناها إلى هربهما عبر النافذة، فهذا ليس الفراغ، بل هو الدنيا التي حاولت بلوغها عشرات، بل مئات المرّات، في لحظات التأمّل، عندما كانت تبصر أسراب الطيور المهاجرة، تحلّق عاليًا، أو تمرّ بصمت فوق المدينة، أو فوق ذرى الجبال في قرى الاصطياف... وحاولت بلوغها مرتقبة درجات الحلم. فكانت تنجح مرّة وتفشل مرّات.

وجارتها تسمّي هذا المدى فراغًا!... ولا تتوقّف لتقرأ الدهشة في عينيها، بل تمدّ يدها إلى الطاولة الصغيرة، وتفتحها، وتومىء إلى الصبيّة كي تقتدِيَ بها:

– إنّه وقت الغداء...

التهمَت ريما ما قدّم إليها في الصحون والأكواب الصغيرة، دون أن تميّز في المذاق.

لقد اختلط حلو الطعام وحامضه، الأخضر منه والأبيض، وبات من الصعب على المرء أن يعرف الأصول التي منها انبثق هذا الغذاء.

إنّها وجبة واحدة. اختارت منها ما تألفه: قطعة خبز، وجبنة، وبعض الفاكهة. وعادت تطارد الأشباح الغماميّة وهي تتذكّر بطلًا آخر مشابهًا، قرأَت عنه قبل أيام، وكان يحارب سواعد الطواحين الهوائيّة، معتقدًا أنّها سيل من الجيوش الجرّارة... وكان يفعل ذلك بحماسة تفوق حماستها، وفي نيّته إنقاذ المظلومين من جور من ظلم.

أحسّت بابتسامة خفّية تنفرش في امتداد عروقها، كم هو طريف «دون كيشوت»!...

لو حضر الآن، وأبصر هذه الأشكال، لكان امتشق سيفه البرّاق، وراح يقفز فوق ذرى الغمام وقلاعه الحصينة!

ثمّ تذكّرت أنّ عصره لم يعرف التحليق فوق الغيوم ولا تحتها، لذا اكتفى البطل بشكّ سيفه في دورة الطواحين القديمة...

لو كان «دون كيشوت» ابن عصر الطائرات النفّاثة!...

* * *

صوت قويّ يعترض تيّار الخيال، والفكر الواعي، والذي ما وراء الوعي. إنّه صوت الربّان، سيّد الرحلة، والبطل الواعي الذي تسلّم له الطائرة زمام قيادتها. تسمع الصوت بوضوح، وتشعر بأنّ قلبها يكاد يقفز من مكانه: «سيّداتي، سادتي، شارفَتِ الرحلة على نهايتها، نحاول الهبوط في مطار «هيثرو»، الحرارة في لندن اثنتان وعشرون درجة مئويّة، الطقس غائم، بدون أمطار... أتمنّى لكم إقامة طيّبة».

قفزَت عيناها من النافذة. الطائرة تتلوّى فيرتفع جناح وينخفض الآخر. وتهبط تدريجيًّا، يشير إلى ذلك ارتفاع الضغط الجوّيّ، وعنين المحرّكات. وهي تتمنّى لو كان الانحدار بطيئًا، كي تتمكّن من التقاط المشهد كاملًا: السُّحُب تغلّف الجوّ، وهي تختلف عن الغيوم الرائعة التي تبني قصورها وجبالها، في الفضاء الأعلى... هذا ضباب رماديّ شفّاف، ينجلي تدريجيًّا ليكشف وجه الأرض: مدى من الزرقة، ثمّ اليابسة الخضراء: السهول والغابات. وربّما لا ترفع إصبعها عن الكاميرا. وتسمع صوت الجارة الفضوليّة:

– لو كانَت معك آلة تصوير سينمائيّ!... وهي لا تردّ ولا تعلّق... فالمناظر تتحرّك تلقائيًا، وتسبقها، وبينما تضغط الزرّ لتلتقطَ مشهدًا بالذات، إذا بها تصل إلى غيره، وبأقلّ من لمح البصر.

هذا لا يهمّ. كلّ ما تريده هو أن تسجّل بأمانة ودقّة معالم الطريق.

* * *

اقتربَتِ الطائرة من الأرض، فبدَتِ القرى والدساكر مثل حبّات ياقوت، فوق عقد من زمرّد. لم تتمالك ريما من إطلاق دهشتها في صرخة تجاوزت أذن الجارة، إلى المحيطين بها:

– لندن... إنّها لندن!

وضغطَت بقوة على زرّ الكاميرا... واكتفَتِ الجارة هذه المرّة بابتسامة صامتة، فالعدسة أخفَت بريقها، وهذا يعني نهاية الفيلم... وربما لا تلاحظ ذلك، واستمرّت تضغط وتُعيد، وعيناها تسابقان هبوط الطائرة، والأرض تقترب منها، وينقلب الجناحان الجبّاران، ثمّ يستويان، ويهبط الجسم الفولاذيّ، الثقيل

المادّة، والخفيف الروح... يهبط، مثلما أقلَعَ، بهدوءٍ يلامس الارض، وكأنّه أطراف أنامل مشتاقة إلى ملامسة وجه الحبيب، للسلام، ومسح آثار التعب والعناء.

خرج المسافرون، واحدًا تلو الآخر، وريما لم تتحرّك. ظلّت في مقعدها، إلى أن اقتربت منها المضيفة وقالت:

– بلغَتِ الرحلة نهايتها، يا آنسة... تفضّلي لإتمام المعاملات. وإذا كنتِ بحاجة إلى مساعدة، فسوف أوصي بك إحدى المضيفات.

تحرَّكَت ريما من مكانها، وانحنَت ترفع حقيبتها عن الأرض، قبل أن تردّها إلى كتفها، ثمّ تبعت الخط السائر باتجاه الأسهم المرشدة.

* * *

المطار حركة وضجيج. والناس أمامها وحولها من كلّ جنس وعرق. وصوت المضيفة يرطّب جفاف الجوّ. وهي تسألها الآن:

– هل هناك مَن ينتظرك في المطار؟...

وريما لم تفكّر بهذه المسألة. كان التحليق شاغلها. بل همّها الأوّل وظلّت مشدودة إلى خطّه بكلّ حواسّها، وصوت المضيفة يهبط كحدّ السكين، ويقطع عليها سرحة انسجامها:

– أجل، هناك مَن ينتظرني. صديقة لأمي تنتظر عند الباب الخارجيّ.

– وتعرفين كيف تُنهين معاملاتك؟...

– أجل، شكرًا.

انصرفَتِ المضيفة عنها. وبقيَت هي، في هذا الفراغ الموحش. ثمّ تذكّرت نصيحة ابيها: اتبعي الخطّ والإرشادات، مطار لندن في غاية التنظيم، ولن تضيعي.

بكثير من الجهد، حاولت أن تتذكّر النصائح التي تصلها بالواقع وتجعلها تتحرّك داخله بأمان، وأن تتّبع الخطّ البشريّ المتحرّك ببطء، ولكلّ واحد وجهته الخاصّة... وأن تنتبه للإرشادات، وأين يجب أن تنفصل عن الخطّ الجماعيّ، وتأخذ وجهتها. أي وجهة الأغراب عن البلد، وهي غريبة، وتزور لندن، في طريقها إلى بلاد أخرى. لذا لن تطول إقامتها هنا... بضعة ايام على الأرجح... بضعة أيام!

– أجل، يا سيّدي. أزور هذا البلد للمرّة الأولى.
سمعت صوتها يردّ على السائل وبعبارة أعدّتها باهتمام.
– وهل لديك ما تعلنين عنه؟...
سؤال آخر، نبّهها إليه الوالد:
– كلّا، سيّدي. لا أحمل شيئًا مما يوجب الإعلان عنه.
– تفضّلي.
ناولها الرجل الجواز، مع إشارة حياديّة من يده، كي تتحرّك، وتفرغ مكانها لمن ينتظر.
وبإشارة مماثلة، ومن زميل آخر، لرجل الأمن البريطاني، غادرت مطار لندن، بعدما قضَت في المدينة ثلاثة ايام، حاوَلَت خلالها أن تتعرّف إلى بعض معالمها.
ثلاثة أيام!...
يا للسخرية! لم تكن كافية، بالنسبة إلى سائحة نهمة مثلها... لم تكن كافية للتجوّل في واحدة من حدائق المدينة.

* * *

والصوت يُعلن عن موعد جديد لإقلاع طائرة أخرى، ستنقلها إلى قارّة تجهلها...
أحسّت بأنّها تقتلع نفسها من المكان اقتلاعًا، وتودّ لو تعلن لمن كان مستعدًّا ليسمع، بأنّهم خدعوها.
أولئك الذين أقنعوها لتقضِيَ في لندن ثلاثة أيام فقط، خدعوها، جعلوها تتذوّق الحلوى بطرف إصبعها، ثمّ رفعوا الطبق من أمامها.

* * *

لم تُبدِ ريما حماسة كبيرة لتصوير مشهد إقلاع الطائرة وهي تغادر مطار «هيثرو».
كان همّها أن تركّز نظرها، على سطوح البنايات، وتسجّلها في أعماق الذاكرة، لكي تجري فيما بعد، مقارنة سريعة، بين المشهد الطبيعيّ، وذاك الذي تعرّفته، من خريطة رافقَتها طوال الأيام الثلاثة الماضية.
وهي لا تفهم، حتى الآن، معنًى لتلك الدمعة التي أفلتَت من مقلتَيها غصبًا عنها، بينما المشهد يبتعد عن نظرها، ويغور، وهي تحلّق، وترتفع... وترتفع أكثر،

وأكثر، ويصبح جسدها في حجم المدينة، ثمّ تلمح ظلّها ينهمر، كدمعة صافية من دموع الغمام، فيحجب الرؤية، ويغلّف لندن بغلاف من ضباب.

بيروت 1984

ملح الأرض

شهدتُ احتفالهم.

نعم، في مكان ما، من هذه الكرة الأرضيّة، المهدّدة بالزوال، لا يزال الناس يحتفلون؛ يقيمون الأعياد، يلتقون في المناسبات، يخترعون المناسبات، ويُطلقونها الواحدة تلو الأخرى مع أسماء مبتكرة.

– إنّهم يديرون ظهورهم للشبح المتربّص بهم.

صوت الصديقة يُعيدني إلى الاحتفال... يُنبّهني، أنا، الغريبة في المكان والزمان، ويوقظني لأتابع السعي ومحاولة الفهم.

ابتسمتُ ولم أعلّق.

حسِبَتني لم أدرك معنى كلامها فتابعت الشرح:

– تعرفين قصّة النعامة؟... تدفن رأسها في الرمل، وتظن أنّها في أمان!... وهؤلاء الناس من حولك، يدفنون رؤوسهم في ضباب الدخان وأصداء المهرجان.

قلت:

– وخيرًا يفعلون. ماذا يُجدي العيش في قلق الترقّب والانتظار؟... «وإذا كانت المقصلة ستسقط على الرأس، فلتفعل وأنا واقفة».

– إنّها عبارة لإحدى كاتباتنا.

– وهذا لسان حالكم...

– وأنتم؟...

– نحن؟...

سألتُها، وغصَصتُ ببقيّة الكلمات.

لم تكن الفرصة مؤاتية لأردّد على سمعها سيرة عنترة وأبو زيد الهلالي... لأخبرها أنّ المطرقة سقطَت ومن زمان... على الرؤوس الواقفة، المرفوعة بإباء، وعلى الرؤوس الخاضعة، المحنية بانسحاق... وسقطَت على السنابل وأغصان الزيتون، وأطالَتِ التقطيع وغرس الجراح.

المناسبة احتفاليّة. ومُضيفتي تتألّق في ثوب أرجوانيّ بهيّ، وقد عقصت شعرها الأشقر تاجًا فوق الرأس، وتدَرَّعَت بدروع الجاه الاجتماعيّ: الفراء والحلى. نعم، البلاد باردة، وارتداء الفرو يبدو أمرًا عاديًّا. والناس يجتمعون به من الصقيع. كلّ الناس: الإسكيمو، الإنويت؛ الأغنياء الذين يختارون جلد «الفيزون» و«الشنشيلا» النادر. والفقراء الذين يكتفون بجلد ثعلب من مخزن للثياب القديمة... هنا، الطقس واحد على المجتمع، ويساوي بين أكتاف النساء، ظاهريًّا على الأقلّ، ولا يدرك الفرق سوى من كانت له خبرة في فنون الأناقة والأزياء.

* * *

والناس، في هذه القاعة المشعشعة بالأضواء يديرون ظهورهم للشبح المتربّص بهم. هذا ما تؤكّده المضيفة، عند منعطف الكلمات؛ ثمّ تتقدّم أمامي. تخطو بثقة؛ عنقها شامخ، ورأسها مرفوع إلى فوق، وعيناها تتألّقان بأنوار الفرح والبهجة، و«الشبح المتربّص»... بعيد عنها... بعيد.

– لا...

يرتفع صوتها المعترض بشدّة وتتابع:

– قبل أيّام، حشَدنا الطاقات والقوى الفاعلة، ونجَحنا في منع أكبر مؤسّسة من إقامة قواعد للرادار فوق أرض جزيرتنا... أمس، فقط، حدث تحوّل تاريخيّ في موقف الدولة من شعبنا، وانتصرت إرادة السلام. نريد أن تبقى هذه البقعة الصغيرة مكانًا آمنًا، بعيدًا عن الحروب، والقواعد الراداريّة والصاروخيّة – وبعيدة عن التلوّث الكيمائيّ و«التلوّث الحضاريّ»... نريدها، كما قال أحد زعمائها «أن تظلّ ساحة يلعب فيها الأطفال بعد غروب الشمس، ولا يخافون... ويخرج المزارعون إلى حقولهم، حيث تنتظرهم الأشجار الخضراء لا القواعد الصاروخيّة.

جزيرتنا هذه، المحاذية للقطب الشماليّ، سنبذل كلّ جهد لنبقِيَها أرض السلام والمياه النقيّة. الأرض التي يستطيع فيها الإنسان أن يغرس بيته، مثلما يغرس شجر التفاح».

* * *

آه! كم يُحرقني الكلام!... لا لأنّه كلام، بل لأنّ قائله يستند إلى قوّة منيعة ويتدرّع بدرع قويّة، هي إرادة الشعب.

آه! كم تحرق الكلمات!...

* * *

وأنا واقفة، في هذه الزاوية المعتّمة من قاعة تضجّ بالأنوار، والموسيقى؛ أراقب الناس يمرّون بي... وجوه غريبة تنزلق على شاشة الوعي؛ بعضها يلقي السلام تأدّبًا والبعض الآخر يعبر بصمت. واكتشف أنّ العين، حين تلتقي العين، يمكنها أن تقيم معها حوارًا بشريًا، إنسانيًّا، أبعد من حدود اللغة والكلمات.

وعيون هؤلاء الناس بسيطة، طيّبة، تحمل المحبّة، ولا تتعدّى حدودها... عيون هؤلاء الغرباء!...

* * *

وأنا الغريبة في كلّ المناسبات!

ما بالي أنسى نقطة البداية، وأُفلِت طرف الخيط من بين أصابعي؟...

فأنا مدعوّة إلى الاحتفال. أحمل في يدي بطاقة نادي السيّدات المهنيّات، والحفلة تكريميّة لواحدة منهنّ، امتهَنِت الإعلام عبر أقوى وسائله: التلفزيون، وأظهرت تفوّقًا، لا في إنجازاتها المهنيّة وحسب، بل وفي مواقفها الإنسانيّة، ومنذ ربع قرن.

إسمها «دورين»، أمّا اللقب فهو: لبنان.

* * *

نعم، هي من أصل لبنانيّ. قدّم والداها من ذلك البلد البعيد، وهما بين الروّاد الذين أسّسوا هذه المدينة. كان الطريق طويلًا وشاقًّا. وكانت لهما إرادة من حديد، وعزم الجبابرة، وتغلّبا. و«دورين» سارَت على الطريق عينه ولم تنسَ

الالتفات إلى الوراء. وها هي تعود من المدينة الكبيرة، إلى البلدة الصغيرة. محمولة في الأعين المحبّة.

* * *

اختاروها «إمرأة العام» وهو لقب تطمح إلى أن تحصل عليه كلّ واحدة من هؤلاء السيدات الكريمات، الفاعلات في مجتمعهن وحياة بلادهن. لكن الاختيار وقع على «دورين» الممتدّة الجذور في تربة ذلك البلد الصغير.

وقبل أشهر، اختاروا، عبر الانتخاب الديمقراطيّ الحرّ، رجلًا من وطنها، رئيسًا لحكومتهم.

هؤلاء الأناس الطيّبون لا يرفعون بينهم وبين الآخر حدود العرق أو الدين... وعلى الأخصّ، لا يقيسون الناس بحجم أوطانهم، بل يفتحون أعينهم جيّدًا على المساحة التي بنى بها الفرد، الاسم والكيان.

* * *

«حملتْ اسم بلدتها الصغرى عبر كندا. إنّها فخر لنا جميعًا... وهي إذ تعود إلينا الليلة لتحدّثنا عن تجربتها المهنيّة الناجحة، فإنّما تسجّل علامة في الوفاء والأصالة»...

صوت من فوق المنصّة، يقدّمها. وتقترب منّي المضيفة، تهمس في أذني: «لا تحسبيها اللبنانيّة الوحيدة المتفوّقة هنا. أبناؤكم وبناتكم فخر مدينتنا... ولكن أخبريني، ما هو سرّكم؟...».

سؤالها يمحو الأخطاء والخطايا. ويرفع عن صدري هذا الكابوس الرازح بثقله، منذ أن وضعتُ القدم فوق التربة الغريبة... سؤالها يدفعني خطوة أقرب باتجاهها، بل يحرّضني على الكلام. لكنّها لا تترك لي الفرصة، بل تتابع: «السؤال ليس ابن اللحظة... عاش في ضميري سنوات. وكان يقفز أمامي كلّما سمعتُ أحدهم يحكي لغة بلادكم، وكلّما تذوّقتُ طَبَقًا من أطباق مطبخكم العامر بالنكهة الفريدة، وكلّما – خصوصًا – كلّما شمَمتُ عطر أعشاب، تستخدمونها في تطييب الطعام. قولي: ما هو سرّكم؟...».

* * *

تركتُها هي تتحدّث، وأصغيت بفرح... كانت كلماتها تنزل فوق صحراء نفس ظمأى، وتنزل مثل قطرات المطرة ألاولى، لتغرس الفرح والرجاء...

منذ أجيال لم أسمع أحدًا يمتدح أهلي، وأبناء عشيرتي؛ خصوصًا في بلاد الغرباء... فلتتابع المرأة، لتمحوَ بالكلمات – ولو بالكلمات فقط – تلك الظلمة الثقيلة، التي تلفّ الوعي، من كلّ وجوهه...

وسمعتُها تستأنف، غير آبهة لشرودي: «لا... الطعام هو ذريعة لبلوغ الأعماق. هناك سرّ، ولا شكّ، يميّز شعبكم؛ وإنّني مع زوجي وأبناء بيئتي، نبحث عنه منذ ثلاثين سنة؛ أي منذ أن تعرّفنا إلى أوّل عائلة لبنانيّة انتقلت إلى حيّنا... وهذا ما دفعني لأدرس تاريخ البلاد، حضارتها، وعاداتها وتقاليدها، ولم أوفّر اللغة والطعام، وكلاهما صعب منيع. وبالطبع لم أحصل حتّى الآن على الجواب... ولم ينكشف لي السرّ.

وفي يوم، وبينما كنّا في مثل هذه المناسبة، لتكريم إنسان من قومكم، اقترب مني رجل تجاوز العقد السابع من العمر، وعمل طوال حياته في مهنة القضاء والمحاماة... ذلك الرجل، كان هو أيضًا يحمل السؤال، كي يطرحه على أقرب إنسان في الجوار. وصدف أنّي كنت ذلك الإنسان... هل تعرفين ماذا سأل؟... بالطبع وجّه السؤال إليّ:

– هؤلاء الناس، ما هو سرّهم؟

ولم أتمكّن من ضبط نفسي، فضحكتُ. وقبل أن يسيء فهمي قلت له:

– يا سيّدي، إنّه السؤال الذي أبحث له عن جواب... والآن صِرنا اثنين.

فعاد يتابع بجدّية ألزَمَتني الإصغاء إليه:

– منذ خمسين سنة، وأنا أعمل في المحاكم، ولم تقع بين يدي، ولو مرّة واحدة، قضيّة أو دعوى ضدّ أحدهم. هؤلاء الناس ملح الأرض. هكذا أسمّيهم، ببساطة وراحة ضمير.

شعرتُ بأنّ غشاوة لازَمَتني سنوات بدأت تزول عن عينيّ، فأبصر الحقيقة، كما عبّر عنها إنسان لا أعرفه، ساقَته المناسبة ليقف مثلي، يتأمّل، ويتردّد، ثمّ يعثر على الصفة، ويرتاح.

ملح الأرض...

أذكر كلامه الليلة، وعزيزتنا «دورين» ترتقي المنبر، لا لتتقبّل آيات التكريم والتقدير وحسب، بل لترسم لنا خريطة المسافة التي اجتازَتها، خطوة خطوة، في مسيرتها التصاعديّة، مهتديةً بخريطة سبق أن رسمها السلف، وظلّت تقودها إلى منابت الجذور».

عند هذا الحدّ، صمتَت مضيفتي وصديقتي، وشعرتُ بأنّي نلتُ أكثر من استحقاقي... كلماتها كانت عباءة سخيّة دافئة لفَّتني، وغمرَت صقيع قلبي. ودَدتُ، في تلك اللحظة، لو أغادر القاعة، وأبحث عن ركن قصيٍّ، مظلم، ومنعزل، أسكب عنده دموعًا فارت قسرًا عن الارادة، وخارج حدود المناسبة.

* * *

وهذا ما فعلتُه في اللحظات التالية، غير مبالية بنصوص البرنامج: غادرت القاعة، خرجت من الأنوار والموسيقى والصوت العذب؛ صوت «دورين» ينهمر من فوق المنصّة، ويحمل الجمهور إلى مناطق الدفء والحنين، ويروي تجربة عمرها ربع قرن. ووقفتُ في الممشى الفارغ الغبيّ، والمحاذي للقاعة، وبكيتُ، حتى شفيتُ غلّتي. وفيما كنت أحاول العودة إلى الداخل، استوقَفَني رجل، اختار الجلوس على باب القاعة. حسبتُه، بادىء الأمر، أحد الحرّاس، خصوصًا وأنّ الحضور نساء، عدا اثنين أو ثلاثة من الأزواج الأوفياء... لكنّه لم يلبث أن أزال سوء الفهم حين بادرني:

– القاعة مكتظّة، وأنا مصابٌ بضيق النفَس. لكنّي لا أريد أن تفوتني فرصة سماعها، فاخترتُ هذا المقعد... دعَتني زوجتي إلى مرافقتها، ولم أندم... هذه امرأة محظوظة. مع كلّ عبارة تنتقل إلى الجذور... وتغرز خنجرًا في صدري...

حسبتُ الرجل يهذي من سكرٍ أو فقدان الوعي؛ لكنّه عاد وفاجأني بالعبارة التالية:

– جميعهم أناس محظوظون!...

سألته، وقد أثار كلامه فضولي:

– ومَن تقصد بصيغة الجميع، يا سيّدي؟...

قال:

– من خلال «دورين»، تكرّم جذور وفروع... طوبى لمن يعرف أين نبتَت جذوره الأولى!...

– لم أفهم مغزى كلامك؟

قلتُ متابِعةً معه حوارًا مفاجئًا، خصوصًا حين لاحظتُ هالةً من الغموض تُحيط بالرجل، تلفّه وتنفر من عينيه... فعيناه أبدًا في حالة ترقّب وانتظار وكأنّما تبحثان، من زمان، عن مفقود. ولا تزالان... تابع حديثه وكأنّه يخاطب نفسه:

– الذي يعرف أصوله وحده يمكنه أن يشعر بالسعادة إلّا...

– ماذا؟...

قاطعتُه دون أن أقصد... كان صعبًا عليّ أن أجتاز عبارة معترضة. قصّة تنبت داخل القصّة. إنسان، يأتي من حيث لا أدري يعترضني، ويبدأ يسكب في سمعي، كلامًا يُخفي أكثر مما يُبدي.

عدتُ إليه بسؤال مباشر:

– وأنتَ مَن تكون؟

قال:

– أنا مَن لا يعرف له أصلًا ولا منبتًا. أنا إنسان مجتثّ الجذور.

– ولكنّك...

لم يترُكني أتابع، أكملَ هو الكلام:

– عفوًا إذا قصَّرتُ بتقديم نفسي: اسمي «براود» تعرفين معنى الاسم، أي المتكبّر. الاسم من اختيار الوالد. «شلحه» فوق هامتي، ورحل. اسم ثقيل، يا سيّدتي... كيف يمكن لإنسان يجهل كلّ شيء عن منبت جذوره، ولا يعرف اسم البلد الذي هاجر منه أبوه، كيف يمكنه أن يسير بين الناس، حاملًا اسم الكبرياء، وكأنّه علامة فارقة. وعلامة للتعويض؟...

أرهفتُ سمْعي أطلب المزيد، ولم يبخل.

كان يسند كتفه إلى الجدار، وقد غادر المقعد، ووقف منطويًا على نفسه، فبدا لعينيّ، في تلك اللحظة بالذات، شجرة، اجتزّت للتوّ من جذورها الأصيلة، وظلّت واقفة، في حالة ارتجاج دائم... ولمحتُ في عينيه دموعًا، تتجوّل في المآقي، ولا تنهمر... وفكّرت: الدموع تكابر.

تابع الرجل السرد، وكأنّما أتَته فرصة، لم يشأ تفويتها: وُلِدت هنا، في هذه البقعة المحاذية القطب الشماليّ. وما كدتُ أجتاز مرحلة الطفولة حتى فقَدتُ

أبويّ، ولم يكن لي أقارب سواهما. وهكذا نشأتُ يتيمًا، لكنّي لم أنسَ لحظة اسمي ومعناه، فسعيتُ كي أبقى جديرًا به؛ وحقّقتُ في الدنيا نجاحًا كبيرًا. صرتُ من رجال الأعمال المرموقين. وتزوّجتُ امرأة أحبّها، وأنجَبنا البنين والبنات. لكنّ لهبة غامضة، وخفّية، ظلّت تشتعل في الداخل، وتحرقني لفحاتها عند كلّ موطىء قدم. وينطلق السؤال من كلّ الجهات، يجلدني كالسياط: مَن أكون؟... ومن أين قدم ذلك الرجل الذي غرسَني نبتةً غريبةً في تربة الغربة... من اين جاء أبي؟...

وأقفز أمام المرآة، أتفرّس في وجهي، أدرس ملامحه، وأحاول أن أكتشف، عبر لون البشرة وشكل العينين والأنف، والفم، وعبر الشعر الفاحم الأملس، من أيّ عِرق انحدرتُ!...

لم تكن المسألة مطروحة بهذه الحدّة في مطلع الشباب، حين كان الجهل سيّدي، وحين كان الطموح مهمازًا في خاصرتي، يسوقني لأسيرَ، ولا أتوقّف، وأبقى في حركة دائمة تمشّيًا مع حركة الكون الذي يدور بي. وكلّما تعبت أو كُدتُ أسقط وأرزح تحت حمل المسؤوليّات، كنت أتمسّك بالاسم، مثلما يُمسك الغريق بحبال الخلاص... ونجحتُ، ولم أسقط. الصورة الخارجيّة تبدو جميلة؛ فهناك المركز والجاه، والمال والعائلة... وتلك السيّدة الأنيقة فوق المنصّة، هي زوجتي. ولا تزال تحبّني، وأحبّها برغم انقضاء عمر على زواجنا. إذا جمعت هذه العناصر أصبح أسعد رجل في الوجود. ولكن ما تكاد يدي تلامس نقطة فوق الصدر، حتى أشعر بأنّ الجدار الخارجيّ يتزعزع، ويقودني مباشرة إلى اللهبة المشتعلة في الخفاء.

وارتدّ على نفسي.

في بعض الحالات أحاسبها، أثور عليها، وأعنّفها، ثم أشعر بتأنيب الضمير وأتراجع. وأبقى في منطقة المدّ والجزر إلى أن تُنهك قواي. فأرتمي في نوم يشبه الخدر الأسود.

ويا سيّدتي: إنّ المرء حين يحاول أن يخدع الآخرين، قد ينجح، وربما نجح، إلى حين، في خداع نفسه، لكنّها لا تلبث أن تثور، وترتدّ عليه، وتندلع ألسنتها المحرقة فتطال رموش عينيه.

رحمة الله على الوالد، روى لي قصة اغترابه بالألغاز، وتركني أقضي العمر في محاولة فكّ اللغز.

روى لي أنّه جاء من بلاد بعيدة. قال: إنّها محاطة بالجبال العالية، والأحراج الكثيفة، وأخبرني أنّ الشمس تشرق فيها طوال أشهر السنة. لم يذكر مرّة اسم القرية أو المدينة، أو حتى اسم البلاد. واكتفى بهذا القدر من الصفات العامة. ربما فكّر في أنّه سيتابع القصّ في المستقبل... في غدٍ لم يأتِ أبدًا.

وهكذا رحل، وترك لي، أنا خليفته الوحيد، أن أبحث عن الأسرار، وفي أرذل مراحل العمر. فهذا العام أحالوني على التقاعد، إذ تجاوزتُ العقد السادس من العمر. وصارت الأيام تمرّ ببطء، والليالي... وازداد الأرق، والتساؤل. وزوجتي تحسبني رجلًا خياليًّا، يضخّم المشكلة.

زوجتي، تلك السيّدة الأنيقة، عاشت طفولة عاديّة، بل سعيدة. حولها الأهل والأخوة والأخوات، وما خلّفوا.

عباءة الأنس غمرها جسدًا وعاطفة. ولن تستطيع، مهما اقتربَت منّي، أن تُدرك معنى أن يكون الإنسان شجرة بلا جذور.

وزوجتي مستمرّة في الأولاد؛ كذلك هم أولادي. وصلتي بالغد، والأيام التي لن تبصرها عيناي. ولكن حين ألتفت إلى الوراء، يتراءى لي ذلك الخطّ الطويل الذي يقودني أبدًا إلى الفراغ.

وهو غير الخطّ الذي تمتطيه الليلة «دورين» وتتمسّك به، بثقة وإيمان... تأمّليها، كيف تقف فوق المنصّة، لترسل كلامها من أعماق الكيان، فتتلقّفه أسماع شهود، على الأصل والمنبت».

* * *

أصغَيتُ إليه وأنا في تلك الحالة من التشتّت، وتأنيب الضمير؛ إذ كنت موزّعة بين محاضرتين، وبين عالَمَين.

وأعادني إلى الجوّ تصفيق حادّ، تردّدت أصداؤه في أرجاء القاعة؛ فاستأذنتُ الغريب، وهرعتُ عائدة إلى مقعدي المحفوظ بقرب الصديقة، وأنا أُعِدُّ عبارة اعتذار أشرح فيها سبب تغيّبي. لكنّها لم تلتفت إليّ، بل شعرت بأنّها لم تلاحظ غيابي، إذ كانت نظراتها مشدودة إلى المنصّة، وسمعها يتابع تسجيل الكلام.

وقفَت تصفّق بحماسة، أسوة بالجمهور المأخوذ بسحر الحديث؛ وربما، لتُشركني في بهجتها، التفتَت صوبي نصف التفاتة وقالت:

– أَوَلَم تكن رائعة؟...

كان جوابي إيماءة إيجابيّة علامة الموافقة، ثمّ شعرت بأنّ يديّ تتحرّكان تلقائيًّا لتشاركا في التصفيق، ولم تتوقّفا، حتى بعدما كلّ الآخرون، وخيّم الصمت على القاعة.

ولم أَعُد أتساءل إذا كان تصفيقي موجّهًا إلى ابنة البلاد المفاخرة بجذورها، على بُعد المسافة، أو إلى ذلك الرجل الذي أيقظ في نفسي معنى أن يكون الإنسان مرتبطًا بجذور، حتى ولو انتشر ليصبح... ملح الأرض.

كندا 1987

اغتراب الذات في الذات

الكابوس

الستارة

أندرو ميدا

الدبا

الحالم

الشوق

الظل الآخر

الكابوس

لا أذكر من المكان سوى مداه الرحب، وسلالم تحيط به من كلّ الجهات، وهي لولبيّة الشكل حينًا، ومستقيمة في معظم الأحيان.

وكنتُ في جماعة من الأصدقاء، يصعب عليّ أن أتذكّر أسماءهم الآن.

لكنّهم أصدقاء، بكلّ ما تعني الكلمة، والبسمة واللفتة واللمسة المنعشة، والحضور.

وكنت في نعيم من الأحاسيس الدافئة، لا يُزعجني برد أو حرّ، جوع أو تخمة. ولم يكن هناك ألم أشكو منه.

ارتمَيتُ وسط تلك النعمة في بحيرة الهناء، لا همّ يعكّر المزاج، ولا ثقل يشدّ القامة إلى التراب، ولا ظلمة تنفرش في ثنايا الضمير حتى تكاد تمحوه.

* * *

كنت قريبة من السعادة، ومن ذلك الشعور بالنشوة، والذي يحسّه المرء عادة في الأحلام، حتى إذا عاد إلى دنيا اليقظة، سرعان ما يتلاشى وينسحب من مسامّ كيانه، ويضيع منه.

ويمضي هو في البحث عنه، ومحاولة استرجاعه. لكنّه عبثًا يبحث؛ فالأحلام تأكل الأحلام، وتلفظُنا، مع انبلاج الفجر، ويقظة الصباح، كائنات نصف واعية، تدبّ على اثنين، أو ثلاثة أو اربعة. وتسعى وراء الرزق وتسعى:

لتجد لها مكانًا تحت شمس الواقع،

موطئًا للقدم.

ومسندًا للرأس.

وتبحث
عن الأذن الصاغية
والعين البصيرة
واليد الحانية
والقلب الرحوم.

* * *

من أعماق الحلم أنا عائدة الآن. أنتشل نفسي، والفرح يغمرني، مثلما تغمر المياه الباردة جسدًا تُلهبه الحرائق، فتُعيد إليه الانتعاش ونسمة الروح.

بل من أعماق الكابوس.

* * *

كنتُ، في ذلك المكان الغريب؛ في مدى لا يحدّه النظر، وهو خالٍ من أي فرش. تحيط به السلالم؛ بعضها يُستخدمَ للصعود، وبعضها يوصل حتى أعماق هاوية لا قرارة لها.

وكنتُ محاطةً بجماعة من الاصدقاء، وجوههم تقطر رحمة وفرحًا.

اقترح أحدهم أن نمضِيَ لتناول الطعام في داره. كان الوقت ظهرًا، ولم تكن هناك أعمال تنتظر التنفيذ.

فوافقَه الجميع.

لم ترتفع إصبع بالاحتجاج أو الرفض. وهكذا سِرنا، كتلةً متراصّةً من كيانات تقاربَت، حتى كادَت أن تصبح كيانًا واحدًا، برغم فوارق الطول والقصر. ومضَينا نتدحرج مثلما تتدحرج الكرة فوق أرض مسطّحة.

وفجأة برز لنا اثنان.

رجلان غريبان عن الجماعة، راحا يقتربان منّا، بخطًى ثابتة، وبكثير من الثقة بالنفس، حتّى إذا بلغا مقرّنا، مدّ أحدهما يده، وأمسك بذراع رجل من جماعتنا، وراح يشدّه صوبه. ولم يكن بحاجة لأن يبذل جهدًا كبيرًا في ذلك السبيل؛ فالرجل انتقل بسهولة واستسلام كلّيّ، وبات رهينة في أيدي الغريبَين.

قلتُ لأقرب الناس منّي:

– إنّه أبي... إلى أين يقتادونه؟...

وكأنّما الكلمات انطلقت مباشرة، لتصبّ في سمعه؛ التفتَ إليّ، وعيناه ترشحان طمأنينة ورضًى، ثمّ تمتمَت شفتاه:

– لا تخافي... أنا ذاهب في مهمّة.

– صدقتَ.

علّق أحد الرجلين. ثمّ التفت صوبي موجّهًا كلامه إليّ:

– إنّه ماضٍ معنا، في مهمّة. نحن بحاجة إلى خبرته.

ومع قفلة الكلمة الأخيرة، لفّ ذراعه حول الجسم الفارع، واقتدى به رفيقه من الجهة المقابلة، ولم يلبث الرجل، الذي هو أبي، أن أصبح رهينة خاضعة لمشيئة الغريبَين.

* * *

لم يكن في يدي حيلة، ولم استطع القيام بعمل مُجدٍ.

فأنا محكومة بالزمان والمكان. أنا الشرنقة، وجدران، مثل أصابع القدر، تحيط بي، من كلّ صوب. وتعزلني عن كلّ قدرة إيجابيّة. واختفى كلّ أثر لجماعة الأصدقاء المدعوّين إلى الغداء في دار أحدهم. وبقيتُ وحيدة في ذلك المدى البلقع.

وهكذا لم أَجِد ما أفعله سوى البكاء. رحتُ أبكي من أعماق كياني. وأبكي بخوف ووحشة، بكاء الأطفال؛ بل بكاء مَن فَقَدَ عزيزًا، ومعه، انتزع منه الرجاء وأمل الحياة.

لستُ ادري كم طال زمان بكائي؛ لكنّي واثقة تمامًا، بأنّي صرت، بعد فترة زمنيّة قصيرة، غارقة في بحر من الدموع. وكانت الدموع تهمي من عينَيّ، وتجري أنهرًا غزيرة، لتصبّ في بحر لا حدود لعمقه واتساعه، ثمّ تعود إليّ، أمواجًا عاتية، تكاد أن تبتلعَني، وتغيّبَني بين ثناياها. وأنا لا أملك حيالها، سوى المزيد من سكب الدموع.

كنت أبكي بوعي وتأكيد، غياب الرجل الذي خطفه الغريبان، والذي تلاشى واضمحلّ، وعيناه تنظران إليّ نظرات العطف والرضى، وشفتاه تؤكّدان بلطف وإخلاص، أنّ ما يحدث لا يهدّده بأيّ خطر. وهو في عهدة أصدقاء، لا يريدون به أي سوء.

* * *

وكنتُ أبكي عجزي، وعجز مَن حولي؛ فأنا لم أتحرّك، أو أمدّ يدًا للإنقاذ.

كما أنّ الجماعة، التي تشبه كتلة متراصّة، أو تشبه كرة تتدحرج فوق أرض مسطّحة، لم تُبدِ أيّ اهتمام.

وأنا لم أَقُم بمحاولة تختلف عن مسلك الآخرين.

لم أفجّر شكّي أمام الغريبَين.

لم أقل لهما إنّ تصرّفهما ليس جديدًا عليّ؛ فهكذا كانت الذئاب البشريّة والوحوش المفترسة، تتصرّف حيال ضحاياها، ومنذ ما قبل التاريخ... من حين كان الإنسان الأوّل نزيل الكهوف والمغاور، ومنافسًا لها على الصيد في أعماق الغابات.

وأقول لهما إنّما الوحوش تتميّز عليهما بالشرف والصدق؛ فهي لا تخدع فريستها، بل تواجهها بصراحة وبكثير من الشجاعة، وتترك لها الفرصة كي تُبرز قوّتها، وتدافع عن نفسها إذا استطاعت إلى ذلك سبيلًا.

* * *

لكنّي جبنتُ.

أعترف، بذلٍّ ولوعة، بأنّي كنت جبانة. وبقيتُ في مكاني. والجماعة لم ترفع باتجاهي إصبع النجدة.

توارَت وتلاشَت مثلما تتلاشى ذرّات الدخان، وتركَتني في وهني وعجزي، وقد رزَحَت بي ساقاي، ولم تعودا قادرتَين على حملي.

كان بودّي أن أتبع خطى الغريبَين، لأشهد إذا كانا ينطقان بالصدق؛ وهل هما حقًّا بحاجة إلى خبرة أبي، وأنا أسأتُ بهما الظنون؟... أو إنّها خدعة كلامية اعتمداها، ريثما تغيّبهما خيمة الظلام؟

ولكن، أين سبيلي إلى تحقيق الغاية؟

وكيف أخرج من هذا الغمر، والماء يحيط بي من كلّ الجهات، ودموع عينيّ تزيده عمقًا وارتفاعًا؟...

* * *

أخيرًا، قرّرتُ أن أتوقّف عن البكاء. أو أنّ الدمع جفّ في المآقي؟...

كلّ ما أذكره، أنّي فتحت عينيّ، فجأة، فلم أُبصر شيئًا؛ لأنّ الظلمة كانت تعمّ الغرفة – الشرنقة – التي تطوّق كياني. ثمّ راح بصيص نور ضئيل، يتسرّب عبر

ثقب نحيل، لم يلبث أن ازداد اتّساعًا.

إنّه الفجر!...

قلتُ في ذاتي اللاواعية وأعدتُ: إنّه الفجر، وهذا يعني أنّ الخلاص بات قريبًا.

ومددتُ يدي أتحسّس محيطي، وأفتقد المياه الغامرة، وفوجئت بالغمر وقد انحسر من حولي، وخلّفني ممدّدة فوق سرير عاديّ.

إنّها أضغاث أحلام. قلتُ لذاتي الواعية، وكأنّي أقوم بتجربة وأنتظر ردود الفعل. فسمعتُ صوتًا يهدر في أعماقي:

– بل هذه كوابيس، عناصرها الماء المالح والظلام.

أجبتُ مستبشِرة:

– أحمد الله ألف مرّة؛ لقد خرجتُ منها بسلام!...

* * *

أنا سالمة. لم أفقد عضوًا من جسدي، أو حاسّة من أحاسيسي. ولكن أبي، أين أجد أبي؟... أين تركتُهُ، وماذا جرى له؟ أَوَلا يزال أسير الغريبين؟ وهل خطفاه ليبقياه رهينة، لقاء استرداد عزيز مخطوف من بينهم؟...

الأسئلة المستحقّة تنهمر من ذريرات الظلام، وتتساقط عليّ، كثيفة، عنيفة كرشق البرد.

نفضتُ الغطاء، وقفزتُ من سريري، ثمّ هرعتُ إلى النافذة، ورحتُ أزيح الستائر، وأفكّ عقد الظلام. كانت الشمس مشرقة، ولا أثر لعواصف الليلة الماضية فوق وجه النهار الجديد؛ فالسماء صافية الزرقة، والبحر هادىء، راقد بعد هياج أيّام، وثمّة طيور بيضاء تحوم فوق سطح الماء، والشارع المقابل، ينفتح مُرحّبًا بالعربات والمشاة.

– إنّه يوم عظيم. كأنّه اليوم الأوّل في الوجود.

العبارة تسقط في سمعي من حيث لا أدري، فيعترض الوعي:

– ما شأن الطبيعة بما أنتِ فيه؟ إنّها محاولة جديدة منك، للهرب.

– بل محاولة إنقاذ!... الحلم كان الهرب، وها أنا أعود إلى قلب اليقظة.

– واليقظة هرب من نوع آخر.

* * *

واليقظة تغلّف جدران الوعي، وتسقط فوقه أثقال الواقع. ويتلاشى الظلام أمام غزو النور الساطع... نور الحقيقة.

أوتكون الحقيقة، هذه النقلة الجديدة، وأنا أهمّ بفتح الباب لملاقاة الجماعة المتجمهرة في شارع الحركة والحياة؟

أبصرتُهم، واحدًا، واحدًا. كلّ الذين رافقوني في الحلم، ثمّ تواروا وتركوني في المدى البلقع، وفي وحشة الهجر والغربة.

وهذه المرّة، لم اقترب منهم؛ كانَتِ الجراح لا تزال مفتوحة، واللهيب يحرق الأحشاء.

أدرتُ نظري في الاتجاه الآخر، حيث توارى الغريبان، اللذان أحكما قبضتهما على جسم أبي.

لم أُبصر لهما أثرًا، ولم يأتِني أي خبر يُعلمني بمصير المخطوف.

* * *

لكنّ موجة رياح جديدة، تهبّ عليّ، من ذرى الجبال العالية، حيث تتسابق النسور لبناء أعشاشها. وتتسلّل الرياح، عبر خياشيمي، حتى أعمال كياني، لتزيل أغشية خلّفتها دهور من اليقظات والأحلام. وأتذكّر أنّ أبي لم يكن هناك حين وصل الغريبان.

يستحيل أن يكون المخطوف أبي، لأنّه...

لأنّ الرجل الذي كان سبب وجودي والذي حملَتني ذراعاه كي أعبر المنطقة المستحيلة بين الغيب والمجهول، والولادة المعقولة، كان قد رحل عن هذه الفانية منذ سنوات... وبالطبع، قبل أن تبدأ رحلتي مع الجماعة.

ورحل، مثلما ترحل الطيور، في نهاية مواسم الدفء، ومع حلول مناخات ثقل التراب، وينفضه عن جسمه اللطيف، ذرّةً، ذرَّة. لم أكن بقربه؛ لذا لم أبصر كيف تسلّل الغريبان إلى داره، واقتاداه، بالحيلة، إلى المجهول.

وهو، لصفاء في السريرة، وطيبة في القلب، وبراءة في الذمّة، وترسّخ في الإيمان، ولأسباب أخرى لا يتّسع لها مقام الكلام، صدّق الرواية، وسار بينهما، ظانًّا أنّ اليد التي امتدّت تصافحه، هي يد الصديق، وجاهلًا أنّ خلف كلّ إصبع من اصابع تلك اليد، يختبىء ألف جلّاد.

* * *

من حسن حظّي، أنّه كان كابوسًا، جثَم فوق صدري، مع حلول الظلام وإغماضة الأجفان.

وشعرتُ به، يسحق أضلعي، ويخزّني في سواد عينيّ، فتجري الدموع أنهرًا.

كان كابوسًا.

هذا ما أكّدَته لي اليقظة، وعين النهار الجديد تنفتح وتُطلّ من خلف الانهيارات والخرائب؛ تشير إليّ مؤكّدة أنّ فرحي ليس عبثًا. فرحي باليقظة، بالقيامة. كان في موضعه.

كان أبي قد مات.

ذات أمسية خريفية، رفّ بجناحيه، مثل نسر أتعبَته الإقامة في الأراضي المنخفضة، وحلّق، تابعًا خطّ نور رسمَته يد القدَر.

وأنا؟... أحمد الله أنّ موته كان سابقًا لزيارة الغريبَين.

بيروت 1985

الستارة

أذكر أنّي بدأت أكتب هذه القصّة قبل عشرين سنة. وكان الوقت مساء...

لا... كان الوقت ليلًا... منتصف الليل على وجه التحديد.

كنت وحدي، في غرفة موصدة النوافذ والأبواب، وبدأت أخطّ الأحرف الأولى من الحكاية، بعدما أسقطتُ «الترجومة» للتأكيد على أنّ القصة الحديثة تبدأ مباشرة.

تصفعك بين عينيك.

تهزّ الوعي، وتوقظ التيّارات الراقدة، وتحزّ كمبضع الجرّاح في اللحم الطريّ، مباشرة، دون حواشٍ أو مقدّمات.

وفي حينه، كنت أعارض أسلوب الجدّات في سرد الحكايات، و«كان يا ما كان» و«عن شكي عن بكي» وإلى ما هنالك من ضباب يغلّف الحكاية، ثمّ يسجنها داخل شرنقة التقاليد، لتبقى مكبّلة، مصبّرة، بعيدة عن معابر الحسّ والوعي، مفتوحة على عوالم الرؤى والأخْيلة.

* * *

في تلك الليلة بالذات، أعددتُ قلمًا خاصًّا، ينزلق فوق الورق، مثلما تنزلق حبّات الزئبق على صفحة صقيلة. والورقة تستقبل البوح بشوق عاشق ملهوف... ونفسي، في حينه، غمامة تكاد تنفجر بثقل الحمل؛ وقد حملَته منذ الطفولة الباكرة، وعبرَت به دروب السنين، وظلّ ثقلًا، يشدّني من رموش عينيّ.

وبدأت أكتب لأنزع الحمل، قطعة قطعة، وأذرّيه للريح. أحمّله لتموّج الأثير كي يبتعد، ولا يعود يلامس ثنايا الذاكرة.

حاولت أوّلًا أن أرسم وجه البطل. (طبعًا للحكاية بطل) وكان غافيًا في خبايا اللاوعي، لاطيًا من أيام الطفولة في سكينة الأعماق.

كان وجهًا آخر من وجوه أناس عرفتهم باكرًا في حياتي، وفي قريتي الوادعة «جورة السنديان».

لم أجرؤ على الاقتراب منه حين كان على قيد الحياة، ولا تجرّأ أحد غيري.

كانت صرخاته المدويّة بين أرجاء الكروم والغابات، تُجمّد الدم في عروقنا، وترسل القشعريرة في مسامّ جلودنا؛ ونحن الصغار الأشقياء، التائهين أبدًا بين الأزقّة والدروب الموحشة. وتدفعنا لنهرب من أقرب السبل، ونحتمي في أحضان الجدّات أو الأمّهات.

كما إنّي لم أجرؤ مرّة واحدة أن أطلع الوالدة، على ما حدث لنا، في ذلك اليوم، حين لبَّينا دعوة سمر، ابنة البطل، ورفيقتنا في المدرسة، لنقوم بزيارتها في بيتها.

وكانت سمر طفلة من جيلنا، تذهب، مثلما نذهب نحن إلى المدرسة. تلعب في الأزقّة، وتمرح في الساحات، وتمتطي قصبة، يُصوّرها لها خيال الطفولة حصانًا أصيلًا، وتطلق لساقَيها العنان.

* * *

قالَت:

– أدعوكم جميعًا إلى بيتي.

وأصرّت، وحدّدت لذلك موعدًا. وقبِلنا الدعوة، بدافع التحدّي وحبّ المغامرة، ثمّ لنكسر ذلك الطوق الذي طوَّقَت به وجودَنا أَلسُنُ الثرثارين من أهالي القرية؛ وقد صوّرت لنا بالتأكيد واليقين، أنّ أرواحًا من خارج كوكبنا الأرضيّ، تسكن بروح الرجل، وتدفعه إلى القيام بأعمال لا يمكن أن يتصوّرها العقل السويّ.

وقد سبق لنا أن خُضنا جولات الحوار حول موضوع «الاقتحام» والقدرة على مواجهة «السبع» في عربته، حتى ولو هدرَت في أسماعنا تلك الصيحات الراعدة، والتي أكاد أسمعها الآن، وبرغم مرور الزمن، وهي تدوّي بين الغابات

وكروم التين والعنب، حيث اختار تمرَزْ أن يقيم، غير مبالٍ بحرّ الصيف وصقيع الشتاء.

وكان يعود إلى منزله كلّما خطر له ذلك، فيتزوّد ببعض الحاجات، ثمّ يتوارى بأسرع مما أطلّ، مخلّفًا الساحة لتكهّنات شتّى.

ولم يكن كلام الناس عنه دون أساس: فالرجل غريب الأطوار، يختلف عن كلّ ما عرفَته القرية من بشر. وهو، بسلوكه المختلف، يفرش كيانه مائدة شهيّة تتفكّه بها الألسن، وتسمر حولها في الليالي المقمرة.

* * *

لم نحاول، نحن الصغار، أن نسأل أهلنا، عن السبب، أو الأسباب، التي دفعت الرجل إلى الإقامة في الغربة الدائمة، ومعاكسة تيّار السلوك العام؛ وهذا، طبعًا، يحتاج إلى قَدر كبير من الجرأة... أو الجنون.

وتمرز عاكَسَ التيار باكرًا، واعتزل المجتمع إثر حادث غامض، لم يكترث لشرحه وترك لخيال الفضوليّين ابتكار الحكايات.

قيل يومها، إنّ جماعة من الجنّ اعترضَته بينما كان غاديًا إلى الكروم، وخطفَته إلى مغارة في ذروة الجبل. وحين ظهر، بعد غياب أسابيع، بدا مسلوب الإرادة، معطّل الوعي.

وقيل، إنّه لم يعد يقوى على التحكّم بعواطفه وإرادته، فصار يتردّد على الكهف، يومًا بعد يوم، ويطوف حوله، وكأنّه يبحث عن شيء مفقود.

لكنّ الأمر الأكيد، والبعيد عن «القال والقيل» أنّ الرجل أقام جدارًا بينه وبين ماضيه، وقطع الجسور التي تصله بأبناء القرية. ولم يعد يغادر المنزل، إلّا لقضاء حاجة ماسّة، ثمّ يعود بأسرع ما يمكنه، ويقفل خلفه الأبواب.

ولم يتسرّب أي كلام، على لسان الزوجة الصابرة. ولا تمكّن أحدنا أن يستدرج سمر لتحكِيَ لنا عن والدها؛ وكنّا في مرحلة الزهو، والمفاخرة بالآباء والأمّهات، حتى ولو كلّفنا الأمر ابتكار القصص التي ترفع مقامهم إلى مراتب النجوم والأبطال.

بدا لنا أنّ عائلة تمرز تقبّلت سلوكه، إذ لم يكن هناك اختيار آخر... ومثلما تُحاط الأمور الغيبيّة بهالة من الغموض والضباب، هكذا أُحيطت شخصيّة الأب

بهالة من الصمت الواقي. وبقي باب الدار مشرّعًا في وجهه، يدخل منه ويخرج، كما يشاء، وكأيّ ربّ عائلة محترم.

* * *

ثمّ جاء ذلك اليوم، حين لبّينا دعوة سمر وقمنا بالمغامرة.

دخَلنا البيت، وكأنّنا نطأ عتبة قصر مسحور. وكانت رفيقتنا بانتظارنا، وقد بدا عليها القلق، وكأنّها لم تصدّق أنّنا سنلبّي الدعوة. قالت ذلك وكرّرت القول:

– لا أصدّق أنّكم هنا... يسعدني حضوركم.

ودعَتنا لندخل معها، غرفة الضيوف، وذلك إمعانًا في تكريمنا. فاستجَبنا، ولم يفارقنا فضول طبيعيّ، دفعَنا إلى تقصّي المكان، واكتشاف أسراره الغامضة، والتي رافقت خطوات الطفولة، وتغلغلَت في ثنايا الخيال وملأَت رؤوسنا بصور الأشباح والأساطير.

* * *

هذا هو بيته، وإنّنا في الداخل. أي داخل «عرين» السبع. ولـ«السبع» ابنة حقيقية، وزوجة تظلّ متوارية عن الأنظار. وله ابن، يتجوّل كغيره من الصبْية، بين الأزقّة والشعاب، ويلعب في الساحات... وسمر تدعونا لنرتاح في غرفة الضيوف.

سارَت أمامنا، وقد تبدّلَت معالم وجهها، وانشرحَت أساريره، وفارقَته مسحة القلق الأولى. كانت تنقل خطواتها بهدوء وثقة، ثمّ دعَتنا لنبدأ اللعب مثلما يفعل سواها من الرفاق.

استقبَلنا دعوتها بنصف الوعي، وظلّ النصف الآخر جوّالًا، ومشدودًا إلى خطّ الترقّب والانتظار.

صحيح أنّ الأجواء بدت طبيعيّة، هادئة، وإنّ كلّ المظاهر كانت تدعونا إلى الاطمئنان، إلّا أنّ ربّ البيت الغائب – الحاضر في أعماق الوعي – لم يكن يفارقنا، بل حصرنا ضمن دائرة من الترقّب الغامض، والتحفّز للفرار...

وكانت نظراتنا، إذا ما التقت، تشظّى عن اللقاء شرر ترتفع منه الأسئلة:

– ماذا لو حضر الآن؟... ماذا لو دخل فجأة، وأنتم غارقون في اللعب؟ ماذا لو هبط من فوق التلال البعيدة، تسبقه صرخاته الرهيبة؟...

ماذا يفعل بنا لو سبّبنا له الغضب؟... و«ماذا» كبيرة، مطّاطة راحت تنتقل فوق تموّجات الأثير ولا تحطّ في مكان...

وبينما نحن نعالج حيرتنا، ونحارب قلقنا، نهض شعور آخر، للتصدّي، يدفعه حرصنا الشديد على مشاعر سمر، وتجنّبنا جرح أحاسيسها. وحاولنا إخفاء مخاوفنا، باذلين أقصى الجهد، لنبقى منشرحين، بل مرحين، وظلّ شعور آخر بتململ طيّ الصدور، ويضعنا في حالة التحسّب والاستنفار، حتى ونحن في أوج انغماسنا باللعب والثرثرة.

ومن جهة أخرى، كنا نرجو أن تطول الزيارة ريثما يعود الرجل، فنواجهه ونتعرّف إليه. بصمودنا أمامه، نثبت جدارتنا، وجرأتنا وصلابة عودنا.

* * *

لا أذكر، كم انقضى من وقت، ونحن في حالة الانتظار تلك؛ لكنّ الجهد لم يذهب سدًى. فبينما كنّا غارقين في لعبة «الغمّيضة» و«مين نقفك يا جاموسة»، سمِعنا الوعد يأتي من بعيد... رعد في عزّ الصيف؟...

ثمّ تلَتهُ صيحات تشبه صرخات الطيور الكواسر إذ تحوم فوق جيفة. ثمّ لم تلبث الصرخات أن انسلخت عن العالم الخارجي، وراحت تتداخل في جلودنا، بعدما خيّم على الجوّ صمت مريب...

* * *

– هذا أبي، لا تخافوا!...

قالَتها سمر وهي تتظاهر باللامبالاة. ثمّ خطفت نفسها من بيننا، وخرجت ركضًا، لملاقاته. وسمِعنا حوارها مع الرجل القادم من المجهول.

– أعدَدتُ لك الماء الساخن. يمكنك أن تستحمّ، ومن بعد، أعرّفك على رفاق صفّي.

كان صوتها آمرًا. وعجز همسها عن إخفاء النبرة المتعالية والحادّة.

ولم نسمع كلمة اعتراض من جهة الأب. وحين عادت سمر إلى حلقتنا، كان وجهها يرتدي قناعًا جديدًا تزيّنه ابتسامة.

احترَمنا موقفها، فلم نطرح أي سؤال. لكنّها تطوّعت كي تخبرنا أنّ الوالد رجع للتوّ من عمله في الكروم، وهو متعب مثل سائر الرجال بعد يوم عمل طويل. وعليها هي أن تؤمّن أسباب راحته في غياب الوالدة.

وفشلَت محاولاتها التالية، في المحافظة على طبيعة الجو ومرحه. فقد هدأَتِ الحركة، وانطفأَتِ الحماسة، ونهَضنا دفعة واحدة، لنودّعها ويعود كلّ واحد منا إلى بيته... أو هكذا حسِبنا، ونحن نغادر غرفة الضيوف على رؤوس الأصابع، ثمّ نتوجّه صوب الباب الخارجيّ، لنقف وجهًا لوجه... مع المفاجأة.

* * *

أبصَرنا الرجل عند العتبة، وقد رفع ساعدَيه، كجناحَي طائر، فبدا أشبه بالباشق المتحفّز للانقضاض على فريسته. وكان يدير إلينا ظهره، فلم نتبيّن التعابير المرسومة فوق ملامح وجهه.

التفَتنا إلى سمر نطلب شرحًا أو تفسيرًا، لنفهم ما يحدث. لكنّها لم تنبس بحرف، واختارَتِ البقاء معنا، في صف الانتظار. وفجأة، استدار الرجل على عقبَيه وراح يتفرّس في وجوهنا، ثم خفض «جناحَيه» وهَدَرَ صوته في أسماعنا:

– رفاق سمر، إيه؟...

– نـــ... نعم... رفاق سمر، كلّنا... أجَبنا بصوت واحد. ثمّ تجمّدت الكلمات التالية، فوق شفاهنا، وأخذت تصطكّ منا الركب. وعاد الصوت يرعد من جديد:

– وهذه، أوّل زيارة إلى دارنا؟...

– نعم.

قُلناها، إنّما بإشارات تعاونَت على أدائها الأعين الوجلة والرؤوس المحنيّة.

– إذًا، تعالوا، اتبعوني!...

تلك الدعوة المفاجئة كانت خاتمة الكلام، في حوار غير متكافىء؛ فالرجل يتربّع على عرش الثقة، والقوة، والعلم بالأسرار. ونحن جميعنا، الفتيان منا، والفتيات، مدعوون إلى طاعته واقتفاء خطاه.

سار أمامنا، متّجهًا إلى باب ضيّق في آخر الممشى، طُلِيَت صفحته بالسواد. دفع الباب بإحدى أصابعه، فانفتح بهدوء. وراح يهبط سلمًا حجريًّا يقود إلى قاعة مظلمة.

أشعل عود ثقاب وأنار شمعة كانت مسنودة إلى رفّ جانبيّ، وتابع هبوطه، ونحن في إثره، تدفعنا إلى طاعته قوّة خفّية، سيطرت على إرادتنا، ولم نجرؤ أن نتخطّاها بسؤال.

التفَتنا إلى سمر بعيون يغلي في أعماقها الخوف، ويفور القلق. وانتظرنا كي ترشدنا بإشارة أو رفّة عين... لكنّها ظلّت هادئة، حيادية، وبعيدة عن لهيب يحرق منا الأكباد.

تُراها اعتادت من الوالد تلك المفاجآت، فباتت تتقبّل طقوسه الغريبة دون اعتراض؟... دون دهشة؟...

أو إنّها تكابر... تكابر؟...

والغريب الغريب، أنّ هدوءها راح ينتقل إلينا، ويغرس في نفوسنا الطمأنينة والثقة. كما شجّعنا على الصمود وانتظار الآتي.

وتابعنا الهبوط، إلى حيث امتدّت أمامنا قاعة كبرى، خالية من أي فرش، عدا ستارة خمريّة اللون، تغطّي جدارًا بكامله.

كنتُ أرغب، في تلك اللحظة، أن أعرف أمرًا واحدًا: ما الذي تُخفيه الستارة؟...

لكنّي لم أجرؤ على فتح فمي. ولم يخالِفني واحد من الرفاق.

بقينا في تلك الخانة المظلمة والغامضة. وعدتُ إلى نفسي أناقشها وأتساءل: هل أريد، حقًّا، أن أعرف ما الذي تُخفيه الستارة؟...

* * *

كنتُ قد بلغتُ هذا الحدّ من كتابة القصّة، في تلك الليلة البعيدة قبل عشرين سنة.

كان الوقت منتصف الليل. الكون من حولي ساكن، هادىء، والمدينة غارقة في النوم. وفيما كنت أهمّ باكتشاف السرّ الكامن خلف الستارة، سمعتُ قرعًا عنيفًا على باب غرفتي. وأبصرتُ الباب ينفتح تلقائيًّا، دون أن يلجَ أحد بين دفّتَيه.

بلى... أذكر أنّني شعرت بنفح رياح باردة، تسرّبَت هادئة في البدء، ثمّ راحَت تقوى تدريجًا، حتى اقتربَت من مكتبي، فاستحالَت عاصفة هوجاء، أخذَت تذرّي الأوراق، وتبعثرها في كلّ اتجاه.

وخيّل إليّ أنّي أسمع، بين صفير الريح الآتية من الخارج، صرخات تشبه صيحات الطيور الكواسر.

نهضتُ من مقعدي، ورحتُ ألملم الأوراق، وأعيد تنسيقها، وقد سرَت رعشة الخوف في أوصالي، ومنعَتني عن متابعة العمل، بل حرمَتني راحة النوم.

حاولتُ، في اليوم التالي، أن أستأنف الكتابة، لأضع خاتمة القصّة، على الأقلّ، لكنّ العاصفة عادَت من جديد، وفتحَتِ الباب، ودفعَتِ الرياح الباردة إلى داخل الغرفة. ثمّ بدأَت تحوم حول مكتبي لحظات، قبل أن تعاود اللفّ والدوران، لتذرّي الأوراق، وتُبعثِرها في كلّ صوب؛ حتى إذا اطمأنَّت إلى انفصال الورقة عن الورقة، هدأَت واستكانَت، وكأنّما أدَّت المهمّة الموكلة إليها.

* * *

حدث ذلك في الواقع، وكنتُ في أعلى درجات الوعي. لم يكن حلمًا ولا كابوسًا. وكرّرت محاولات الكتابة عن تمرز في السنوات التالية. وفي كلّ مرّة، كنتُ أصل معه إلى أطراف الستارة الخمريّة، في القبو المظلم، ثمّ تهبّ عليّ الرياح، ومن حيث لا أدري، تدخل غرفتي، تخطف القلم من يدي، وتجمّد أفكاري، ثمّ تبدأ تذرّي الأوراق البيضاء... كلّ ورقة في اتجاه.

بيروت 1986

أندروميدا

أبصرتُها واقفةً عند الحدّ الفاصل بين أطراف الرمال و«فقش» الموج. ظهرها إلى المدينة، وعيناها عالقتان بنقطة بعيدة عند الأفق. وأنا خارجة لنزهة صباحيّة، اعتدت القيام بها، قبل أن تشرق الشمس، وقبل أن يستيقظ البشر وتدبّ الحياة في شرايين المدينة، ومن ثمّ، تتسرّب إلى هذه الشرفة البيروتيّة الخضراء التي تصلنا بالطبيعة.

* * *

وكان من الطبيعيّ، بعدما ألقيتُ نظرة عابرة باتجاهها، أن أتابع سيري، وأنسى وجودها؛ فالشاطىء مفتوح لكلّ المخلوقات؛ كذلك تلك اللحظات البكر، يُغدقها علينا الفجر، محمّلة بالطهر والنقاء، فنختلسها زادًا، نستعيد به بعض الشجاعة والإيمان.

وكان مفترضًا ألّا تحسّ هي بوجودي، أو تعيره اهتمامها، ما دامت منشغلة بتأمّلاتها الغامضة، وسارحة ببصرها إلى أبعد الحدود المرئيّة.

لكنّ الذي حدث كان عكس ذلك تمامًا؛ إذ ما كدتُ أبلغ نقطة موازية لمكانها، حتى أدارَت وجهها صوبي، وابتسمَت.

ولاحظتُ أنّ الفتاة غريبة عن مدينتنا. بل قد تكون غريبة عن أرضنا؛ فالثوب الطويل الأزرق، والمتهدّل حتى أطراف قدمَيها، لم يكن مصنوعًا من قماش عاديّ، بل بدا وكأنّه مغزول من خيوط تآلفت فيها عناصر طبيعيّة، كالريح والغمام وزبد البحر.

وشعرها المعقوص فوق قمّة رأسها، لم يكن شعرًا مثلما نعهد شعر النساء، إذ هو مزيج من حبال النور والقصب وماء الذهب. ووجهها يوحي بالجمال؛ لكنّ جماله يكاد لا يبلغ العين، بل يبقى بعيدًا، وكأنّه يطلّ من مرآة سحرية.

ابتسامتها، وحدها، استطاعت أن تعبر الحواجز، وتبلغني، ثمّ تشجّعني على أن أبادلها بمثلها وأتابع طريقي؛ إذ بدأ شعور الخوف يستولي عليّ، وصرت أشكّ بحواسّي، وبما تبلّغني من رسائل.

لكنّها لم تترك لي فرصة الهرب. خرجَت من بين انفراج شفتَيها صرخة تشبه صيحة طفل رضيع، فهمت منها أنّها تدعوني كي أقترب. بل إنّ الصوت حمل معه قوّة مغناطيسيّة، راحت تشدّني وتجذبني حتى وجدتُني أمامها؛ واقفة، جامدة، منتظرة، ومستعدّة لتلقّي الأوامر.

* * *

– لم أكن أعلم أنّكِ من روّاد المكان.

كانت هذه أوّل عبارة افتتحَت بها الحوار بيننا، وفوجِئتُ...

هذا ما قلتُه لها، ثمّ أضفتُ:

– إنّ هذا لسان حالي. فأنا اقوم بهذه النزهة الصباحيّة كلّ يوم. والغريب أنّي لم أُبصرك هنا من قبل.

مدَّت يدها النحيلة، الناصعة البياض، ووضعَتها على كتفي: – إنّك على حق. ويسرّني جدًّا هذا اللقاء.

شجّعني لطفها على متابعة الحوار فسألتُ:

– تقصدين هذا الشاطىء كلّ يوم؟...

– بل مع طلوع كلّ فجر.

– للنزهة، طبعًا.

– والانتظار؟...

لفظَتِ الكلمة، وصمتَت، ثمّ أدارَت وجهَها عنّي، وعادَت ترنو بعينَيها نحو النقطة البعيدة عند الأفق.

فكّرتُ: إنّها تضع نقطة الختام لحوارنا، وهذه إشارة كي أنصرف. لكنّها تنبّهَت لذلك، وكأنّها قرأَت أفكاري عن طريق التخاطر؛ فمدَّت يمناها، وأمسكَت بها يسراي وهي تردّد: – يسرّني جدًّا حضورك...

– لكنّي...

قاطعَتني باختصار:

– أفهم...

لفظَتها دون أن تنظر إليّ، أو تُعلمني ما الذي فهمَته، بل عادَت تقول: – أقدّر ولعَكِ بالسير. لكنّ ذلك من بعض القيود، وأنت تنشدين الحريّة.

– لا أفهم ماذا تقصدين.

قلتُها بلامبالاة غير طامعة بزيادة من الشرح أو الإيضاح. لكنّها لم تُفوّت الفرصة، اغتنمَتها لتُعلمَني أنّ العادة قيد. والإنسان، لن يتحرّر كلّيًا، ما لم يطلّق عاداته.

قلتُ:

– لكنّه مسعى باتجاه الحرية و...

اعترضَتني قائلة:

– تقصدين القول: باتجاه الحركة، وهناك فارق بينهما.

صمتُّ، لا لأنّي لم أُدرك مغزى كلامها؛ بل لأنّي لم أكن مستعدّة لخوض حوارٍ كلاميٍّ، يُلهيني عن قراءة وجه الطبيعة، مع تحوّل الألوان والخيالات. كما إنّ الانفتاح على الغرباء، ودخول عوالمهم، ليسا من الأمور السهلة بالنسبة إليّ.

وبعد، مَن تكون تلك الفتاة حتى تصطادني في منتصف الطريق، ثمّ تقيّدني بقيودها وتفرض عليّ الانغماس في أفكار أنا هاربة منها؟...

وكيف أحاور مَن أجهل؟ وهل هي ابنة هذه الأرض، أو إنّها طيف تجسَّدَ من بعض شطحات الخيال؟...

* * *

قبل أن ينتصر رفضي وأنسحب من قبضتها، أطلقَت هي سراحي. ووجدتُني، هذه المرّة، عاجزة عن فراقها؛ فأنا لم أطرح عليها السؤال الأهمّ: – مَن تكون؟...

استجمَعتُ شجاعتي، وسكبتُ قواي كلّها في السؤال: – مَن أنتِ؟

– أندروميدا...

– يعني؟...

– منقذة المدينة.

– هذه المدينة تقصدين؟
– هذه وسواها!...
– ولكن، قولي، يا أندروميدا، متى أنقذتِها؟ وكيف؟... إنّ مدينتنا تحترق، ومنذ عشر سنوات توقد فيها حروب الأمم. بات أطفالها، شبابها، وشيبها وقودًا لنيران حرب استمرأت التمدّد فوق سهولنا والجبال. ولا تزال تبرطع في أجوائنا وكأنّها اكتسبَت مناعة تُحييها قرونًا. قولي، بربّك، هل أنت آتية للإنقاذ حقًّا؟...
– بل أنقذتُها، قبل ألف وخمسمائة سنة.
– من الحرب؟...
– ومن سائر الويلات.
– هذه المدينة بالذات؟
هذه، وسواها!

* * *

عند هذا الحدّ، لجأتُ إلى الصمت، محاوِلةً أن أفهم الكلمات: فماذا تعني بالإنقاذ؟... وهل هناك مدلول رمزيّ غاب عن إدراكي؟
عدتُ أسألها:
– وكيف أمكنكِ إنقاذ تلك المدن كلّها؟...
ردَّت على الفور:
– ببذل الذات!...
– ذاتكِ، أنتِ؟...
– وهل بوسع المرء أن يبذل كيانات الآخرين؟...
لكنّك، الآن، هنا. وأنت حيّة، وهذا أمر حقيقيّ...
– هذا ما أردتُكِ أن تُدركيه.

* * *

وهذا، بالضبط، ما لم أستطع إدراكه. فوقفتُ حيالها في ذهول وحيرة؛ فالكلام يسيل من بين شفتيها بسيطًا، شفافًا؛ وما تكاد الأذن تلتقطه حتى تتجسّد الكلمات حالات، فيها من الغموض أكثر ممّا فيها من الوضوح. وفي حين حسبتُ الكلمة مدخلًا إلى فهم الفتاة، ومعرفة هويّتها، وجدتُني عند حدود الكلمات، وفي حلقي جفاف يولّده الخوف من المعرفة.

وفكّرتُ: لو أنسحب الآن، عند هذا الحدّ، ويبقى لقاؤنا مغامرة عابرة، ويصبح الكلام مرشّحًا للنسيان. أما التورّط أبعد من ذلك، فقد يأتي بما لا أشتهي... ثمّ، ما الفائدة من كشف حقيقتها؟... وهبها تحوّل الكلمات إلى رموز، تقصد بها غير ما يؤدّي صداها... و...

* * *

ها هي تُخرجني من تساؤلي، وتفكّ العقدة...

عقدة شعرها أوّلًا:

أبصرتُه يتهدّل فوق كتفَيها، ثمّ يهوي كالشلّال، فيلامس صفحة الرمال.

حسبتُني أمام رؤيا، من تلك الرؤى التي تطالعنا بها الكتب الأسطوريّة.

ما الذي يدفع المرأة إلى هذا التحوّل؟ لماذا حلّت شعرها؟ وهل هو شعر حقيقيّ أو خيمة من حبال القصب وشعاعات الشمس؟...

ومن وسط الخيمة راح الصوت، صوتها، يتدفّق، صافيًا كخرير جدول عذب.

* * *

– كانت المرّة الأولى، قبل الف وخمسمائة سنة. وكان اسمي أندروميدا، الأميرة، ابنة ملك المرجان... ابنته الوحيدة.

كان قصر أبي أجمل قصور الدنيا، وحكمه أعدل الأحكام، وشعبه يرفُل في سعادة وأمن؛ لا يعكّر صفو أيّامه أي قتال. كلّ واحد يعرف واجبه، فيؤدّيه بأمانة وإخلاص. ويعرف حقوقه، ويوقن بأنّه يبلغها عن طريق الحقّ والعدالة.

ذات يوم، حدث ما نغّص العيش، وقلَبَ السعادة إلى حزن وأسًى: فقد طلع لنا، من قاع البحر، حوت، على شكل تنّين، راح يسطو على البلاد، في غفلة عن الناس، فيسلب خيراتهم ويهدم عمرانهم، ويقتل فتيانهم وفتياتهم. ولم تكن هناك وسيلة تفيد في ردعه، لقدرة خفّية فيه، تجعله يرى ولا يُرى. يظهر في المكان، فيعتدي ويتجنّى، والأرض عن رؤيته عاجزة.

حار أبي في أمر التنّين. ومثله حار الوجهاء والمستشارون؛ فالمملكة لم تعد تحتمل أكثر ممّا احتمَلَت. وشعبها صار فقيرًا بعد غنًى، ذليلًا بعد عزّ. وجاء أمين خزنة الملك، فقدّم إليه تقريرًا خطيرًا، فهمَ منه أنّ المملكة سائرة إلى الانهيار، ما لم يقضِ على التنّين، ويضع حدًّا لعدوانه.

وأبي لم يكن قادرًا على مواجهة غريمه في ساحة حرب؛ إذ إنّ الأسلحة المعروفة، في ذلك الزمان، لم تكن لتؤثّر على وحش يلتهم النار، ثمّ ينفثها ألسِنةً يُلهب بها الأرض.

كان بين المستشارين، شيخ حكيم، قدّم اقتراحًا، حظِيَ بموافقة الأكثرية. اقترح حكيم الحكماء أن يُرسل الملك وفدًا مؤلّفًا من أهل العلم والنور كي يتفاهموا مع العدوّ على صيغة يرضى بها الطرفان. ونجح المسعى.

لكنّه جاء بمشكلة جديدة؛ فالتنّين في موقع القوّة؛ وراح يفرض شروطه، ولم يكن أمام الملك سوى القبول. من تلك الشروط أنّه يوفّر للناس حياتهم وممتلكاتهم، يحفظ للملك عرشه، شرط أن يهبه، مرّة كلّ عام، أجمل فتيات المملكة. وبما أنّه لم يكن هناك حلّ أفضل، فقد رضخ الجميع، وقَبِلَ الملك بالشرط، وبدأت التضحية بالجميلات.

وكان من طباع الملك العادل والحكيم، أن يتصرّف بالأسلوب المأثور عنه؛ فهو يَعُدُّ كلّ فتاة في المملكة، ابنتَه. ومن الطبيعيّ، إذن، أن يختارني أنا لأكون الضحيّة الأولى. ألبسَتني أمي البذلات، وزيّنَت عنقي بقلّادة ثمينة، وجعلَت خاتمًا في إصبعي، وخلخالًا في ساقي، ثمّ علّقت أقراطًا في أذنيّ، وودّعَتني بدمعة وقُبلة.

كان عليّ أن أمشِيَ مسافةً برفقة الملك والأعيان، ثمّ أنفصِلُ عنهم، لأسلكَ طريقًا ضيّقًا، يقود إلى الشاطىء، حيث ينتظرني التنّين.

وهذا بالضبط ما فعلتُه، وجلستُ أنتظر.

بكلّ الرضى والاستسلام، انتظرتُ. وعجبتُ من شعور الغبطة الذي انتابَني، بدل الخوف والقلق. حتى بعدما أبصرتُه خارجًا من اللجّة، وحوله الأمواج تنتصب كالجبال، وفمه ينفث النار والدخان، لم أخَف.

وعندما رأيتُه أمامي – والضحيّة وحدها، يمكن أن تراه – لم أرتعد. كذلك لم أغادر مكاني؛ فإذا كان يريدني، عليه أن يسعى، ويسعى إليّ...

فغرَ فمه الناريّ أمام عينيّ، فخرجَت منه أبخرة عجيبة، راحَت تشدّني باتّجاهه، وشعرتُ بأنّي، خلال لحظات، أتحوّل إلى وقود يزيد لهيب أحشائه. ولكن!...

– ربّاه! ما هذا الذي ينتصب في يدي؟

تساءلتُ، غير مصدّقة، وأنا أبصر عصًا عجيبة، ترتفع بين الأرض والسماء، ويدي تقبض عليها، وتُديرها كيفما تشاء... وما كدتُ أوجّهها ناحية التنّين، كما أمَرَتني قوّة خفّية، حتى خشع ساجدًا على ركبتَيه، ثمّ بدأ يتراجع إلى أن غيّبته اللجّة.

حدث ذلك في أقلّ من لمح البصر؛ وبقيتُ في حالة ذهول، والعصا في يدي، وأنا جاهلة سرّها. لكنّ الشيء الأكيد، أنّها كانت طاقة غير معقولة، تغلّبتُ بها على وحش البحار.

* * *

حدث ذلك قبل ألف وخمسمائة سنة... حين كان الملك لا يبخل على رعيّته بأغلى ما عنده. والأميرة لم تتراجع أو تخَف؛ التقطَت إيمان والدها، ومضَت إلى أقصى حدود البذل... ذهبَت، لتقدّم نفسها ضحيّة تخلّص بها شعبًا بأسره من الذلّ والعبوديّة.

* * *

– ولكن، ما الذي حصل بعد ذلك؟

سمعَتني أسألها وأنا في حالة الدهشة المطلقة.

فعادَت ترنو إلى البعيد بنَيِنكَ العينين الرائعتين: – خرجتُ من قصر أبي دون رجعة. منذ ذلك التاريخ، وأنا أتجوّل، بين المدن المقهورة، جيلًا بعد جيل، أبحث عن التنّين، عند ثغر كلّ مدينة... أتصدّى له، وكلّي استعداد لبذل الذات. والمضيّ في التضحية حتى آخر رمق. لكنّ العصا كانت تعود، في كلّ مواجهة، فأقبض عليها، أشكّها بين عينيه حالما يخرج من مخبأه، وأبصره يتراجع وأسمعه يجأر وينفث اللهب والدخان في الفراغ، ثمّ يرتمي بين جبال الموج الهائج حتى تغيبه اللجّة في عميق أعماقها.

– إذًا، هذا ما تنتظرينه، هذا الصباح!... قدوم التنّين، ومن نقطة ما عند الأفق!...

ردَّت بهدوء:

– لاحظتِ ذلك إذًا...؟ نعم، أنتظر قدومه. ومنذ سنوات عشر، دأَبتُ على البكور إلى الشاطىء مثلما فعلتُ في مئات المدن، وكلّي استعداد للمواجهة، بل وبذل النفس حتى الرمق الأخير.

لماذا لم يأتِ حتى الآن؟ هذا ما أريد أن أعرفه. فهو لا يتخلّف عن موعده.

– وما الذي يجعلكِ واثقة من قدومه. ربما غيَّرَ سلوكَه، أو تُراه اختفى، إلى غير رجعة؟.

حدجَتني بنظرة تأنيب، وقالَت:

– بل سوف يأتي، مثلما فعل، ومنذ ألف وخمسمائة سنة. أَوَلَم تشعري بلفح أنفاسه بين شوارع المدينة؟... أَوَلَم تريْ تأثير لهاثه في عيون الناس؟ قولي: أَوَلَم تُبصري علامته مرسومةً عند الأفق؟...

خفضتُ رأسي معتذرة:

– سامحيني... حديثك حملَني إلى مناطق الدهشة والغرابة، وكاد يُنسيني مكاني، وانتمائي إلى مدينة الدمار والحرائق اليوميّة.

* * *

عادَت يدها تربّت كتفي بحنان:

– الصبر. علينا أن نحفظ الأمثولة العظمى: الصبر.

وسمعَتني أردّ عليها:

– والرجاء!...

وشعرتُ بأنّ الكلمة تغور إلى أعماق كياني، وتُحدِثُ تحوّلًا عظيمًا.

التفَتُّ ناحيتها، لأقول لها ذلك وأخبرها بالصوت العالي، عن الذي فعلته مقابلتها في كياني، ولكن!...

* * *

هل احتاج إلى القول، بالصوت والكلمة، كيف كانت النهاية؟...

أو اجعل الخاتمة هذه... النقاط... المتقطّعة؟

بيروت 1985

الدّبا

كانوا يسمّونه «الدّبا». هكذا يُطلقون الكلمة، في لحظات حاسمة، فتنتفخ الأحرف وتكبر، وترتفع قامات، تصل أرضنا وواقعنا بالفضاء البعيد عن مدى الظنون. أما نفوسنا البريئة فكانت ترتعش أمام وقع الاسم، مثلما ترتعش بواكير الحشائش لدى مرور العاصفة؛ فنلجأ إلى زوايا بعيدة من النفوس والحجرات، ثمّ نقضي ما تبقّى من ساعات اليقظة في تضخيم الصورة، ومحاولة الهرب منها في آن معًا. كلّ حسّ يأتينا، من حفيف أوراق الشجر، أو مرور النسائم، أو «زيزقة» مفاصل النوافذ والأبواب، كان يرتطم بتلك الدائرة الوهميّة التي أحَطنا بها وجودنا، فتُسمَع له أصداء راعبة.

أمّا الآخرون... الكبار الذين استمرأوا بناء مداميك الرعب في الحجرات الضيقة من نفوسنا، فلم يدركوا أي أثر يُخلّفه صدى الكلمات التي يُطلقونها (وأحيانًا كثيرة بروح الدعابة والمرح) في أعماقنا... ولم يعلموا كيف كانت كلماتهم، تحفر الترع، وتعمّق الحفر، وتمدّ المسافات، حتى أبعد الحدود. وتقيم ذلك الجدار الشاهق، بين عالمنا الداخليّ وذاك المقيم في الخارج؛ تحت سمع الكون، وبصره.

* * *

والدّبا لم يبقَ كلمة، بل تجسَّدَ، مع مرور الأيام، وأصبح ذاتًا، بل كيانًا يقف عند الحدّ الفاصل بين عالمَيِ الأنس والجنّ.

* * *

في البدء، عرَفناه طيفًا يُقيم في ظلام الغرف الموصدة، والخِرَب المهجورة، والمناطق المحرّمة على الصغار...

«إن دخلتُم تلك الغرفة يطلع لكم الدّبا...».

هكذا تسيل الكلمات، ببساطة، ومن بعدها، تُحرَم على خُطانا عتبة المكان.

كم جلستُ، أيّام الطفولة، في صمت الوحدة والتأمّل، أحاول أن أرسم له وجهًا. وفي كلّ مرّة، كنتُ أخرج من محاولتي ورفيقي الفراغ والفشل؛ ذلك أنّ العين لم تكن قد عرفَت له شكلًا يتجاوب مع الكلمات النامية إثر إيقاع الخطوات الأولى.

لحظة، لحظة... يومًا بعد يوم، كانوا يغرسونه في كياننا، ويتمشّى الرعب في أوصالنا كالخدر...

* * *

ثمّ جاء ذلك اليوم، حين خرجتُ، مع بعض الرفاق، إلى نزهة بين الكروم.

لم تكن تلك المرّة الأولى. فقد اعتَدنا غزوَ الحقول والكروم وبساتين الزيتون واللوز، وفي كلّ الفصول... تلك كانت ملاعبنا، نسابق إليها الرياح والعصافير.

وأذكر أنّنا، في ذلك النهار، رُحنا نتبارى في تسلّق شعاب تلّة الشجّار... تلك التي تسند أقدام الكروم المنثورة على امتداد السفوح الجبليّة...

كنّا في تلك الحالة من النشوة والمرح، حين أبصَرناه، بلحيته الكثّة وشعره الأبيض المسترسل فوق الكتفين والمتناثر حتى يكاد يغطّي الوجه والعينين...

وأبصَرناه، بثيابه الحائلة الألوان الممزّقة، المتناثرة، المهلهلة، حتى لا تعرف لها أصلًا.

* * *

– إنّه الدّبا...

صرخ أكرم، قائدنا، وأكبرنا سنًّا. ثمّ تابع:

– ها إنّه قادم من كرم «العقبة»... ولم نصدّقه.

كيف يعرف أكرم شكل الدّبا؟... بل كيف يعرفه مطلق إنسان؟... لم نسمع بأنّ أحدًا رآه، ليصفَه ويدلَّ عليه، فكيف توفَّرَ لأكرم هذا الامتياز؟...

– ها هو يتّجه صوبنا... خذوا الحذر... انتبهوا!...

أكرم يتابع حملة التوعية، ونحن تسمَّرنا، كلّ واحد في مكانه، وخرسَت أصواتنا، سوى صوت واحد، كان يُسمَع من قرب، هو صدى اصطكاك أسناننا.

* * *

حتّى الآن، لا أدري لماذا لم نهرب، والفرصة مؤاتية، وهو عنّا بعيد. بل كيف رُحنا نتقدّم، وكأنّما هناك طاقة مغناطيسيّة تشدّنا في اتجاهه. ولم يَطُل بنا الوقت، قبل أن نبلغ الكرم حيث اختار هو الجلوس فوق رجمة من الحجارة.

كنّا نشعر بأنّ تلك الخطوة مكلفة، بل خطرة؛ ولكن مَن يقوى على رصد نزوات الطفولة؟... مَن يقدّر شوق الصغار الأشقياء إلى ركوب متن المغامرة حتى آخر حدودها؟

* * *

وحدوده هو، أين تبدأ، وأين تنتهي؟ بل أين يبدأ الحوار معه؟... وبأية وسيلة؟...

في البدء، حسَبنا أنّه سيرجُمُنا بالحجارة...

هكذا روى الكبار، عشرات المرّات. قالوا لنا: لغته القتل والهلاك... وإذا أتاكم في الظلام يأخذ بخناقكم. يجعل يديه كمّاشةً حول العنق، ويغرز أظافره في اللحم الطريّ، حتى يبلغ حدود العظام...

وقالوا: له أظافر الجنّ، ونظرات إبليس... وله شعر يتدلّى حوله كالحبال. يلفّكم به، ويشدّ، ويجذبكم إليه، ويتحكّم بمصيركم. وقالوا: صوته، حين يقبل، يأتيكم كالريح... من فوق ذرى الجبال يهبط، كجنون العواصف، وتفجّر الرعود.

وقالوا: كونوا حذرين، إذا أقبل عليكم من البراري، من الكروم، استعدّوا لتتلاشوا من دربه، كالريح أو كالدخان.

* * *

كانوا هم يتكلّمون؛ ونحن نصغي إليهم؛ ولم نرفع الصوت مرّة واحدة بالسؤال لنعرف كيف هو شكل الدّبا؟... ماذا يرتدي من الثياب؟ وهل هو شابّ أو شيخ عجوز؟ ولم نجرؤ على السؤال عن أصله، وفصله ومقرّ سكناه...

بلى... هم قالوا: إنّه يقيم في كلّ مكان. ويجيء، مع هبوب الريح، من كلّ جهات الأرض يأتي.

ولم نسأل: هل هو، في أصله، من سكّان «الجورة»؟... أو إنّه غريب عن المكان... مثلما هو غريب عن الزمان؟ ولم نسأل: إذا ما كان الدّبا عدوّ الصغار، فهل هو كذلك، بالنسبة إلى الكبار الأقوياء؟...

لم تكن لنا الجرأة لنطرح أيًّا من الأسئلة التي من شأنها أن تجلوَ الضباب، وتُسقطَ الوهم... تخرق دائرة الوهم، تلك التي يزيدنا اتّساعها حماسة، وقدرة على التحدّي.

* * *

وها إنّنا خارج الدائرة، دون إرادة منّا. والأهل في النسيان. و«الجورة» قريتنا العزيزة، بعيدة عن مرمى النظر.

وها نحن، أخيرًا، وجهًا لوجه، مع الدّبا... والاستسلام المطلق للحظات الحسم.

* * *

كانت بضعة أمتار تفصلنا عنه، وتوقّعنا أن يتحرّك... أن تنهض قامته العملاقة من فوق رجمة الحجارة، وتتّجه إلينا.

وانتظَرنا أن يرتفع صوته الراعد، ويخترق كياناتنا الصغيرة ليبلغ أعماق الوعي.

أو تمتدّ إحدى يديه، لتقصف عودنا الطريّ، الواحد تلو الآخر...

أو ترجمنا بالحجارة...

قالوا: إذا لم يتمكّن من الوصول إليكم يرجمكم بالحجارة؛ وتتدحرج الصخور تحت أصابعه بخفّة، وكأنّها حبّات الملبّس ترشّ في الأفراح. أو يجعل ظفرًا من أظافر يديه «مخلًّا» ويزيح به الصخور.

وها إنّ الحجارة ترتفع حوله أكوامًا، وهو سيّد الموقف.

* * *

لكنّه لم يتحرّك. بل خُيّل إلينا، لبعض الوقت، وحين طالت فترة الصمت والانتظار، بأنّه لم يشعر بحضورنا؛ وقدّرنا أنّ مبادرته بالسلام ربما أنقذَتنا.

– أجل، الفكرة رائعة!...

تمتَمَتِ الشفاه، ورفَّتِ الأهداب:

– نُطلق سلامًا جماعيًّا، مثل السلام الذي نبادر به ناطور الكروم، أو راعي الماعز:

– العوافي يا عم!...

ويردّ التحية، والضحكة تُشرق من عينَيه، وتقفز مع بسمة رضًى فوق شفتَيه:

– الله يزيدكم عافية!...

وهكذا نختم القلق، ونضع نقطة الوقف عند آخر أسطر التساؤل، ونتابع عبثنا ومغامراتنا...

ونتابع الطريق، بعيدًا عنه. ونترك له الفلوات الشاسعة، يسرح فيها على هواه، بعدما لفظَته ساحات الجورة، وأزقّتها... (أو هل هو غريب عن الجورة؟...).

لا فرق عندنا، من أين جاء!... نترك له الكروم، والبراري. ونعود إلى أهلنا وذوينا بسلام، ونقول لهم:

– لقد رأَينا الدّبا...

ونقف، ننتظر انفجار الدهشة في عيونهم، وانبلاج الفضول فوق شفاههم:

– ماذا؟... ماذا تقولون؟ كلام أولاد... أين هو الدّبا؟... في أيّ مكان شاهدتُموه؟... لا، هذا غير معقول. يستحيل ذلك. رؤيته مستحيلة...

ونطرح بدورنا أسئلة جديدة لنفهم منهم: لماذا لا يكون الأمر معقولًا؟ ولماذا يؤكّدون على استحالة المواجهة؟ لماذا، وهم، منذ أن تفتَّحَ النور في عيوننا، يحاولون غرس الاسم في الوعي، بل وفي أعماق اللاوعي؟..

ما الذي جرى الآن، حتى يقلبوا المائدة على رؤوسنا؟..

* * *

ونقف أمامهم ونسأل بتحدّ:

– قولوا... لماذا تستحيل علينا رؤية الدّبا؟... «دباكم» المغروس رعبًا في صدورنا، وقلقًا في سواد أعيننا، ورعدة في مفاصلنا؟

ونبصرهم يتراجعون، ثمّ يغرقون في بحار الحيرة والضياع، وهم يبحثون، عبثًا، عن جواب يقنعنا، ويقطع حبل التساؤل.

يُخرسنا...

لكنّنا لن نخرس.

نحن الآن في موقع القوّة، في منطقة الثقة والحقيقة. وهم زائغون، في ضباب الوهم والضياع.

ونقول لهم:

– نعم، شاهَدناه وعندنا البرهان!

ويسألون. وتتساقط الكلمات من بين شفاههم مرتعشةً كأوراق الخريف:

– هاتوا البرهان... ما هي علامتكم؟...

ونردّ بسخرية:

– هذا ما لن تبلغوه. لقد عقَدنا معه معاهدة صمت. سنحفظ سرّه حتّى النهاية.

ويصرخ بنا صوت قائدهم:

– كذب... هذا كلام زائف؛ وهذه ليست الحقيقة.

ونتحدّاه:

– ما هي الحقيقة إذًا؟...

وهل تجرؤ أنت على النطق بها؟

ويلتفت الكبير إلى الجماعة، يستنطقها... ويستأذنها ثم يتابع الحوار:

– كلامكم غير صحيح. وأنتم لم تبصروا الدّبا ولا أثره، لأنّه...

ويصمت فنستفزّه:

– لأنّه... ماذا؟... أكمِل، لا تتوقَّف عند هذا الحدّ.

ويُدير رأسه صوب الجماعة، مستنجِدًا، فتصدّه الوجوه والنظرات الجامدة.

فيعود إلينا، وكأنّه قرّر المضيّ في المغامرة حتى النهاية:

– لأنّه، في الحقيقة، ليس هنا مَن يحمل مثل هذا الاسم.

* * *

عند هذا الحدّ، يتوقّف حوارنا مع الجماعة وقائدها. ونعود إلى العملاق الجالس أمامنا، فوق رجمة الحجارة، فنُبصره ينهض من مكانه، مستندًا على ساعدَيهِ، وركبتَيهِ، تمامًا مثلما ينهض الشيوخ العاجزون، ويلتفت إلينا، وهو يبتسم ابتسامة غامضة، لا نُدرك مغزاها. ثمّ يبتعد، ويتغلغل بين عباب الدوالي، وأشجار البطم والسنديان، ويده تلوّح لنا، وترسم بيننا شارات سلام جديد.

بيروت 1985

الحالم

الكتابة عن سعد هي لون من الإعجاز؛ فالصبيّ يشبه إلى حدّ كبير حبّة الزئبق، ما تكاد تجعلها فوق كفّك حتى تنزلق وتضيع. وتمضي في البحث عنها وكأنّك تقوم بمباراة تحدّ مع الذات. وحين تتأكّد من فشلك تعود فتُمَنّي النفس بأنّك ستحصل على حبّة مشابهة تعوّضك عنها؛ لكنّك، في هذه المرّة، تقرّر أن تكون أشدّ حذرًا فلا تسمح لها بالانزلاق ومن ثمّ الضياع.

هذا ما أُحسّ به الآن، وأنا أذكر كم مرّة حاولتُ أن أرسم وجه سعد بكلماتي. وفي كلّ مرّة كان ينجح في الهرب، ثمّ الاختفاء خلف تضاريس الذاكرة.

وها إنّي في محاولة تحدّ للذاكرة والقلم، أعمد إلى رسم الوجه من جديد: كان رفيق الطفولة، وزميل الدراسة. يختلف عن أولاد القرية في كلّ شيء؛ من شكله الخارجيّ، إلى تصرّفه، وسلوكه، إلى الأفكار التي ينثرها علينا من عوالم الغرابة، يفجّرها في أعيننا، ويتركنا في حالة من الدهشة المتواصلة؛ ما نكاد نصحو من نوبة ذهول، حتى يقذفنا بنادرة مبتكرة تعيد إشعال الفتيل من جديد.

أما اختلاف الشكل فكان ظاهرًا للعيان، لا يصعب وصفه، ولا يحتاج إلى برهان، حتى من هذا البُعد الزمنيّ.

سعد أشقر الشعر، أخضر العينين، مورد الخدّين؛ بينما كنّا في «الجورة» نميل إلى السمرة، يتوّج رؤوسنا شعر بلون التمر المعتّق حينًا وأحيانًا كجناح الغراب، والليالي الكانونيّة الحالكة الظلمة. وينسجم بذلك مع العيون اللوزيّة، البنّية... والسوداء السوداء، عند الأكثرية.

ولم تكن الألوان وحدها مصدر الاختلاف بيننا وبين السعد، بل المسلك وطريقة التفكير؛ فبينما كنا واقعيّين محدودين في تصرّفنا وسلوكنا، لا نبصر أبعد من حدود الأنف، ولا يجمح بنا الخيال إلّا ضمن القوانين المشروعة في قريتنا؛ كان هو ينبري، في كلّ مناسبة، فيتحدّانا بأفكاره ومشاريعه، وكنّا نتناولها بالهزء والسخرية في البداية، ثمّ لا نلبث أن نؤمن بها، ونعتنقها بفضل قدرته على الإقناع، وإيمانه الراسخ بكلّ ما يقول ويفعل. ولم يمضِ وقت طويل، حتى كَسِبَنا جميعًا وبِتنا وإياه فريقًا واحدًا. بل صِرنا ننتظر مفاجآته بشوق ووَلَهٍ، مثلما ينتظر الأطفال هدايا الأعياد.

* * *

قبَضنا عليه، ذات يوم، غارقًا في حفرة دائريّة، خارج حدود القرية.

كان يحمل معولًا في يده اليمنى، ويستخدم اليسرى لرفع التراب والحجارة.

بادره مروان بسؤاله:

– ماذا تفعل هنا، يا سعد؟

لم يرفع إلينا، أو إلى مروان، نظره، بل تابع الحفر وتعميق الدائرة وهو يتمتم كلمات غير واضحة. وهذا ما زادنا فضولًا، فاقترَبنا منه، وتحلَّقنا حوله ذاهلين. وأعاد مروان سؤاله: – هل تبحث عن كنز؟... متى تمكَّنتَ من حفر هذه المساحة؟

وفي هذه المرّة ردّ سعد مباشرة، وهو يسند جسمه الصغير إلى عصا المعول: – البحث عن الكنز قصّة خرافيّة، أنا أحاول...

قَطَعَ عبارته، وصَمَتَ... وزادنا شوقًا إلى سماع المزيد. فأطلق مروان السؤال بإلحاح: – ماذا تخبّىء عنّا؟ وعمّ تبحث؟...

– لا شيء...

قالها سعد ببراءة هي إحدى ميزاته ووسيلة خلاصه...

– إذًا، لماذا تُتعب نفسك بالحفر؟...

سؤال جديد وجّهَته ليلى وهي تقترب من طرف الحفرة، وقد جعلت كفَّيها ستارًا لتردّ أشعّة الشمس عن عينيها: – أنا لا أُحسّ بالتعب. فقط، أتسلّى.

– تتسلّى؟...

وتابعَت ليلى رشق الأسئلة بذهول:

– هناك ألف باب للتسلية دون تعب وعرق.

واعترض منير:

– لن نصدّق هذا الكلام. خبّرنا، يا سعد، لماذا تعمّق الحفر؟ لا بدّ أنّ هناك سرًّا.

طوّقوه!

شعر سعد بأنّه لن يفلت بسهولة، شأنه في مرات سابقة، حين لم يكن متورّطًا في العمل، إلى ذلك الحدّ، فأجاب: – الحقيقة، أنا لا أتسلّى بل أحاول أن أحفر نفقًا.

– وإلى أين يوصل النفق؟

مروان يحاصره من جديد، فيردّ سعد دون أن يبدّل نبرة صوته: – إلى الوجه المقابل من الكرة الأرضيّة.

وانفجَرنا بالضحك.

كلّنا ضحِكنا بعفويّة وصخب. واستمرّت القهقهات في هبوطٍ وصعودٍ بضع دقائق. وسعد... مسكين سعد، لم يفقه سببًا لضحكنا. فهو لم يرَ طرفة، ولم يتلفّظ بكلام مضحك. على العكس، كان ردّه بسيطًا، صادقًا وعفويًّا. لذا راح ينقل نظراته بين وجوهنا، وقد بدَت فيها آثار الارتباك. ولا أعلم إذا كانت براءته هي التي جرّدَتنا من سخريّتنا، وموقفنا العابث، أو إنّنا، وبعدما تلاشَت أمواج الضحك، أبصَرنا شيئًا آخر، يستدعي موقفًا جدّيًّا، بدل الضحك العابث. وكان مروان السبّاق إلى التعبير عن تراجعنا: – لا تغضب يا سعد. لم نكن نسخر من عملك. إنّما نجهل أمورًا كثيرة تعرفها أنت... فهل تخبرنا عنها؟

* * *

كلمات مروان جدّيّة وصادقة. وسرعان ما التقطها سعد، واستجاب لها، فراح يشرح لنا كيف أنّ الأرض، تشبه الكرة باستدارتها؛ وإذا حفَرنا في نقطة ما، وتابَعنا الحفر في خطّ مستقيم، نبلغ النقطة المقابلة. ويكون ذلك أعظم اكتشاف.

ولكنّ الحفر يستغرق وقتًا طويلًا!

عبارة معترضة من مروان، ردّ عليها سعد فورًا:

– طبعًا، كلّ عمل هامّ يحتاج إلى الوقت، والتعب.

ـِ

– أوَتريد مساعدة؟

منير يتقدّم بحماسة، ويعبّر عن إرادة كلّ فرد منّا، ورغبته في المشاركة.

ويردّ سعد:

– يمكن أن يحفر كلّ منكم مرّة، أو أكثر، وهذا يعجّل في تنفيذ المشروع.

– ويمكننا أن نخترق قلب الكرة الأرضيّة معك؟

ليلى تعود إلى الاستفهام، وتوقد الحماسة في صدر سعد، فيردّ بنبرة مرحة:

– كلّ واحد بدوره... في العمل، والمغامرة.

– ياه!... ما أعظمك يا سعد! نخترق الكرة من أعلى إلى أسفل، مثلما تخترق السكّين قلب البطيخة... حقًّا هذا ابتكار جديد... ستكون عبقريّ هذا الزمان!

ليلى تجود في الوصف، ورسم الصور الجميلة. إنّها تتكمّش بأذيال الفرصة النادرة.

كان لكلامها أطيب الوقع في نفس سعد، فنهض من مكانه، واقترب من طرف الحفرة حاملًا معوله ثمّ دعاها لتقترب منه: – خذي المعول، وجرّبي حظّك.

* * *

هبطَت ليلى إلى الدائرة، وبدأَت تحفر بقوّة وشجاعة. وما كادت تعمل بضع دقائق، حتى أخذ العرق ينضح من جبينها، واحمرّ خدّاها، وتهدّل شعرها، وكسَتهُ طبقة كثيفة من الغبار. لكنّها ظلّت غارقة في نشوة العمل، رافضة الاعتراف بالتعب.

ويبدو أنّ الفتيان لم يُعجَبوا بشجاعة الفتاة، وتقدّمها عليهم. ودبّت الغيرة في نفوسهم، فقفزوا إلى الحفرة دفعة واحدة: مروان وسمير ومنير. وراحوا يتناتشون المعول، ليحفر كلّ واحد بدوره، وبكثير من المرح والحميّة.

* * *

في تلك الأثناء، جلس سعد فوق صخرة مشرفة على العمل، وراح يتأمّل الرفاق بهدوء، وقد أضاءت وجهه وعينيه دفقات من النور والصفاء.

بعد ذلك النهار، ثابَرنا، جميعنا، على العمل في الحفرة، غير مبالين بالتآليل في باطن كفوفنا الصغيرة من كَبس عصا المعول. فقد كنّا نعمل بحماسة

وإيمان، ونرقب اليوم المشهود، حين ننفذ من النقطة المقابلة، ونكتشف العالم الجديد.

وبالطبع، بقي الأمر سرًّا بيننا، لم نُشرك فيه الآخرين؛ لا الأهل، ولا الإخوة الكبار. وظلّ كذلك، حتى كان صباح يوم قصَدنا فيه الحقل، على جاري عادتنا، فلم نجد للحفرة أثرًا. ورُحنا نتبادل النظرات، غير مصدّقين ما نرى. وخطرَت لنا كلّ الأفكار الغريبة.

هناك مَن قال:

– إنّ الله غضب علينا، مثلما غضب على بناة برج بابل، يوم طمحوا إلى بلوغ السماء، فبَلبَلَ ألسنتهم. ونحن نقوم بعمل مخالف لطبيعة الأشياء، لذا حلّ علينا العقاب من بداية الطريق.

وقال آخر:

– لو كان الله يريدنا أن نثقب الكرة الأرضيّة، لأعطى إشارة لذلك... أو أبقى فجوة في الوسط تصل بين القطبين.

وردّ ثالث:

– أنتم تضخّمون الأمور. أعتقد أنّ صاحب الأرض اكتشف المشروع، واعتبره عملًا تخريبيًّا، فجاء في غفلة عنّا، وطمر الحفرة وأخفى معالمها.

وقالت ليلى:

– هذا كلّه ممكن، ولكن، ما العمل بعد الآن؟... وهل نتراجع ونعترف بالهزيمة؟ قولوا، ما هو موقفنا بعد اليوم؟...

* * *

كان سعد، طوال تلك المدّة، يُصغي ولا يتدخّل. وانتظر حتى أفرغ الجميع خزانات سخطهم وخيبتهم، وتناول الكلام: – كلّ تلك الإمكانات واردة. أمّا الآن، فعلينا أن ننسى الماضي، ونخطّط لعمل جديد. فماذا ترون؟...

وأكّد مروان:

– لن نتخلّى عنك يا سعد. سوف نظلّ وإيّاك سويًّا... اليد باليد، والكتف تسند الكتف، حتى تتحقّق أحلامنا جميعًا، وننفّذ كلّ المشاريع.

– صدَقتَ!...

طيّبت ليلى، وهي تأخذ المبادرة بالتصفيق. ثمّ لم نلبث أن اقتدَينا بها، ورُحنا نصفّق ونهتف بحماسة. ولم نتوقّف إلّا بعدما أعطى سعد الإشارة بأنّ لديه ما يقوله.

وقال، ببساطة وصدق، وانسجامًا مع طبيعته العفويّة: – يا إخوان، ما لنا وللماضي. فإذا لم ننجح في حفر النفق في الأرض، فسوف نجد وسيلة أخرى ننفذ بواسطتها إلى أجواء الحريّة، دون أن يُفسد الأمورَ صاحبُ أرض، أو فضاء. لديّ مشروع جديد، هل أنتم مستعدّون للمشاركة فيه؟...

وصرَخنا بلهفة:

– مستعدّون... كلّنا مستعدّون. قُل لنا، ما هو المشروع؟

نكس سعد عينيه الحالمتين لحظات، قبل أن يرفعهما صوب الفضاء الموشّح ببواكير الغيوم الخريفيّة ويعلن: – تلك الغمامة!

– ما بها؟

السؤال جماعيّ، وملحّ:

– ما بها الغمامة؟...

– قولوا، هل هي مرتبطة بشيء؟...

سأل سعد، وانتظر الردّ على سؤاله... فانبرت ليلى: – طبعًا لا...

– إذًا، هي حرّة، لا يملكها أحد، ولا رباط يشدّها إلى التراب... موافقون؟

– نعم... نعم...

إذًا اختاروا غمامة؟

– لماذا؟

مروان يسأل باسمنا جميعًا، فيردّ سعد بثقة:

– لنتعلّق بأطرافها.

* * *

كنّا نتوقّع أيّ جواب عدا ذلك الجواب المستحيل. فمَن يمكنه أن يتعلّق بأطراف غمامة؟... وهل هي بساط الريح الأسطوريّ؟ وما الفائدة التي نجنيها؟...

كنّا نجترّ تساؤلنا، ولا نملك الشجاعة لنعلنه بالصوت العالي، خشية أن يكون لدى سعد ما هو أبعد ممّا يحدّ إدراكنا، لذا صمَتنا وانتظَرنا. وسمِعناه يقول بصوت واضح وصريح: – سنتعلّق بأوّل غمامة تمرّ بنا، فهل أنتم مستعدّون؟

لم نردّ بنعم أو لا... فالطرح يعصى على العقل والمنطق. وكان علينا أن نقرّر بسرعة: إمّا أن ننسحب نهائيًّا من رفقة سعد، أو نقبل التحدّي ونسير في ركابه. وفضّلنا الخيار الأخير، مدفوعين مجدّدًا بتلك البساطة والعفويّة، وهي بعض الصفات التي تجاري كلامه ومواقفه... ومنقادين إليه، بل إلى تلك العوالم التي يخرجها من أحلامه وسرحاته، كما يخرج الساحر المارد من قمقم السحر.

لا. كنّا أضعف من أن نرفض طلبًا مغريًا كذلك الطلب. لذا تسلَّقنا أعلى صخرة فوق تلّة تشرف على مساكن «الجورة» وبساتينها. وانتظَرنا مرور أسراب الغمام.

وكان الضباب يفرش بحره الرماديّ تحت أبصارنا، ويكثّف الطبقة العازلة بيننا وبين سماء القرية.

ونحن، كنّا نطمح إلى الغمام الراحل، في الأعالي، لا إلى الضباب الملتصق بالطبقات السفلى.

وكنّا ننتظر، بشوق، أن تمرّ بنا غمامة شاردة، فتخفض أطرافها، مثلما يخفض النسر جناحيه، كي تمكّننا من التعلّق بأذيالها. ولم يكن المطلب مستحيلًا، إذ لم يمضِ على وقوفنا فوق الصخرة، سوى بضع دقائق، حتى زارَتنا غمامة رماديّة زرقاء، دكناء. فمدَدنا أيديَنا بحماسة وتعلَّقنا بها، وانتظَرنا الإشارة التالية من سعد؛ وكان هو السباق إلى التشبّث بأطراف الغمامة بكلتا يديه. وسمِعناه يأمرنا: – الآن... إبدأوا الطيران...

كنّا، في أعماق العقل والمنطق، نعرف أنّ هذا الطلب مجنون. لكنّ سطوة القائد، وإقدامه المؤمن، وثقته العمياء، كلّ ذلك، جعلنا ننساق انسياقًا لاواعيًا إلى تلبية أوامره. وهكذا طِرنا. واستقرَرنا فوق الصخور، وقد تهشّمت منا الوجوه والأذرع والسيقان. وأصيب سعد بجراح في وجهه ورأسه، فتعاونّا على نقله إلى مستوصف نقّال، يزور «الجورة» من حين إلى آخر. وتابعَتِ الغمامة المختارة تحليقها، ومطاردة رفيقات لها في أعالي الفضاء، غير مبالية بالجراح النازفة والدماء المنثورة فوق الصخور.

* * *

أبقَينا خبر الفشل الثاني سرًّا عن أهلنا، وتعلَّلنا بكلّ العلل كي نبرّر لهم إصاباتنا الجماعيّة بالجراح والكدمات. ولم يكن ذلك صعبًا، فالعراك مع الطبيعة

وعناصرها، جزء من حياتنا اليوميّة، وجولاتنا تنتهي بالانتصار حينًا، وبأشنع الهزائم في معظم الأحيان.

* * *

انتظَرنا أن يتراجع سعد هذه المرّة. ويعلن أمامنا فشله. لكنّه لم يفعل. فكلمة هزيمة لا ترد في قاموس مفرداته. كانت تلك، في نظره، جولة أخرى، وإذا لم نحقّق النصر، ونُصب الهدف، فلا بدّ من جولات أخرى تفي بالغرض.

غريب كيف كنا نرشف كلمات سعد وكأنّنا واقعون تحت تأثير السحر، أو التنويم المغناطيسيّ. لذا، لم نتردّد في العودة إلى سماع حكاياته، ومغامراته، ودعواته الغريبة والآتية من مناطق اللامعقول.

* * *

كنّا جالسين، كعادتنا في الأمسيات الخريفيّة، فوق صخرة «القرقار» المشرفة على القرية وكرومها، وبساتين الزيتون، وحقول القمح، إشراف حارس الزمان؛ والمطلّة على الوادي العميق، وتلك الشعاب المتفرّعة منه، والمتلاحقة في التفافها حول التلال، وحتى يضيّعها البصر.

وكان سعد حاضرًا معنا بالجسد، فكره شارد، وعيناه زائغتان، وكأنّهما تبحثان عن مفقود يصعب التقاطه بالعين المجرّدة. وكنّا نلاحقه بنظراتنا وكلٌّ منّا يطمح إلى أن يكتشف معه، أو قبله، السرّ الآتي.

وفجأة أبصَرناه يقف، ثمّ يمدّ ذراعَيه ليصبحا في موازاة كتفَيه ويصرخ: – هذه المرّة سنخترق الفضاء... هل تعلمون أنّ الإنسان كان في أصله طائرًا بجناحين؟

قال ذلك وتوقّف، وكأنّه يعطينا فرصة إبداء الرأي أو التقاط الأنفاس... وتابع: – ثمّ غضب عليه الخالق، فنتف الريش من جناحيه، وغرس مكان كلّ ريشة شعيرة ضعيفة، لا تنفع ولا تضرّ.

أعترف بأنّنا جمِدنا في مقاعدنا واستيقظَت في نفوسنا ذكريات الهزائم السابقة. وانبرى مروان يعبّر عمّا يدور في أفكارنا. انتصب في مواجهة سعد وصاح في وجهه بجرأة أثارت إعجابنا: – هذه المرّة، لن نرافقك... تريد أن تطير، حلّق وحدك. إذا سقَطنا من فوق الصخرة لن ننجوَ من الموت... وأنت معنا، بالطبع.

تأمّله سعد وكأنّه لا يصدّق ما سمعه. وأبصَرنا في عينيه، إلى جانب النظرات البسيطة، أبصَرنا آثار خيبة. لكنّه لم يتوقّف عن رفيف «الجناحين» دون أن يكترث للردّ. ولم يُعطِنا الفرصة لإعداد عبارات تكون أشدّ إقناعًا من ثورة مروان، فتُثنيه عن عزمه، وتُعيده إلى الواقع.

رفع ساعدَيه وطار. ورأَيناه يحلّق بضع ثوان، وكأنّما نَبَتَ الريش في ساعدَيه، أو كأنّه استعاد المهارة التي زعم أنّها فُقدت من جنس البشر، جيلًا بعد جيل.

وقبل أن نستفيق من ذهولنا، كان «الطائر العزيز» يحطّ فوق الشجرة...

تُراها المصادفة؟

أو إنّه القدَر؟

كيف لم نلاحظ تلك الشجرة الناهضة من زاوية الحقل، والمتشامخة في موازاة الصخرة، حتّى تكاد تساويها ارتفاعًا...

لم نجرؤ أن نتطلّع إلى مكان السقوط. أدَرنا وجوهنا في الاتّجاه المعاكس وقد جمّدَ الخوف الدماء في عروقنا.

كيف نواجه أهلنا، إذا وقع لسعد أيّ مكروه؟ كيف نواجه أهله؟ وهل يصدّقون حكايتنا؟

* * *

أعادَتنا من أعماق الشرود صرخةُ فرح، استدَرنا صوبها غير مصدّقين: كان «الطائر» سعد واقفًا فوق أحد الأغصان، يرمقنا بنظرة انتصار، وهو يرفّ... يرفّ بجناحيه.

بيروت 1985

الشوق

سمِعتُ نقرًا خفيفًا على باب غرفتي، وحسبتُني أحلم.

كان الوقت قد جاوز منتصف الليل. وأنا وحدي، في المنزل، وحسبتُني أحلم.

لم أبذل أيّ جهد كي أفتح عينيّ، أو أنهض من سريري لأفتح الباب. لكنّ النقر ظلّ يتكرّر، بالوتيرة الهادئة التي بها، بدأ.

قفزتُ من فراشي، ووقفتُ خلف الباب الموصد أسأل همسًا: – مَن هناك؟... مَن الطارق؟

ولم أسمع جوابًا. وتضاعفَت دقّات قلبي. مَن يزور في هذه الساعة المتأخّرة من الليل؟... مَن خطر له أن يطرق بابي ويغرس الذعر في نفسي؟...

ومَن يجرؤ على فتح باب داره، في ليلة من الليالي البيروتيّة الحامية؟... مَن؟...

* * *

ثمّ تلاشَتِ التساؤلات كلّها، حين تنبّهتُ إلى أنّ هذا الباب لغرفة داخلية، هي غرفة نومي... وليس الباب الخارجيّ؛ أي باب الدار المرشّح لأن يطرقه القادمون من حيث أتوا.

وهُلع قلبي، وتضاعفَت دقّاته مرّات، حين أشرقَتِ الفكرة في بالي، وتصوّرتُ أنّ «أحدهم» اقتحم الدار عنوة، بقوّة السلاح، مثلما يحصل في هذه الأيام المنكسرة.

أو إنّه الخيال، وتصوّراته الخارقة، تجنح بي بعيدًا؟... أو ربّما نسيتُ الباب الخارجيّ مفتوحًا؟!...

الأرجح أنّ هذا ما حدث تمامًا...

فقد لاحظتُ، في الآونة الأخيرة، أنّ ثمّة ثقوبًا بدأت تظهر فوق صفحة الذاكرة، وبات النسيان واقعًا لا خلاص منه.

أَوَلَم ألاحظ كيف بدأَتِ الأسماء تهرب مني، كلّما حضرَتني وجوه الأصحاب والمعارف؟...

وهل أنكر أنّي ذات يوم، نسيتُ اسمي، وبقيتُ، بضع لحظات، غارقة في ذلك الضياع المخزي؟...

إذًا، أَوَيكون مستغربًا، بعد كلّ ما حصل، وحدث، ووقع وجرى، ويُنتظر أن يحصل، ويحدث ويقع ويجري... أَوَيكون مستغربًا أن أنسى باب الدار مفتوحًا؟...

* * *

لكنّ معادلة جديدة تلغي كلّ ما سبق، وفكّرت فيه؛ وتُرجعني عن ظنوني، وشطحات الخيال، مؤكّدة لي أنّ ذلك لن يحصل... ويستحيل أن يبقى الباب الخارجيّ مفتوحًا.

لأنّ إقفال باب الدار لم يعد عمليّة آليّة، تديرها بطرف إصبعك دون جهد أو تفكير، بل أصبح له، في زمن الحرب، والدمار، طقوس تتطلّب من المرء الجهد، والوقت، والتفكير.

وأنا، مثلي مثل أيّ مواطن خاضع لقانون الغاب، أنفّذ العمليّة بدقّة وأمانة، تسيّرني غريزة الدفاع عن النفس، والتشبّث بالبقاء على قيد الحياة.

قبل أن أفكّر براحة الليل، أقوم بعمليّة تؤهّلني لأستحق تلك الراحة: أُقفل اللوح المصفّح بالحديد الثقيل. أجرّه، بكلّ ما لي من عزم وقوة، حتى يلتصق بالعتبة، ثمّ أوصد الباب الآخر، والمصنوع من الخشب الصلب. بعد ذلك، ألتقطُ الجنزير الحديديّ، المعلّق في قاعدة تخصّه خلف الباب، وأربطه بالقفل. ولا أوصد القفل إلّا بعد أن أتأكّد أنّ المفتاح الرئيسيّ استدار في «الغال» إلى حدّ اصطكاك الأسنان.

وبعدما أُنهي المهمّة، وأطمئن إلى أنّ كلّ الفواصل والعوازل باتت قائمة بيني وبين العالم الخارجيّ...

عند ذلك فقط، أتسلّل إلى غرفة نومي، وأُقفل خلفي الباب، من الداخل، طبعًا. ولا أشعر بالطمأنينة النهائيّة، إلّا بعدما أنتهي من إقفال النوافذ الخشبيّة

والزجاجيّة، وإسدال الستائر الكثيفة. ولا يفوتني أن أبقي دفّات الأبواب والنوافذ الزجاجيّة، مشقّقة قليلًا، تحسّبًا للهزّات العنيفة، والتي تجيء عادة من أعماق البراكين الجوفيّة. أو تحملها إلينا القذائف الهابطة من الجوّ، والطالعة من البحر، والقريبة جدًّا، بل الأقرب إلينا من رموش أعيننا؛ تلك المتسرّبة من زقاقنا الضيّق.

وحين يطمئنّ البال إلى أنّ هذه الإجراءات المشدّدة، والتي أصبحت عادة متأصّلة فينا، منذ عشر، قد نفذت...

عند ذاك فقط، أسمح لنفسي، جسدي الواهي، وروحي الذابلة، بالاستسلام للنوم.

* * *

تنهص العبارة من قاع ذاكرة الطفولة؛ ومن دفاتر الإنشاء الأولى: «واستسلم فلان إلى نوم هانىء...» ونحن اليوم، نستعير العبارات، والكلمات القديمة، لنصف حالات مستحدثة، تتخطّى كلّ وصف، وتتجاوز أيّ كلام!...

يكون واحدنا غارقًا في عزّ النوم، غائصًا حتى قاع الأحلام، حين يفاجئه سقوط قنبلة فوق رأسه، أو انفجار سيارة مفخّخة تحت شرفة داره، أو يلعلع الرصاص وتزغرد «المضادّات» وتتفجّر الصواريخ في دماغه أوّلًا، ومنه تنتشر في مسامّ جسمه، فتمتصّها حواسّه جميعها وتشارك في هضمها حتى أعماق الوعي وقاع الكيان.

* * *

وربّما كان إنساننا مستسلمًا لنشوة الحلم، وقد بات الملجأ والخلاص... يهرب إليه، من مناظر نهاريّة تضرب عينيه برؤوس حرابها.

أو يكون في تلك الحالة من النشوة الخادعة، وهو يحمل نفسه، ويسرح معها، فوق الغمام، حين يأتي مَن يطرق بابه، ويعكّر مزاجه، ويدفعه إلى الخروج من حلمه، من هربه، من نشوته المزعومة، أو من الدفء الوهميّ الذي استساغه...

ويأتي مَن يسلبه حرّية اختلسها بأسلوب مميّز، وغير قابل للتقليد. ويخطفه من تجوّله في عوالم ماضٍ عرف فيه طعم العيش الطبيعيّ، حين كانت له

حرّية الخروج من بيته، ليسير في الشارع، أو يسبح في البحر، أو يصعد إلى الجبل.

وحين كانت له الشجاعة ليلبّيَ رغبة ابنه الصغير، فيتجوّل معه في أسواق المدينة، أو يأخذه في نزهة إلى الشاطىء، أو بين غابات الجبل...

كيف كان يسوق زمانه والأيام؟ كيف لم يحسب بأنّه سيبلغ هذا المصير البائس، فيصبح أشبه بالجرذ الجبان؟...

بل إنّ الجرذان، في هذا الزمن الرديء، قد خرجت من جلودها... من عاداتها... وباتت تتحكّم بمصير العباد.

* * *

وثمّة يد تنقر الباب بهدوء. وأنا واقفة خلفه أردّد السؤال: – مَن؟... مَن الطارق؟

ويتكرّر النقر، دون أن يردّ أحد على سؤالي.

عبثًا طال انتظاري. فلا زادت الدقّات عنفًا ولا أنا تقدّمت أبعد من تكرار السؤال. وحسبتُ أنّ الليل يكاد ينقضي، وأنا على تلك الحالة من القلق والريبة. وبدأت الشكوك تغزو فكري. وتساءَلتُ إذا كان الذي يحدث هو حالة من حالات النوم الصاحي، أو الحلم؟...

صحيح! لماذا لا يكون كلّ ما سمعتُه، وفكّرتُ فيه، وهمًا، خرج معي، وأنا أنهض من أعماق حلم؟...

ذلك أنّ عيشنا أوصلَنا إلى تلك الحالة من التواصل بين اليقظة والمنام، لكثرة ما تتقطّع فترات النوم، بفضل الانفجارات، واشتداد القصف، فلا نعود نعرف: هل إنّنا داخل دائرة النوم، أو في استراحة اليقظة؟ أو إنّنا نتجوّل بين دهاليز الأحلام-الكوابيس؟...

* * *

الحقيقة، أنّي بلغتُ، في تلك اللحظة، إحدى مناطق اللاوعي، إذ دفعَتني المغامرة الذهنيّة إلى أقصى مداها، ولم يعد أمامي سوى الخضوع الكلّيّ.

ولكن!...

يعود التساؤل يطرق جدار الوعي:

ولكنّ الخضوع لمَن؟... ولماذا؟... أللاستسلام فالنوم؟ أم للمواجهة، واليقظة الشجاعة؟... وكيف يسعُني، وقد خرجتُ من تلك الدائرة العجيبة، والتي نقلَتني من زماني ومكاني، وطرحَتني في الغياب...

كيف يسعُني أن أصف دقائق شعوري، وحقيقة أحاسيسي؟

* * *

ويعود النقر اللطيف يتكرّر. وأصمت.

أحاول من خلال صمتي أن أُقيم حوارًا مع المجهول الواقف خلف الباب، ربما عن طريق التخاطر.

ربما...

* * *

لم أُعطِ المزيد من الوقت للتفكير أو التأمّل.

دخل الضيف غرفتي فجأة، وظلّ الباب موصدًا. ووقفتُ أتساءل، بصمت وحيرة: كيف أمكَنَه الدخول؟... ولم أجرؤ أن أرفع نظري إلى وجهه. وبالطبع، لم تكن لي الجرأة كي أطرح عليه السؤال المؤجّل: – كيف تمكّنَت من دخول الغرفة وبابها مقفل؟

* * *

– أونسيتِ؟...

سأل بصوت هادىء نقيّ، أيقظ في كياني جمهرة من الأحاسيس الغافية وفجّر دموعي... فجّر أقنية دموعي...

– أونسيتِ؟...

* * *

أعرف هذا الصوت. أُحسّه يتمشّى تحت رقاق جلدي... في المسامّ المنتشرة على امتداد كياني...

– أعرف هذا الصوت!

قلتُها بنبرة عالية، فردّ فورًا:

– طبعًا تعرفينه... إرفعي نظرك إليّ، وتأمّليني!...

– أبي؟!...

صرختُ، بدهشة وذهول.

– نعم.

قالها بهدوء، فتابعتُ:

– ولكنّك...

وقاطعني:

– قولي... لا تخافي تلك الكلمة. الفظيها كاملة.

– لقد فارقتَنا منذ...

– ستٍّ، والآن خطر لي أن أقوم بالزيارة... زيارة تفقّدية لا غير.

– و... كيف؟...

لم يدَعني أُكمل:

– تقصدين سؤالي: كيف دخلتَ؟ الأمر بسيط جدًّا، هل أُفصّله لك؟

– لا... لا... يكفيني أنّكَ هنا، وأنّ هذا الشعور العذب من المحبّة والحنان، يغمرني... ولكن قلْ...

– لماذا جئتُ وحدي؟...

صُعقتُ:

– أنت تقرأ أفكاري. لا أذكر أنّه كانت لك هذه الموهبة...

– إنّه الأمر الطبيعيّ في موطني الجديد. عندنا، أُلغيت الحواجز ورُفعت السواتر، وبات الناس كيانات حرّة، تتداخل وتتعانق، وتتفارق مثلما تفعل ذُرَيرات الهواء، دون جهد أو عناء، أو عتاب أو ندم.

– وأمّي؟... أقصد هل أنتما حاليًّا...؟

– أجل. نحن قريبان مثلما كنا دائمًا. لا يسعني القول إنّنا زوجان. في عالمنا الجديد، لا مكان للكلمة، ولا أحد يفهمها. لكنّ هذا لا يمنع كائنين من اللقاء الأبديّ، بل الاتحاد.

– ولماذا لم تصحَبها؟ قلبي يتفطّر...

– أرجوكِ، استخدمي كلمات بسيطة، بوسعي أن أفهمها.

– مشتاقة لرؤية وجهها الطيّب.

– إنّها تزوركِ دائمًا.

– أعرف. لكن ليس كما تزورني الآن. إنّها تجيء في الحلم. وأنت فتحتَ بابًا جديدًا في الاتصال.

– لا تتكلّمي كالجهّال. هذا الباب كان مفتوحًا منذ الأزل، وسوف يبقى إلى الأبد.

– جاء دورِكَ، أبي، في استخدام الكلام المعقّد.

– واحدة بواحدة!...

– لم تفقد روح الفكاهة، وسرعة الخاطر التي ميّزتكَ... كنتُ دائمًا أعلم أنّك لن تتغيّر.

– بل تغيّرتُ كثيرًا، لكنّك عاجزة عن رؤية ذلك؛ فالصورة القديمة لا تزال تغشى بصرك.

– لكنّها صورتك الحالية.

– بل استعرتُها من الماضي، كي تعرفيني.

* * *

قال الكلمة الأخيرة، وأدار وجهه صوب الباب.

سارعتُ أمدّ يدي بصورة عفويّة. ولم أدرِ ماذا كنت أقصد بتلك الحركة... أن أُثنيَه عن عزمه، وأُبقيَه عندي؟...

أو أصافح يده التي لم تقم بأية محاولة للاقتراب منّي؟... أو أقول له، مثلما كنت أقول، في أيّام الطفولة: – خذني معك... اشتقتُ إلى القيام بمشوار، برفقتك؟...

كنتُ حائرة. هذا أكيد. ويدي ممدودة في الفراغ. وهو يدير لي ظهره وينسحب تدريجًا، مثلما تتلاشى سحابة من دخان. ولم يترك لي مجالًا لأطرح عليه السؤال الأهمّ: هل تشعر مثلما أشعر أنا الآن؟... وهل يغلي الشوق في نفوسكم، فيكاد يذيبها، مثلما يفعل بنا، نحن الأرضيّين؟...

لم أطرح السؤال. لكنّي سمعت الجواب همسًا، ومن خلف الباب الموصد: – طبعًا نشتاق إليكم، وإلّا فعلامَ نتكبّد عناء الرحلة؟...

بيروت 1985

الظلّ الآخر

انتظروا يا سادة، ريثما أفرغُ من سرد الحكاية على مسامعكم، قبل أن تحكموا إن كنت إنسانًا سويًّا، أم مجنونًا، فَقَدَ العقل عند واحد من منعطفات العمر.

نعم، أيّها السادة! حكايتي لا تخلو من الغرابة، وتعود بدايتها إلى يوم بدأتُ أحبو، أي حين بدأتُ أجرّ جسمي الضئيل، وأزحف فوق سطح الأرض.

في تلك المرحلة المبكرة من حياتي، لم أكن في حالة من الوعي، تؤهّلني لأقدّر أبعاد المشكلة، إنّما أعلم أنّها كانت مرتبطة بكياني، وذلك من خلال حكايات ظلّت ترويها عنّي الوالدة، رحم الله ثراها، وهي تجهل المأزق الذي وجدتُني فيه، دون سعي مني أو إرادة.

كيف وعيتُ أخبار الوالدة؟

لنعُد إلى البداية:

ملاحظتها الأولى عنّي، وردَت في حوار جرى بينها وبين جارتنا «أم فرحان». قالَت، يومها، للجارة بين الجدّ والسخرية:

– شو بعمل، يا جارة؟ هالولد يزحف مثل السلطعون.

وطيّبَتِ الجارة خاطرها على الفور:

– كلّ الأولاد يزحفون مثله، يا «أم كريم»... لا يكون لك فكر.

وصمتَت أمي، غير مقتنعة. كيف تطلب منها أم فرحان بألّا «يكون لها فكر» وهي تبصر جسمي يترنّح، في كلّ الجهات؟...

* * *

ذات يوم، حملَتني إلى ضاحية القرية حيث تقوم سنديانة دهريّة، آمنَتِ الجدّات منذ القدم، بأنّ لها قدرة عجائبيّة؛ فهي تصدّ العين الفارغة، وتبارك البطون العاقرة، وترفع أغصانها أذرعَ ابتهالٍ، للقدرة الالهيّة، كي تحميَ المسافرين، وتردَّ الغائبين، وتشفيَ المرضى، وتحقّقَ أحلام الشباب والصبايا.

ونتيجة لهذا النشاط الشموليّ للسنديانة العجائبيّة، عُلّقت فوق كلّ غصن من أغصانها، خصلة شعر، أو شريطة من قماش ملوّن، أو أيّ أثر من آثار إنسان، مرّ تحت ظلّها وخلّف من بعده، نذرًا مجسّدًا.

وقد اكتسبَتِ الشجرة، مع مرور السنين، لقبًا غريبًا، يميّزها عن مجموعة أشجار، لا تقلّ عنها استدارة جذع، وانتشار ظلّ... وهي باقية في قواعدها، شهودًا حيّة، على انتشار الغابات، فوق جبالنا، قبل مئات السنين.

أمّا اللقب الذي التصق بالسنديانة المميّزة، فهو «أم الخرق». وأرجو ألّا يُفهمَ من كلامي، بأنّ أهالي قريتنا، في تلك المرحلة الغابرة، كانوا يقصدون التحقير أو التقليل من أهمّية الشجرة، وعمق أثرها في الحياة العامة... كلّا... إنّما كانت لأولئك الناس الطيّبين، مقدرةٌ على تبسيط الأمور؛ فهم يتناولون الأسماء من أقرب مصادرها. وانسجامًا مع تقاليدهم وصفاء مزاجهم، سمّوها «أمّ الخرق».

وهكذا حملَتني أمّي، في تلك الصبيحة الباكرة، ومشَت حافيةً، حتى بلغت التلّة القائمة في ضاحية القرية، من قبل أن يُرفع الحجر الأوّل في بناء مساكنها.

أذكر الحدث من خلال ما تسرّب إلى سمعي، عبر السنين، من فم الوالدة، أو غيرها من المهتمّين بأمري.

كان عمري في حدود السنتين، وكنتُ قد جاوزتُ مرحلة الزحف، وصرتُ أجري على ساقيّ. وظلّت مشيتي أغرب ما فيّ، وأوّل ما يلفت إليّ الأنظار. وهذا ما جعل الوالدة المسكينة تقضي ساعات وهي تتأمّلني بأسًى، وتفكّر في ابتكار وسيلة، تردّ خطواتي إلى جادّة الاستقامة.

كنتُ، حالما أقف لأتّجه خطوة إلى الأمام، لا ألبَثُ أن أتراجع إلى الوراء خطوةً مقابلها، كأنّما هناك يد تشدّني، وتحول بيني وبين التقدّم الطبيعيّ.

أما إذا اتّجهتُ، في الحركة، لجهة اليمين، فإنّ تلك الطاقة الخفيّة، تبادر فورًا لتشدّني إلى اليسار.

وقد حملَتني الوالدة، أكثر من مرّة، إلى الأطبّاء، وكان كلّ واحد منهم، يلفظني سليمًا، معافًى من أيّة علّة. بل كاد بعضهم يبالغ في تأكيد نظريّاته، فيجنح إلى الشكّ في سلامة عقل الوالدة.

* * *

وهكذا، حملَتني أمي، في تلك الصبيحة، مع يأسها وأساها، وغرسَتني عند جذع السنديانة العجائبيّة، ثمّ جثَت على ركبتَيها تصلّي.

هذا ما قصَّته عليّ فيما بعد، حين كبرتُ، وصرتُ قادرًا على إدراك معنى قولها. وأخبرَتني أنّها حين فرغَت من صلاتها، تلفّتَت حولها، فلم تجِدني. وقامَت تبحث عنّي، فأبصرَتني عالقًا بين شجرتين، من رفيقات «أم الخرق». ما تكاد واحدتهما تجذبني لأسير إليها، وأتلمّس جذعها الخشن بأصابعي، حتّى تشدّني الثانية، وكأنّها تستردّني إلى حضنها. وأنا أبدو، بينهما، في الكرّ والفرّ، مثل رقّاص الساعة... وبالطبع، لم تفرح الوالدة بما رأَت، فردَّتني فوق كتفها، وعادَت بي إلى البيت.

ولم تكتفِ بتلك الزيارة، بل ألحقَتها بعدّة زيارات. كما إنّها لم توفّر المزارات الأخرى، والتي تنتمي إلى جميع المذاهب المعروفة. هذا، إلى جانب نظام اتّبعَته في تدريبي على السير القويم، شأن غيري من الأولاد.

لكنّ سعيها المكثّف لم يوصِلني إلى نتيجة تُذكر. وحين أدخلَتني المدرسة، أوصَت بي الأستاذ، إذ كان عندها بقيّة أمل، بأن ينجح المربّي حيث فشلَت هي ونذورها، فيساعدني لأمشِيَ مشية أبناء آدم.

وهكذا، كان عليّ أن أخضع لتدريب قاسٍ على يد الأستاذ. كان يومىء إليّ، من بعيد، بطرف إصبعه، بينما يلوّح بعصاه بين أصابع اليد الأخرى. وأنا الولد المسكين، الذي يرغب في الطاعة وتنفيذ الأوامر، أسير إليه، ثمّ لا ألبث أن أبدأ العدّ العكسيّ والتراجع. فتعود إصبعه تناديني. وهكذا يمرّ الوقت، و«رقّاص الساعة» يقفز في كلّ الاتجاهات.

* * *

وفي يوم، أمسك الأستاذ بيدي، ودعاني لأخرج معه إلى الملعب. وكانت الشمس قد ارتفعَت قامتين، وامتدَّت فوق الأرض أمامنا، ظلال المباني

والأشجار. وأبصرتُ ظلّي يقفز أمامي، فلحقتُ به، وفجأة، شعرتُ بأنّ قوة غير عاديّة، تشدّني من الوراء. وندت عني صرخة عفويّة:

– دعني... أريد أن أتّبع ظلّي.

إقترب الأستاذ منّي، وسألني:

– ومَن يُعيقك عن اللحاق بظلّك؟...

– أنت... إنّك تشدّني إلى خلف.

تأمّلني الأستاذ باهتمام، قبل أن يسأل:

– هل حقًّا ما تقول؟... هل شعرتَ بأنّ هناك مَن يشدّك إلى الوراء؟

أومأتُ برأسي أن: نعم. فسمعتُه يتمتم:

– هذا يتكرّر كلّما تحرَّكتَ.

– وأنا أحبّ أن ألعب، وأركض، وأسابق أترابي في الجري، ماذا أفعل؟... هاه!؟

وتوقّفتُ عند هذا الحدّ، إذ انهمرَتِ الدموع من عينيّ، وفقدتُ السيطرة على أعصابي. قرّبني الأستاذ منه، وغمرني بإحدى ذراعيه:

– سوف نتابع التدريب، مهما جرى.

ولحسن حظّي، إنّ المدرسة لم تكن تبعد عن بيتنا سوى بضعة أمتار. وهذا ما سهّل انتقالي، إذ إنّي أبذل ضعفَيِ الوقت والجهد اللذين يبذلهما الرفاق، في مثل هذه العمليّة: خطوة إلى الأمام، وأخرى إلى الوراء.

«مشية السلطعون» لا تزال مشيتي. و«أمّ فرحان» كانت تجامل أمّي كي لا تزيدها غمًّا؛ فغرابة تحرّكي لا يمكن أن تفوّت عينًا خبيرة، نقّادة، مثل عين الجارة العزيزة.

* * *

هل أحتاج لأن أُعيد سرد الأزمات النفسيّة التي رافقَت أيّامي المدرسيّة؟ سخرية الرفاق، وهزء البنات!

لا، يا سادة، لا تسيئوا بي الظنون، فشكلي العامّ ليس قبيحًا كما قد يتبادر إلى الأذهان: جسمي كامل، متناسق الأعضاء، ووجهي يستنير بوسامة أُغبط عليها. وعقلي يرجّح كفّة الميزان. إنّما المشكلة كلّها تنحصر في تلك المشية،

التي لم أستطع أن أردّها إلى خطّ الاستقامة ولا تمكّن الآخرون، مع كلّ النوايا الحسنة.

وهكذا بقي عليّ أن أتعايش مع المشكلة، وقد باتَت ألصق بي، من ظلّي، ولا تفارقني إلّا في لحظات الثبات والجمود.

أجل! أدركتُ في مطلع سنوات الفتوّة، أنّ الحلّ الوحيد هو في بقائي واقفًا في مكان واحد، بل مصلوبًا بين... ظلّين!

ها إنّي أطلعتُكم على سرّي. بل فجّرتُه على مسامعكم، مثلما فجّره رجل غامض، زارنا ذات ليلة شتائيّة.

* * *

كان الرجل غريبًا عن القرية.

وفي مساء يوم، طرَقَ الباب، ودخل حاملًا فوق ظهره كيسًا يحوي حاجاته، ويرتدي ثوبًا، يتدلّى من كتفَيه، حتّى تكنس أطرافه الأرض. وكنّا معتادين استقبال الطارقين الغرباء عن القرية، خصوصًا في الليالي الباردة، حين تفجّر الطبيعة غضبها من فوق ذرى الجبال، حتى أعماق الأودية. ذلك أنّ دارنا المتواضعة تقع على مدخل القرية، ولم يكن الضيوف كلّهم من نوعية هذا الرجل، المتسربل بوشاح الغموض. بل كانوا، في غالبيّتهم، من المكارين الذين ينقلون السلع، أو المسافرين بين قرية وأخرى. وكان هذا، قبل وصول «الكرّوسة» إلى القرية. أي قبل أن يصبح عندنا طريق ممهّد، للعربات التي تجرّها الخيول، أو تلك التي تدفعها الطاقة.

ودخل الرجل الغريب علينا، بثقة وارتياح، وكأنّه يدخل إلى داره. سلّم بلطف ثم قال:

– سوف أبيتُ ليلتي عندكم.

لم تكن في لهجته رنّة السؤال. كما إنّه لم ينتظر جواب أيّ منا. أنزل الكيس عن ظهره، وخلع حذاءه عند العتبة، ثمّ طلب سطل ماء ليغسل قدميه قبل أن يطأ الحصيرة؛ وعاد إلينا، يقاسمنا عشاءنا البسيط، وسهرتنا العائليّة.

كان الرجل قليل الكلام، كثير التأمّل والإصغاء. لم يحاول، مثل سواه، أن يسرد قصص مغامراته، بل لبث صامتًا. وحين حطّت عيناه عليّ، شعرتُ بأنّ تيّارًا غريبًا يتّصل بي. حاولتُ أن أهرب من جاذب عينيه، ووقفتُ استعدادًا

لدخول غرفة النوم، وكأنّما حركتي جاءَت تأكيدًا لبعض ظنونه، إذ التفَتَ إلى أبي وقال:

– في بيتكم أعجوبة!

لم ينشرح صدر الوالد لهذا الكلام. كان يفضّل لو تجاهل الغريب علّة أحد أفراد العائلة، بدل أن يشير إليها، بل ينقلها إلى مركز الاهتمام. أما الوالدة فأبدَت ترحيبًا ملحوظًا بكلام الرجل، وسألَته تطلب زيادة إيضاح:

– ماذا تقصد أن تقول، يا عمّ؟...

وتابع كلامه، غير مبالٍ بردود الفعل:

– في بيتكم ولد ذو ظلّين. أرجو أن تكونوا مدركين حقّ النعمة.

فغرَت أمي فاها، وارتفع حاجبا الوالد، وعدتُ أنا إلى مقعدي فوق الحصير، بانتظار المزيد من الشرح.

* * *

كنتُ قد بلغتُ الخامسة عشرة من عمري، وقرَّبَ موعد تقرير مصيري في الحياة. أيّ علم اتّبع؟ أي عمل أختار؟ وماذا ينتظرني في الغد؟...

رفعتُ صوتي بالسؤال، بحدّة السؤال. فابتسم الرجل وقال:

– ينتظرك كلّ خير.

– لم افهم. كلامك غامض. وأنتَ، من أين تعرف حكايتي؟... قُل يا سيدي!

وتابع الرجل بهدوء:

– يا بنيّ، لستَ أوّل إنسان في التاريخ، يولد، ومعه ظلّان. فأنت مثل جميع الناس، لك ظلّ تُبصره حينما تقف في دائرة النور. وهو يعكس صورتك الجسديّة، ويرافقك في مسيرك ويخضع لحركتك أو جمودك. وهذا ظلّنا جميعًا، وإذا فقدَه واحدنا يحسّ بأنّه يتلاشى من الوجود. أما الظلّ الآخر، فلا نستطيع أن نُبصره بالعين المجرّدة، إذ لا يمكننا أن نحدّد مصدر النور الذي يغمره. وقد حلّت نعمة هذا الظلّ على أقلّيّة من الناس. ووصفه القدامى دون أن يدركوا سرّه. اتّكلوا على البصائر وكتبوا. أما اليوم، وبفضل التجارب العلميّة، فقد بات بالإمكان تحديد «الظلّ الآخر» بل وتصويره أيضًا. وهو يختلف عن ظلّنا العاديّ، ولا يتلاشى بزوالنا من الوجود، بل يستمرّ، حتى بعدما نرحل عن هذه الفانية، إذ يحفظ، في ذُريراته الشعاعيّة صورة صاحبه.

قفزتُ فرحًا، واقتربتُ من الضيف، أطلب المزيد من الشرح. تأمّلَني الرجل لحظات، قبل أن يردّ عليّ:

– ليس بإمكاني أن أخبرك الآن ما قدّمه السلف، عبر الظلّ الآخر، لأنفسهم وللإنسانيّة، من فوائد، إذ إنّ الذين أخبروا عن هذه الظاهرة، تركوا ثغرات تضيّعنا متاهاتها. لكن، ما لنا وللماضي، فلنتكلّم عن الحاضر؛ فالعلم الحديث يسعى إلى ابتكار آلة شديدة الحسّ، يمكنها أن تلتقط الظلّ الخفيّ، كما تسجّل الهالة الشعاعيّة، المحيطة بالجسم البشريّ. وهذا إذا ما تحقّق، يكون انتصارًا كبيرًا للإنسان، ولا نعلم إلى أين يوصله. أما أنت فلست بحاجة إلى انتظار تلك الآلة، لنعرف أنّك تملك الظلّ الآخر... أليس كذلك؟...

* * *

كان الرجل يتحدّث بهدوء السيد الواثق من نفسه وكلامه. وكانت عيناه مسلّطتين عليّ؛ ولا أدري لماذا فكّرت، لبعض الوقت، بأنّه، ربّما يحمل الآلة التي عنها يتكلّم... يحملها في بؤبؤ عينيه.

صدّقوني، يا سادة، بأنّي أقول الحقّ. إنّ مرور الرجل الغامض، والذي توارى دون أن يترك لنا عنوانه، أو حتى اسمه، بدّل حياتي، وصار لمشيتي العجيبة معنًى جديد، ومعاكس لكلّ المعاني التي حفرت الألم فوق غابر الأيام. فقد أُتيح لي أن أفهم السرّ الذي يشدّني إلى الوراء في حين أحاول التقدّم إلى الأمام... أو يدفعني إلى الأمام إذا ما حاولتُ التراجع إلى الوراء. وأدركتُ، قبل فوات الأوان، أنّ ذلك الظلّ الآخر، هو الساهر دائمًا لكي يحفظ توازني، ويدفعني إلى أبعاد غير مرئيّة. كذلك علّمني ضيفنا، في تلك الأمسية، أنّ لدى كلّ إنسان، ظلًّا آخر، يبقى كامنًا وغير فاعل في معظم الحالات؛ لذلك لا يقدم ولا يؤخّر في وجود أصحابه، وقد حدث العكس في حياتي، إذ خرج الظلّ من حالة الركود واللاوعي، والحياديّة إلى إحدى حالات الوعي العميق، المتجلّي. وهذه هي النعمة الكبرى التي حلّت عليّ.

ولا أنسى، ما حييتُ، قوله لي:

– إنّك قاسيت الكثير من الألم عندما كنتَ في دائرة الظلام، وقبل أن تدرك هبة ميّزتكَ بها أمّنا الحياة. أمّا الآن، فصرتَ تعلم أنّ الحركة الخارجيّة وحدها، ليست سبيل الإنسان نحو التقدّم والرقيّ. فالأرانب تجري بسرعة وتعجز أنتَ

عن إدراكها. ولكن إلى أين؟... هكذا الإنسان، يجري برفقة ظلّه العاديّ. يتبعه أو يتقدّم عليه دون أن يطرح هذا السؤال. ومشكلة الإنسان، عبر العصور، كانت في تعلّقه بالتحرّك السريع، والذي يسير به على طريق القطيع، وينطلق به في بُعد واحد، ثمّ لا يلبث ذلك الإنسان أن يُصاب بالضجر، ويبدأ بالشكوى والتأفّف.

نعم، أيّها السادة! أتابع اعترافي لكم، وأُقرّ بأنّ حياتي تبدّلَت معانيها، منذ تلك الليلة. صار الظلّ الآخر طاقةً تضاعف مسعاي وتمدّني بقوة أبعد من حدودنا الأرضيّة. وبينما كانت «مشية السلطعون» تضايقني في الماضي، تحوّلت، بعد تلك الليلة، إلى حالة من حالات التجلّي المتواصل. وأهلي، الذين كانوا بي يخجلون، مثلما يخجل الأهل بمولود يخيّب آمالهم، ولا يتّفق مع صورة رسموها له في الحلم وشطحات الخيال... أهلي، يا سادة، باتوا يفخرون بي الآن، وقد نشروا حكاية الضيف، بين سكان القرية وما يجاورها، وعلّقت أمي أكثر من شريطة ملوّنة فوق أغصان «أم الخرق».

أمّا الدافع الذي جعلني أروي الحكاية، وأقف بينكم شاهدًا، بعد انقضاء ثلاثين سنة على تلك الليلة – المنعطف – في حياتي، فهو نبأ صغير جدًّا نشرَته مجلة علميّة، ومفاده أنّ علماء عصرنا توصّلوا إلى اختراع آلة عجيبة بإمكانها أن تصوّر الجسم اللطيف الذي يحيط بالجسم البشري، كما تستطيع التقاط «الظلّ الآخر» الكامن في كلّ إنسان.

* * *

لا يا سادة!... لا تُصدروا الآن، حكمكم عليّ... لا تقولوا إنّ كلامي ضربٌ من الهذيان. انتظروا، أرجوكم، حتّى ينشر العلماء صورة الإنسان الجديد.

بيروت 1982

الضحايا الساذجة

بسيط

أولاد حلال

بسيطة

أودّ أن أُخبركم، أوّلًا، وقبل كلّ شيء، أنّي امرأة بسيطة... بسيطة جدًّا؛ فرياح المدينة لم تهبّ باتجاهي، ولم تتغلغل في ذرّات كياني، لتغرس في أعماقي العُقد، ومشاعر القلق.

والسنوات المتراكمة، فوق هامتي ورموش عينيّ، لم تزِدني معرفة بالأمور الخفيّة أو الظاهرة، ولم تُعلِمني بأنّ خلف الأشياء المنظورة تختبىء أمور كثيرة لا يحدّها النظر... وبأنّ وراء الكلام المسموع، تقوم جبال من الهمس المكتوم.

وتلك البساطة سبّبت لي متاعب لا تُحصى، وأوقعَتني في «مطبّات» لم أحسب لها أيّ حساب. ودفعَتني إلى القيام بأعمال أورثَتني الندامة، ولكن... بعد فوات الأوان.

على سبيل المثال لا الحصر، أروي لكم ما حدث صباح أمس.

سمعتُ ضجّة في منزل الجيران. كان الصراخ ينفذ من خصائص الأبواب والنوافذ الموصدة. وكان صراخًا ملهوفًا، يطلب النجدة، وبأسرع ما أمكن...

أو هكذا خُيّل إليّ... هرعتُ إلى مدّ يد المساعدة، ورحتُ أطرق الباب بعنف؛ وكلّما عنفَ الطرْق، ازداد ارتفاع الصرخات في الداخل. فكّرتُ أن أتّصل بالشرطة، لكنّي أقلعت فورًا عن الفكرة، لأنّي لا أعرف لذلك الصراخ سببًا.

وبعدما انتظرتُ دقائق، حسبتُها دهورًا، فُتح الباب... فتحَته امرأة، مشعّثة الشعر، متهدّلة الثياب والمظهر. حسبتُها الضحيّة، وبادرتُها بالسؤال عمّا بها.

نظرَت إليّ نظرة اختلطَت فيها الدهشة، بالاحتقار وسألَتني:

– وأنتِ، مَن تكونين؟... وماذا تريدين منّي؟

حاولتُ أن أخبرها عن السبب الذي دفعَني إلى طرق بابها، والوقوف على عتبة دارها... قلتُ لها إنّها «النخوة» الريفيّة الأصيلة، تحرّكَت في أعماقي، ودفعَتني لأكون واسطة خير، و...

فقاطعَتني المرأة بقهقهة مجنونة، جمّدَتِ الدماء في عروقي. ثمّ راح صدى قهقهاتها ينخفض تدريجًا، وهي تستدير وتحوّل وجهها عنّي، صوب الداخل... ثمّ سمعتُها تصرخ بملء فيها:

يا مسعود!... تعال، أسرعْ...

حاولتُ أن أُفهِّمها أن لا حاجة تدعوها للاستنجاد بمسعود أو سواه، فأنا مستعدّة للانصراف حالًا، خصوصًا بعدما اكتشفتُ خطأ مسعاي؛ لكنّها رفضَت أن تُخلِيَ سبيلي، بل مدَّت يديها الاثنتين، وتشبّثَت بزندي، وسمّرَتني في الباب... وانتظرَت... وأطلّ مسعود، من غرفة داخليّة. وكان ظهره شبيهًا بمظهرها: الشعر المشعّث، الشكل الزريّ، والسحنة المقلوبة، وأبصرتُ الكلمات تتمطّى فوق شفتيه، وإصبعه تشير إليّ:

– مَن تكون حضرتها؟...

كان كلامه موجّهًا إلى المرأة، وكأنّما سؤاله لامَسَ نقطة الإثارة في كيانها، فعادت تقهقه بفجور، ثمّ حدّقت في وجهي وقالت:

– أرأيتِ؟... هو، أيضًا، لا يعرفك.

تراجعتُ خطوتين، استعدادًا للانسحاب بصمت، فانضمّ الرجل إلى المرأة، وراحا يردّدان بصوت واحد:

– لن تغادري عتبتنا قبل أن تعترفي، وتُقرّي: ما هو السبب الحقيقيّ الذي دفعك إلى إزعاجنا؟

عند هذا الحدّ، توقّفَت مجاري الوعي، واللاوعي في ذاتي. ورحتُ أبحث عن وسيلة للإفلات من الطوق المحكَم حول عنقي، وقد شعرتُ، بالحدس، بأنّه سوف يضيق، حتى يخنق الأنفاس في صدري... استنفرتُ طاقاتي كلّها، وقلتُ:

– أنا الجارة. أقيم في الشقّة المقابلة لشقّتكم. ولما سمعتُ الصراخ...

ولم أُكمل.

قاطعَتني شهقة الرجل:

– صراخ؟!...

ثمّ التفت إلى المرأة وتابع:

– تقول صراخ. مَن كان يصرخ يا نجوى؟!...

ابتسمَتِ «النجوى» بهدوء وخفر، وخفضَت رأسها وعينَيها، أمام نظرات ملتهبة، راح يصبّها في عينيها. ولاحظتُ أنّ ثورته بدأت تهدأ، وتلاشى غضبه... وعادَت هي مرهقة، مرتبكة، تتعثّر بكلماتها:

– ربّما... سمِعَت... صوتك.

وهمس في أذنها بحنان:

– وأنا، هل كنتُ أصرخ؟...

هزَّت رأسها نافية:

– لا... لا... كنتَ...

ولم تكمل عبارتها.

عضَّت شفتها السفلى، وابتلعَت بقيّة الكلام.

وعندها، اقترب مسعود، واحتواها في دائرة ساعدِه، وقادها إلى الداخل. ولم ينسَ أن يصفّق الباب في وجهي.

غبيّة! قلتُها لنفسي مائة مرّة، كي أُشفى من شعور انتابني معذِّبًا، لماذا لم أتريّث؟... ولماذا ظننتُ أنّ الصراخ، في بيت الجيران، يستدعي النجدة؟... ولماذا، لماذا تدخّلتُ، منقادةً، مثلما أفعل دائمًا، لعواطفي العفويّة البسيطة؟

لا... هذا لن يحصل بعد اليوم!

هكذا أكّدتُ لنفسي، وأنا أُلَملِمُ فلول مشاعري، وأضمّد جراح الكبرياء، وأعد النفس بأن ألزَمَ، بعد اليوم، الحياد التامّ، فلا أتدخّل في ما لا يعنيني.

ولزمتُ داري، حتى بدأَت تهبّ عليّ تلك الأخبار المفاجئة، عن الغلاء، وارتفاع الأسعار... خصوصًا أسعار السلع الضروريّة، قوت الحياة.

وأنا ربّة بيت عاديّة، وزوجي موظّف بسيط، ودخله محدود جدًّا، ومن الطبيعيّ أن تهزّنا مثل تلك الأخبار.

قلتُ في نفسي: قومي، يا امرأة، والحقي حالك، قبل أن «تشوط» الأسعار، ولا يعود بوسعك اللحاق بها، وتأمين الحاجات الضروريّة لأسرتك، برغم كلّ

ممارسات التقتير والتقنين، التي اعتدتِها. وهذا ما نصحَني به زوجي نهار أمس، واليوم الذي قبله.

وبالطبع، هو أدرى منّي بتلك الأمور، وأوسع خبرة في شؤون البيع والشراء. فهو يقضي ساعات، كلّ يوم، يحدّثني عن «دور الاقتصاد» في حياة الإنسان، و«ضرورة عصر النفقات» في الأسرة. ويدعوني إلى «التقشّف»؛ وأنا أصغي إليه باهتمام كلّيّ، وأحاول أن أفهم تمامًا، معنى كلماته... ثمّ لا ألبث أن أنساها، في زحمة مشاغلي اليوميّة، وانهماكي في تأمين الراحة لكلّ فرد من أفراد الأسرة...

وهكذا حملتُ حقيبتي، وخرجتُ إلى السوق، كي أمارس دوري في «عصر النفقات» و«سياسة التقشّف الاقتصادي»...

* * *

تذكّرت مخزنًا قديمًا، يقوم عند طرف أحد الأحياء الشعبيّة. والمخزن لا يلفت الأنظار، والبضائع تبقى مكدّسة في زواياه المظلمة أشهرًا، ويعجز عن الاهتداء إليها صاحب المخزن بنفسه. وهو عجوز شحّ نظره، فاستعان على دهره بنظّارات، تخفي عنه أكثر مما تُبدي. وثَقُلَ سمعه، فارتفع سدًّا بينه وبين ما يتسرّب من أخبار العالم الخارجيّ.

مخزن الرجل العجوز كان قصدي وغايتي. هذه المرّة لن أدع الأسعار تغلبني، ولن أُفسح المجال لزوجي كي يسخر مني، ويوسّع دائرة سخريّته، فتعمّ بنات حواء، لأنّ جدّتنا الأولى لم تكن، حسب رأيه، خبيرة في شؤون الاقتصاد. والدليل على ذلك، أنّها أقدمت على قضم التفاحة، والتفريط بها، بدل أن تخبّئها في صندوق التوفير.

كانت هذه الأفكار تدغدغ مخيّلتي، وتدفعني إلى تجاوز قلقي الراهن، وخوفي من الخروج إلى الشارع، وقد أصبح فخًّا يصطاد الناس، بدل أن يكون واسطة عبور...

* * *

حالما وضعتُ قدميّ خارج العتبة، رحتُ أردّد درسًا أُغسل به دماغي: «الدنيا حولك بخير. اضطرابك لا مبرّر له. تأمّلي وجوه الناس... لا تزال في مقدّمة رؤوسهم. والشارع مزدحم بالبشر، وبالسيّارات. والبحر لا يزال بحرًا، ومياهه

زرقاء، وأمواجه تلطم الشاطىء بلطف. وأنت تسمعين صدى اللطمة الناعمة، وتُبصرين الزبد يتكوّم عند حدود الرمال... صحيح أنّ لون البحر يميل أحيانًا من الزرقة إلى ما يُشبه لون البنّ المحروق. لكنّ هذه حالة عابرة، لا تلبث أن تزول، ويعود البحر إلى طبيعته...

والشمس... ألا ترينها تُشرق، كلّ صباح؟ وإذا حجبَتها الغيوم عنك، بعض الوقت، تتريّث وتصبر لتعود فتُشرق دافئة، رائعة الحنان، وتخترق مسامّ جسمكِ، بل تلامس قاع وجودكِ، وتُحييكِ...

والأشجار!... تأمّليها مشتعلةً بالزهر، وفوق أغصانها تنبت الأوراق الليّنة، تُذكّرك بكلام الحبّ الأوّل... وفوق الأغصان البعيدة، تبني الطيور أعشاشها.

صحيح انّها عصافير الدوريّ، المعتادة مثلك الالتصاق بجلد المكان، إلّا أنّها عصافير، على كلّ حال. وهي تنهض مع الفجر، وتسمعين ارتطام أجنحتها فوق حاجب النافذة.

لم تغادر... عصافير الدوريّ، برغم انهيار الدور، واقتلاع الأشجار؛ وكأنّها تحفظ المكان، في الذاكرة... وفي شغاف القلب... (وهل يتّسع قلب الدوريّ لذلك كلّه؟... تظلّين على بساطتك، أيّتها المرأة الساذجة!)...

لا بأس. هذه أمور ثانويّة. المهمّ أنّ العصافير تزقزق، وتعيدك إلى أيّام الطمأنينة والهدوء. وتزيل قلقًا يعصف بك كلّما تذكّرتِ غابة خروجكِ من البيت... وإذا كانت الأسعار ستسبقكِ، وتجري، بسرعة الذئب في قصّة «ليلى» فتفترس الدكّان وصاحبها...

لكنّ التفاؤل يبقى هو سيّدكِ... وتقولين: كلّ ما أطلبه هو شراء السلع الضروريّة.

ثمّ تتذكّرين حذاء ابنك.

لاحظتِ، قبل يومين، أنّ نعل الحذاء مثقوب، وهو مصنوع من مطّاط... أي إنّ رتقه مستحيل. الإسكافيّ يرفض أن يُنقذه بنصف نعل.

وأنت تستمهلين الفتى الجميل:

– انتظر قليلًا يا بنيّ، ريثما أوفّر لك ثمن الحذاء الجديد...

وتعرفين أنّ التأجيل قد يضرّ بمصلحتك... لنفرض أنّ قدم الفتى داسَت مسمارًا صدئًا أو قطعة زجاج (وكم هناك من مسامير صدئة في طريقه،

وزجاجات محطّمة، ونفايات، وعلب تنك. وكلّها تتربّص به، ويمكن أن تغرز في باطن قدمه الطريئة. القدم التي فوقها مرّغتِ خدّيك أيام كان طفلًا... وكنتِ تقبّلينها وكأنّك تتلمّسين بشفتيك جدار الهيكل... أَوَيَهونُ عليك أن تدوس قدمه مسمارًا صدئًا؟).

بلى... الحذاء ضروريّ. كذلك السروال، والقميص، والدفتر، والقلم، والكتاب. قال لكِ هذا الصباح: «إنّ الكتاب الواحد بمائتي ليرة».

وتذكّرتِ أنّها قيمة الراتب الأوّل الذي تقاضيتِه، حين بدأتِ عملكِ في مكتب الشركة.

مائتا ليرة؟!

كانت تكفيك، وتفيض عن حاجتك.

لكنّ الكتاب حاجة ضروريّة. تمامًا كالدقيق والسكّر. وفي الحقيبة بعض النقود، ادّخرتِها لشراء الضروري فقط (القرش الأبيض...)، وتضحكين حين تذكرين المثل القديم.

القروش تلاشَت، كذلك الفرنكات، والعشرات والأرباع، وأنصاف الليرات... بل الليرات... أَوَلَم تُبصريها تكرج أمام عينيك ثمّ تغطس في البحر.

الليرة الحجريّة، مثل «دكدوك» أمّ سليمان في قصص جدّتك... (ها إنّك تعودين إلى لغتك العتيقة والتي تحتاج إلى قاموس جديد يُعنى بشرحها... لماذا لا توفّرين على نفسك العناء، وتسمّينها كعكة مصنوعة من دقيق الذرة) كانت أمّ سليمان تُجيد عجنها وخبزها لإبنها الوحيد اليتيم. وذات يوم، أفلت «الدكدوك» من يده، وراح يكرج، والصبيّ يطارده، حتى بلغ أسفل الوادي، ثم... أين اختفى الدكدوك؟!

رفع الصبيّ الصخرة، فطالعه باب عجيب، انفتح في وجهه، وقاده إلى مغارة... وفي المغارة عثر على كنوز... عناقيد من ذهب وياقوت تتدلّى من السقف، تزيّن الجدران... ومفارش من زمرّد ولؤلؤ، تغطّي الأرض، و... شهق الصبيّ، ثمّ تراجع. لا يريد شيئًا من هذا كلّه. كلّ ما يطلبه هو «الدكدوك» والباب المفتوح.

كنوز الدنيا تحيط به، ومطلبه نسمة هواء، وحفنة حريّة لا غير...

وأنتِ تتسلّين بتداعي الأفكار. لو أعطِيَت لكِ تلك الكنوز، لزالَت كُربتكِ، وفُكّت حُكلتُكِ... لو أُعطيتِ عقدًا واحدًا من لؤلؤ أو زمرّد...

وسليمان عاد إلى أمّه، حين امتدّت يد المارد تفتح له الباب. عاد يحمل هديّة ثمينة... كي لا تستقبله بالصراخ.

وأنتِ باقية في مكانك، على هامش الحكاية...

نعم، تتّجهين صوب المخزن العتيق، في جيب خفّي من جيوب العاصمة... تقولين: ربما الأخبار تسير ببطء فوق هذه الطرق المشقّقة. ربّما الاسعار تسير الهوينا كي لا تسقط في الحفر أو تغوص في الوحل...

وتتابعين سيرك. غافلة عن واقعك. جاهلة أنّ الأخبار بقع زيت، تتفشّى في كلّ مكان، بفضل وسائل الإعلام السيّارة، الطيّارة، أو الإلكترونيّة... أو تلك التي تبثّها محطات سريّة في الكون.

– ارتفع سعر الدولار... ارتفع سعر الخيار، والبندورة، والفجل، والملفوف، والسكّر والدقيق...

وفي حقيبتك ليرات ادّخرتِها لشراء السلع الضروريّة... وقد تكفي، لو بلغتِ المخزن العتيق، المختبىء خلف واجهة من غبار.

ها هو في انتظارك. العجوز الذي أثقلَتِ الأيام سمعه، وخفَّفَت بصره.

ينتظر خلف «متراس» نظّارتين كثيفتين... باب دكّانه مشرّع، والأكياس خِرَق منهوكة، وفوق الرفوف تصفّر الرياح. والرجل يستقبلك بابتسامة. ويدعوكِ كي تتفضّلي، وتستريحي من عناء الرحلة.

– ولكن...

كلمة واحدة تخرج من بين شفتيكِ. ولا يفهم قصدكِ... أو إنّه فهم، لذلك يعتذر منكِ، مبتسمًا، ويخبرك بأنّهم «عزّلوا» الدكّان. هجم رجال الحيّ ونساؤه وحملوا كلّ ما في دكّانه من حاجات، وبقيت، في الزاوية، بضعة أكياس من الملح... هل أنت بحاجة إلى الملح؟...

ملح؟!...

أعترف، ببساطة وصدق، أنّ رياح المدينة لم تهبّ باتجاهي بعد. وأنّ السنوات المتراكمة فوق هامتي، ورموش عينيّ لم تعلمني أنّ وراء الأشياء المنظورة أمورًا كثيرة، لا يحدّها النظر.

بيروت 1985

أولاد حلال

مشهد أوّل: دفعَتِ الباب بيد ترتعش.

تصدّى لها رجل ضخم الجثّة:

– نعم... ماذا تريدين؟

تأتأَت، وهي تُحكم ضمّ أصابعها حول الحقيبة الصغيرة: – أريد أن أقابل المدير.

دوّر الرجل نظراته فوق قامتها الضئيلة، شعرها المشعّث، عينيها الذابلتين، ثمّ انتقلَتِ النظرات إلى موطىء قدمَيها، واستقرَّت على الحذاء البالغ منتصف العمر، ورقص شارباه الكثّان رقصة سخرية: – وماذا تطلبين من المدير؟...

غصَّت بريقها. إنّها لا تؤمّن لهذا الغريب الواقف في الباب. لا تؤمّنه مطلقًا على سرّها الكبير. هكذا أوصاها الجار، وهو رجل متمرّس في شؤون الأعمال. قال لها: «أطلبي مقابلة المدير فور وصولكِ».

وهذا ما فعلَته. وهذا ما تُصرّ على تحقيقه.

– نعم. المدير. أودّ أن أقابله لأمر هامّ.

عاد الرجل يقيسها بنظراته من جديد. وفكّر بأنّ هذه فرصة طيّبة للتفكّه؛ فالذين يطلبون مقابلة المدير يكونون عادة من كبار رجال الأعمال، أصحاب الأموال الطائلة، والودائع المحسوبة. يستقبلهم في مكتبه. يكرّمهم. يضيّفهم القهوة، والسيجار... والمرأة، لا علاقة لها بذلك العالم، ولا بدّ أنّها طائر ضلّ طريقه. ربّما تصلح مادّة للفكاهة. وقد اعتاد أن يغتنم الفرصة ليروّح عن مديره

الغارق في دوّامة العمل الشاقّ... دقيقة واحدة لن تؤخّر العمل، بل تجدّد النشاط، وتخلق جوًّا من المرح... يحسبها فنجان قهوة...

التفت إلى المرأة وقد انتشر الحبور فوق معالم وجهه: – تفضّلي سيدتي. اتبعيني إلى مكتب المدير.

* * *

سارعت خطاها كي تلحق به.

الرجل ليس مخيفًا كما بدا لها من الوهلة الأولى. ها هو ينزل عند طلبها. بل يكاد يكون لطيفًا.

قرع الباب ثلاث مرّات، قبل أن تسمع أزيزًا، فُتِح على إثره الباب تلقائيًّا. وأطلّ وجه المدير من خلف مكتب ضخم: – نعم... أمر، يا دعّاس!...

– أنت صاحب الأمر، سيّدي... السيّدة أصرّت على مقابلتك.

قالها، وغمز المدير بطرف عينه:

– إنّها تطلب مقابلة سيادتك لأمر هامّ.

ثمّ التفت إلى المرأة وتابع كلامه:

– أليس كذلك، يا....؟

تمتمَت شفتاها:

– نعم... نعم يا سيّدي. هذا ما أوصاني به الجار. قال لي: «لا تؤمّني لأيّ كان. إذهبي إلى المدير، مباشرة...».

– أهلًا وسهلًا، تفضّلي واجلسي. رحّب بها المدير برؤوس شفتيه وهو يشير إلى كرسيّ مقابل لمكتبه، وصرَفَ الحارس.

* * *

جلسَت على طرف المقعد، وكأنّها تتحفّز للوثوب.

كبير عليها هذا المقعد الجلديّ الوثير. والمكتب، والأنوار المنسكبة من الزوايا، والهدوء المجلّل المكان، و...

– وماذا تأمر، سيّدتي؟...

سألها المدير بنبرة تجاوزَت حدود اللطف الرسميّ؛ فقد تبلّغ رسالة الحارس، وشاء أن يفيد من هذه السانحة، خصوصًا وأنّ قهوته المعتادة، تأخّرت عن الحضور...

– ماذا بوسعي أن أخدمكِ؟
– أريد أن أسلّمكَ هذه...
ومدّت يدها إلى الحقيبة، فسحبَت مظروفًا وضعَته أمامه على المكتب: – هذا كلّ ما أملك. ثلاثة آلاف دولار عدًّا ونقدًا... أرسلَها ابني الوحيد، سلام، المقيم في «مونتــريال»... هل تعرف «مونتريال» يا حضرة المدير؟...
هزّ الرجل رأسه بالإيجاب، كي لا يخيّبها ويبقيها على خط الحوار، ثمّ تابع الإصغاء: – أرسلَها مع ابن عمّه، سعيد جمال. ابني مثلي، لا يؤمّن للبريد. وأوصاني أن أودعها عندكم ريثما يحين موعد سفري... تعرف، في أيّامنا هذه، أولاد الحرام كثار، وأنا وحيدة، ومَن يدري ماذا يمكن أن يحدث...
ابتسم المدير، مشجّعًا. وبدا منسجمًا مع الرواية، فعاد يسألها: – تسافرين، إذًا... طبعًا لن أسألك إلى أين؟...
ابتسمَت للدعابة، ثمّ حنَت رأسها، خجلى بتجاوزها الأصول. ثمّ لم تلبث أن استردّت جدّية الحوار: – طبعًا، أسافر إلى عنده. ابني، ووحيدي. لم تُبصره عيني من عشر سنين. وهو الآن ناجح، وله زوجة وأولاد. طلبني لمدّة سنة، وأرسل «الفيزا» و«الناولون» و...
– ابن حلال. الله يحفظه ويحميه...
قاطعها ويده تضغط على الزرّ. وفُتح باب جانبيّ ودخلَت منه سكرتيرته: – أوصلي السيّدة إلى شبّاك التوفير.

* * *

قادتها الفتاة الأنيقة خارج الغرفة، وسلّمَتها، مع المال، إلى الموظف المسؤول، بعدما أبلغَته بأنّ المدير أوصى بها، وهو مهتمّ بأمرها. و... لم تنسَ أن تغمزه بطرف عينها وهي تستدير عائدة إلى مقرّها.
دعاها الشاب لتجلس على مقعد قبالته، ريثما يُنهي المعاملة: – سأعطيك دفترًا يمكّنك من سحب المال، ساعة تشائين.
– شكرًا... يا ابن الحلال.
تمتمَتها شفتاها، وهي لا تدري ماذا تقول، وكيف تشكر هذه الجماعة الطيّبة، المرسَلة إليها من العناية الإلهيّة.

ردّدَت، في صمت أعماقها، شكرها لله، على هذا التوفيق الذي أحرزَته. وجلست تنتظر، وتتأمّل الموظّف أمامها، يعمل بجدّ... يسحب أوراقًا، يسجّل فوقها إشارات ورموزًا مبهمة... ثمّ يضعها على الآلة الكاتبة. أو يقرّبها من آلة أخرى تشبه التلفزيون، إنّما صورها تقتصر على الحروف والأرقام. ثمّ يطلب منها أن توقّع على هذه أو تلك. وهي تُطيعه بكلّ طيبة خاطر. الشابّ يعمل في خدمتها. أوصاه بها المدير.

* * *

بعد انتظار طالت مدّته، سلّمها الشابّ دفترًا بحجم أصابع يدها: – هذا دفتر حسابك، سيّدتي. مصروف الهنا.

تناوَلَتِ الدفتر الأخضر، المحفوظ في غلاف بلاستيكيّ جديد، ووضعَته في حقيبتها، وهي تداري شعورًا بالخيبة لحلول هذه القطعة الجامدة من الورق والبلاستيك، مكان القطع الماليّة. لكنّها خشيت إن هي زادت الأسئلة، أن تفضح جهلها، وتخيّب ظنون المدير بها.

أَوَلَم يوصِ بها توصية خاصّة؟...

نهضَت عن المقعد، ومدَّت يدها تودّع الشابّ؛ ثمّ سحبَت قامتها الضئيلة وخرجَت.

مشهد ثانٍ: المرأة الضئيلة القدّ على باب المصرف من جديد.

يُبصرها الحارس. يعرفها، ويستقبلها بالترحيب و«أهلًا وسهلًا... أطلتِ الغَيبة...».

– شكرًا، يا ابن الحلال...

تمتمَتها وهي تداري شعورًا بالاعتزاز، راح ينهض من الأعماق وينتفخ له صدرها. أصبحت سيّدة مرموقة. إنّها تنتمي إلى هذه المؤسّسة الكبرى. وتحمل في حقيبتها دفترًا خاصًّا بحسابها. و... تطلب أن تقابل المدير.

– المدير مسافر، سيّدتي، هل من خدمة أقدّمها لكِ؟...

– نعم... نعم.

قالَتها، وهي تفكّر بأنّه سبق لهذا الرجل أن خدمها قبل شهر، فلماذا لا يفعل الآن، وقد بات يعرفها. ثمّ إنّ المدير مسافر، وليس لها خيار: – نعم. جئتُ أستردّ مالي. فأنا مسافرة صباح غد.

– تفضّلي، اتبعيني.

قالها بصوت الواجب، ثمّ قادها إلى طابق آخر، وإلى موظف آخر، وأدار ظهره وانصرف.

* * *

– ماذا تريد سيّدتي؟

يسألها الشاب بلطف.

– أريد مالي. هذا دفتر الحساب. تفضّل، خذه، وأعطِني المال: ثلاثة آلاف دولار... عدًّا ونقدًا. سلّمتُها لرفيقك بناء على توصية المدير. كان ذلك قبل شهر، بالتمام. والآن أحتاج المال للسفر، صباح غد.

– أمرك، سيّدتي. إسمحي لي بالدفتر.

ناولَته البطاقة الخضراء، ذات الغلاف البلاستيك، وشعرت بأنّها تخلّصَت من عبء ثقيل، ومن لغز مبهَم، لم تستطع فهمه، وإن بقي في حقيبتها مدّة شهر. والآن، الحمد لله... انتهى قلقها، وسوف تستردّ مالها. والله يبارك لهم بهذه البطاقة.

– انتظري لحظة، سيّدتي.

طلب إليها الموظف الانتظار، بلهجة التهذيب المجفّف. وغاب فترة، قبل أن يعود، ليبلّغها بأنّه سوف يصدر «شيكًا» لأمرها بالمبلغ المودع لديه. وعليها أن تنتظر، ريثما تنتهي المعاملة.

وانتظرَت.

وطال الانتظار.

والموظّف يتناول أوراقًا، يقلّبها. يطويها. يضيف إليها، أو ينقّص منها. يضعها على الآلة الكاتبة، ثمّ ينقلها إلى تلك الشبيهة بالتلفزيون.

الموظّف يعمل بجدّ، في خدمتها، وهي تلاحقه بنظرات جوفاء، وترقب اللحظة الحاسمة، حين يفكّ أسرها.

تلفّتَت حولها، فأبصرَت أناسًا مثلها، يجلسون، مثلما تجلس، فوق مقاعد جلديّة وثيرة. وأمامهم موظّفون يقومون بخدمتهم. وهم ينتظرون. ويلبّون ما يُطلب إليهم تلبيته: «وقِّع هنا، سيّدي. وهنا، سيّدتي. نعم، أريدكِ أن توقّعي على هذه الورقة أيضًا».

وهي وقّعَت، وبالطريقة الوحيدة التي حفظَتها عن جارتها أمّ نبيل.

أمّ نبيل علّمَتها طريقة كتابة الاسم. قالَت لها: «إنّ ذلك ضروريّ. يمكنكِ الاستغناء عن القراءة والكتابة بوجود التلفزيون والراديو والكاسيت. أما اسمكِ، فيجب أن تحفظي طريقة كتابته... امسكي القلم جيّدًا، بين أصابعك: الإبهام، السبابة والوسطى. إبدأي بحرف «السين» إنّه سهل: هكذا، خطّ على السطر، وتابعي معي. عمليّة سهلة، والحمد لله أنّ اسمك ليس معقّدًا. «سعدى»... والآن، أعيدي كتابته مرّات...».

هكذا جلسَت أمام أم نبيل كالتلميذة المطيعة، إلى أن باتَت قادرة على رسم الأحرف، من الذاكرة. وبفضل تلك المعلّمة الماهرة، أصبَحَت توقّع اسمها مثل أيّ متعلّم محترم. ولا تبصمه بصمًا كما تفعل النساء الجاهلات.

والآن جاء الوقت لتبرهن عن جدارتها. وتوقّع الاسم مزهوّة، المرّة تلو الأخرى. وتتأمّل الموظّف، كي ترى ردود فعله، فيصدّها قناع جامد يغلّف قسمات وجهه، ويغطّي عينيه.

وتتراجع إلى مقعدها، وتحكم قبضتها حول الحقيبة.

* * *

تفضّلي، سيّدتي. هذا الشيك حاضر. تأخذينه إلى الصيرفيّ «نعمان» في «الحمراء» فيعطيك بدله دولارات.

– ماذا؟..

جرس إنذار مرعب، يقرع داخل رأسها:

– ماذا قلتُ، يا سيّدي؟...

– عفوًا، يجب أن أوضح لك، وحاولي أن تفهمي؛ ليس عندي وقت أضيّعه، هناك سواكِ، ينتظر... نحن لا نتعامل بالدولار نقدي، مفهوم؟... نعطي «الشيك» للصيرفيّ، وهو يسلّمك المبلغ. يجب أن تثقي بكلامي.

– لا أفهم... لا...

سمعَت نفسها تصرخ بصوت مرتفع، غير مبالية بالوجوه التي تحوّلت، من كلّ صوب، باتجاهها: – لا أفهم طريقتكم. أنا أحضرتُ لكم، قبل شهر بالضبط، ثلاثة آلاف دولار، سلّمتُها إلى المدير، وهو أوصى بي... سكرتيرته بذاتها،

أخذَتني إلى الموظّف المسؤول، فقبض المال، وناولَني هذا الدفتر، مؤكّدًا لي أنّه يمكنني سحب المال، غبّ الطلب.

ابتسم الموظف ابتسامة السخرية والتعالي و... الفهم العميق. وراحت يده تربّت كتفها في محاولة تهدئة: – إنّنا نفعل ذلك حرصًا على مالكِ، سيّدتي. إنّ حمل الشيك أسلم عاقبة، خصوصًا في هذه الأيام. تعرفين الطرق تعجّ باللصوص. وهذه بطاقة، تحمل اسم الصيرفي «نعمان» عميلنا في شارع الحمراء. وهو على مسافة قريبة. تأخذين سيّارة أجرة، وفي أقلّ من عشر دقائق، تصبحين عنده... تفضّلي...

* * *

لم يكن أمامها أن تختار غير التفضّل بالخروج.

وخرجَت، مطأطأة الرأس، خَجَلًا من جهلها وغبائها.

هناك أمور كثيرة لم تتعلّمها. وهي الآن، تخضع إلى محكّ والتجربة. وإذن، فكتابة الاسم لا تُغني عن معارف أخرى.

ولم يكن صعبًا عليها أن تهتدي إلى الصيرفي، وهو مشهور في «الحمراء» ودكّانه معروف: – هناك، عند مدخل هذا الزاروب الضيّق، مقابل سينما «ألدورادو».

والصيرفيّ لا يملك عمارة شاهقة، مثل المصرف. دكّانه عبارة عن بضعة أمتار مربّعة، يجلس فيها وحوله الحواري والمتاجرون بالدولار.

فتح لها الباب الكهربائيّ. وسألَتها شفتاه بكسل ولامبالاة: – ماذا تريدين؟...

مدَّت يدها إلى الحقيبة، وأخرجَتِ الورقة «الشيك»، قدّمتها إليه: – البنك أرسل إليك هذا الشيك، كي تصرفه وتعطيَني مالي... ثلاثة آلاف دولار... عدًّا ونقدًا...

تأمّلها الصيرفي بنظرات ساخرة، فرشت الابتسام فوق وجوه حواريه، المحيطين به من كلّ صوب، يرشفون، عبر الأجهزة اللاسلكيّة، أخبار صعود الدولار وهبوطه في أسواق بيروت. وبيدٍ أُفرغَت منها الحياة أعاد إليها «الشيك» معتذرًا: – آسف. أمامنا عطلة الأسبوع. لا نستلم شيكات في مثل هذا الوقت. ثمّ إنّي بعتُ الآن، آخر دولار...

– ولكن...

حاولَت أن تعترض. أن تقول كلمة. فلم يفسح لها في المجال. انفتح الباب بكبسة زرّ، ودفعَتها إلى الخارج يد شابّ، يوظّفه الصيرفي، للتخلّص من الزبائن المقلقين.

قبل أن تستردّ أنفاسها وتفتح عينيها، أبصرَت نفسها على الرصيف، تبحث عن صرّاف ثانٍ وثالث ورابع...

وكان كلّ واحد منهم يكرّر الردّ الذي سمعَتهُ من الصيرفيّ الأوّل.

– آسف، سيّدتي. هذه اللحظة، بعتُ آخر دولار.

بيروت 1985